كتاب الهلال

نور على نور

لسلة
قافية
هرية



كتاب الهلال

KITAB AL-HILAL

سلسلة شهريه تصدر عن « دار الهلال »

رئيس مجلس الإدارة يوسف السباعي

رئيس التحرير : صالح جودت

العدد ٢٥٠ رمضان ١٣٩١ نوفمبر ١٩٧١

No. 250 — Novembre 1971

مركز الادارة

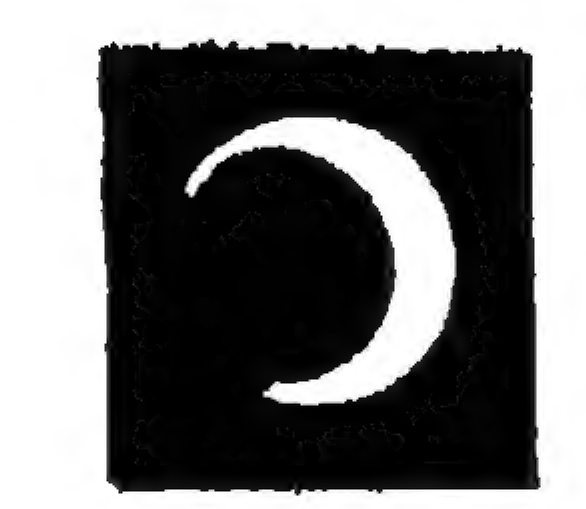
دار الهلال ١٦ محمد عز العرب

تليفون : ٢٠٦١٠ (عشرة خطوط)

الاشتراكات

قيمة الاشتراك السنوى : (١٢ عددا) فى جمهورية مصر العربية .وبلاد اتحادى البريد العربى والافريقى ١٠٠ قرش صاغ – فى سائر انحاء العالم ٥ر٥ دولارات امريكية أو ٢ جك – والقيمة تسدد مقدما لقسم الاشتراكات بدار الهلال : فى جمهورية مصر العربية والسودان بحوالة بريدية . فى الخارج بشيك مصرفى قابل للصرف فى جمهورية مصر العربية – والاسعار الموضحة اعلاه بالبريد العادى – وتضاف رسوم البريد الجوى والمسجل عند الطلب على الاسعار المحددة ..

كتاب الهلال



رية لنشر الثقافة بين الجميع

الغـــــلاف بريشـــة
الفنــان جمـــال قطب

أحمد فراج

نور على نور

دار الهلال

بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم

الحمد لله والصلاة والسلام على رسـول الله وعلى آله وصحبه ومن تبعه بالاحسان الى يوم الدين • وبعد ..

فان فكرة جمع حلقات برنامج « نور على نور » الذى اتشرف بتقديمه خلال التليفزيون العربى منذ عام ١٩٦٠ فكرة قديمة ومتجددة معا ، كان أول من فكر فيها هـو السيد الدكتور محمد عبد القادر حاتم نائب رئيس الوزراء ووزير الثقافة والاعلام ،وكان صاحب فكرة البرنامج ذاته وظهرت الفكرة الى حيز الوجود فى كتاب واحد صدر فى منتصف عام ١٩٦١ يحمل اسم البرنامج ويتضمن عددا من حلقاته كانت قد تناولت بعض الجوانب فى اشتراكية الاسلام

وكان لنفاد ذلك الكتاب فور صدوره أثره فى الحاح متزايد واجه البرنامج على ضرورة طبع حلقاته أولا بأول ونشرها على أوسع نطاق ممكن مساهمة فى خدمة الثقافة الاسلامية وقضايا الفكر الاسلامى التى نعرض لها كل أسبوع ، وعلى اعتبار أن الكلمة المكتوبة تعطى بعدا آخر يضاف اليها بعد ان تكون مسموعة او مرئية فحسب •

ولقد واجهتنى دائما صعوبات عملية قد لا تجعل تنفيذ الفكرة أمرا مستحيلا ، ولكنها تحتاج الى طاقة ووقت لم تسمح بهما ظروف العمل فى الحقل الاعلامى • ولربمـا

استشعر هذه الحاجة بعض الفضلاء كما ادركتها بعض دور النشر في مصر وفي عدد من البلاد العربية الشقيقة ، فتلقيت عديدا من المكاتبات يعرب فيها اصحابها عن استعدادهم للقيام بما يحتاجه اعداد هذه الحلقات للطبع والنشر من مراجعة وتحقيق واعادة صياغة في بعض الاحيان . ولكنني كنت أدرك دائما أن أمانة الكلمة مسئولية كبيرة ، وادرك في نفس الوقت مع السادة العلماء ورجال الفكر الذين أسهموا في تقديم البرنامج لجمهوره ، أن هناك عنصرين اساسيين يحكمان الحديث باستمرار في كل موضوعات البرنامج :

العامل الاول : هو الزمن ، الذى يضطر المتحدث معه ان يختزل قضايا تحتاج الى ساعات في عرضها أو الى دراسات مستفيضة ، في دقائق محددة .

والعامل الثاني : هو الارتجال في ذلك الزمن المحدد ، وهوأمر يحدث معهألا تفي الكلمات احيانا ،وبالدقة المرتجاة، بكل المضمون الذى يستهدف طرحه ، وبشكل واف ومتكامل .

ومن هنا فان التفكير في تسجيل موضوعات البرنامج كتابة ، يقتضي ـ أمانة ـ الرجوع بأصولها الى المتحدثين ليراجعوها بانفسهم فيوضحون ما غمض ، أو يفصلون ما اجمل ، أو يضيفون ما يجعل الفكرة اكثر وضوحا حيث يصبح المجال أكثر انفساحا بالطباعة ، عما كان « على الهواء » .

ثم سنحت فرصة طيبة أتاحتها مجلة الاذاعة والتليفزيون بتنفيذ الفكرة جزئيا . وذلك بنشر حلقة واحدة في كل عدد من اعدادها الاسبوعية ، وكانما كان ذلك توزيعا للجهد وتنظيما له ، وان لم يكن في الحقيقة تخفيفا من مقتضياته ، فبدأت بانتقاء مجموعة من الحلقات أراجعها

وأضبط ما فيها من نصوص وأعود الى المتحدثين فيها فى كثير من الاحيان قدر ما أطيق ، حتى نشرت سلسلة منها لقيت فيما أظن أصداء طيبة ، عاد معها الالحاح على الفكرة الاصلية وهى تجميع الحلقات ونشرها فى سلسلة دورية تحمل اسم البرنامج ..

واذا بالاستاذ الكبير الصديق صالح جودت يتصل بى ويثير الفكرة مرة أخرى ويناقش الصعوبات ، وييسر كل السبل لبعثها من جديد فى « كتاب الهلال » وكان من تشجيعه أنه رحب بانتقاء مجموعة ممتازة مما نشر فى مجلة الاذاعة والتليفزيون وبدراسة قيمة للدكتور عبد العزيز كامل وزير الاوقاف وشـــئون الازهر نشرت فى الكتاب الاول للبرنامج ، فوجدتنى أزايل ترددى لاضم اليها عددا آخر من الموضوعات التى لقيت ترحيبا كبيرا من السادة المشاهدين بل وألحوا على اعادة اذاعتها ونشرها واخص منها هنا سلسلة الموضوعات التى قدمها الدكتور احمـــد كمال ابو المجد مستشار مصر الثقافى السابق فى واشنطن والاستاذ بالجامعة وأمين الشباب ، حول قضايا الحرية والمساواة والديمقراطية وسيادة القانون فى التصـــــور الاسلامى ..

***

ولم يكن من السهل على أن أتصور صدور هذا الكتاب دون أن يتضمن حلقة بذاتها تكاد تكون واحدة من انجح حلقات البرنامج ، اقـــول ذلك دون تحيز لانه حـــكم الذين شاهدوه بل وحكم الذين اشتركوا فيه من العلماء والمفكرين ، وقد بلغ من ذلك آن البرنامج تلقى من الرسائل عـــددا غير عادى ، فى طلب نشر هـــذه الحلـــقة ربما تلاها لنفس المتحدث . وكان من الملفت للنظر أن يطلب البعض طبعها على اسطوانات ، بل ولقد تلقى البرنامج فعلا

عرضا من احدى شركات الاسطوانات الكبرى لطبع الحلقة .. واعنى تلك التى اشترك فيها الاستاذ الدكتور المهدى ابن عبود الذى كان سفيرا للمغرب الشقيق فى الولايات المتحدة ، وهو الان يعمل طبيبا فى مدينة سلا بالمغرب .

وقد أحببت أن يكون هذا العدد من كتاب الهلال فرصة لتحقيق تلك الرغبات العزيزة والكريمة معا . مع تسليمى بأن اللقاء مع هذه الحلقة مكتوبة قد لايبلغ نفس مستوى المتعة من مشاهدة ضيفها بالقائه وأسلوب أدائه وعرضه المتميز .

***

وبعد ، فان اختيار هذه الحلقات صادف موضوعات اشترك فيها عدد معين من كبار العلماء والاساتذة ولم يصادف حلقات لغيرهم ، ولم يكن ذلك عن قصد ، أو ايثارا لبعضهم على بعض ، فلكل فضل الاسهام الايجابى فى خدمة الثقافة والقضايا الاسلامية عن طريق البرنامج . وان كان فى تلك المصادفة قصور حجب بعض المفكرين عن ان يطلوا بفكرهم مسجلا على قراء كتاب الهلال ، فانها تفرض التزاما جديدا ــ بأعبائه التى أرجو الله العون عليها ــ بأن تتكرر هذه المحاولة وتجمع حلقات أخرى فى كتب أخرى ، تكون اضافة الى هذا الفضل الذى تصنعه دار الهلال .

معنى آخر جدير بالتقرير هنا ونحن فى مقام التوثيق ، هو أنه اذا كان من المتعذر أن يحتفظ التليفزيون بتسجيلات كثير من البرامج التى يقدمها لمشاهديه ــ ومنها حلقات برنامج نور على نور التى لا يمكن الاحتفاظ منها بعدد يجاوز أصابع اليدين ــ فلا شك ان اصدارها ونشرها كتابة ينطوى على بعض العوض .

***

وأرجو أن يكون فى نشر هذا الكتاب استجابة جزئية

لرغبات غالية طالما تلقيناها من الكويت والأردن والسودان وليبيا والجزائر وسورية والعراق والمملكة العــــربية السعودية ،وقطر ،وهى الدول التى عرض البرنامج من خلال محطاتها التليفزيونية أو شوهد فى بعض اقاليمها ، كما أرجو أن يكون فى ذلك استجابة لرغبات اخرى فى امارات الخليج التى تستمع الى البرنامج عبر اذاعة القاهرة الموجهة فضلا عن رغبات غيرها فى بلاد مختلفة من أولئك الـذين تشرف البرنامج بسماعهم عنه دون اســـــتماعهم اليه أو مشاهدتهم له ٠

***

واذ تصدر هذه المجموعة مع احتفال المسلمين فى مشارق الارض ومغاربها بمناسبة شهر رمضان المعظم لعام ١٣٩١ من الهجرة ، فاننى ادعو الله أن تـــكون بداية موفقة ، وأن يرعى الامة الاسلامية فى ظلال قيم الاسلام ومبادئه ، وأن يسدد خطـــاها على طـــريق الحق والخير والنصر والازدهار ٠

احمد فراج

الدكتور أحمد الشرباصى

الآيات السبع في سورة الفاتحة

كنت اقرأ فى تفسير المنار للعلامة الراحل الامام محمد رشيد رضا تلميذ الامام محمد عبده، وطالعت تفسير « الفاتحة » . وما أن انتهيت منه حتى أدركت أننى أنفقت ما انفقت من عمرى فى ترديدها وانا لا أعدو أن أكون كالببغاء . فكانت هذه الحلقة من برنامج « نور على نور » التى دعوت اليها فضيلة الدكتور احمد الشرباصى فى محاولة لاخراج من كان مثلى من « الببغاوية » .

احمد فراج

بسم الله الرحمن الرحيم

● « الفاتحة » هي الحزب القرآني الذي يكرره المسلم يوميا في كل ركعة من ركعات الفروض الخمسة وغيرها من الصلوات والمناسبات . وهي سورة قصيرة، كبيرة ، موجزة معجزة ، كلماتها خفيفة على اللسان ، ولكنها راجحة في الميزان ثوابا وفضلا عند الله ، وهي سبع آيات ومن اوائل السور التي نزلت في وقت مبكر من نزول القرآن حتي روى انها أول سورة نزلت كاملة . ومن شأن هذه السورة ومكانتها اننا تجد لها اسماء كثيرة وردت في كتب التفاسير وفي السنة الشريفة ، فهي أولا تسمى سورة «الفاتحة» ، جاءت شاملة وجامعة لمقاصد القرآن الكريم فهي كالبداية لما سيفسره الله من مقاصد كتابه واغراض تنزيله ، وتسمى سورة « الصلاة» لان الصلاة لاتصح في الاسلام الا اذا قرئت فيها ، وتسمى سورة «الحمد »لانها بدأت بعد البسملة بقول الله : الحمد لله رب العالمين ، وكذلك تسمى سورة «الاساس»لانها كالاساس الذي يجمع مقاصد القرآن . وتسمى أيضا الوافية والكافية والسبع المثاني . وتسميتها بهذه الاسماء وغيرها تدل على مكانة السورة الخفيفة الثقيلة في وزنها وفي مكانتها عند الله . لعل أهم سبب في أنها تقرأ في الصلاة دون غيرها ما ذكرناه من آنها تجمع في تركيز وايجاز المقاصد

التى فصلها القرآن بعد ذلك فى سوره المختلفة .

● ويقول الدكتور احمد الشرباصى اننا اذا جلسنا الى مائده القرآن سنجد انه يدور فى سوره وآياته على وجه التقريب حول مقاصد يمكن ان نتعرف عليها . المقصد الاول هو التوحيد ، جاء القرآن ليثبت كلمة التوحيد فى قلوب الناس ويجمعهم على هذه الكلمة فتتحقق لهم الوحدة . وفى مضمون التوحيد محاربة الوثنية والاشراك وكل ما خالف عقيدة التوحيد من مذاهب واتجاهات . المقصد الثانى هو ذلك المزج الكريم العجيب بين الوعد والوعيد ، والوعد هو التبشير بالشىء السار من ثواب ونصر . والوعيد هو التحذير والانذار بالعذاب والعقاب سواء كان ذلك فى الدنيا او عند الله فى الاخرة . المقصد الثالث هو العبادة فهو يعلمنا كيف نعبده ونصلى له ونزكى ونحج وغير ذلك من شعائر الاسلام . المقصد الرابع هو بيان الطريق الموصل الى الهداية فى الدنيا والتمتع بنعيم الله فى الاخرة . المقصد الخامس والاخير هو انه يقص علينا قصص السابقين على اختلاف الوانهم وانواعهم ما بين مؤمنين اهتدوا بهدى الله ففازوا بنعيم الدنيا والاخرة وما بين متمردين على كلمة الله فذاقوا الشقاء فى الدنيا والاخرة ومن ضالين تائهين لم يعرفوا الطريق الى الله.

***

كيف تضم سورة الفاتحة هذه المقاصد كلها فى هذه الآيات السبع ؟

● ان التوحيد ومقصده قد اشير اليه فى قول القرآن « الحمد لله رب العالمين » وما دام الله هو المعبود بحق دون سواه ومادام هو الرب المنشىء والموجد والمهيمن على جميع الخلق ومادامت نفس السورة تقول « اياك

نعبد » فتخص الله بالعبادة ، تفهم أنها اشــارت الى مقصد التوحيد إشارة موجزة ينبغى أن يلحظها الانسان • ثم يفسر القرآن هدا فيما بعد خلال سوره •

والمقصد الثاني وهو الوعد والوعيد اشـــير اليه في قوله الرحمن الرحيم فهاتان الصفتان تدلان على الرحمه وهى مخموله الاسباب بالوعد المبشر ،والوعيدجاء كاشارة فى قوله مالك يوم الــدين ، فمن ملك يوم الدين وهــو يوم الحساب والجزاء يكون عادلا فيهما فيقضى لكــل بما يستحقه ، فمن يعمل مثقال ذره خيرا يره ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره • واما العباده فقد اشير اليها فى قوله اياك نعبد• واما بيان طريق الهدايه الكامله ففي قوله أهدنا الصراط المستقيم ، واما قصص الماضين ما بــين مهتدين ومتمردين وضـــالين ففى قوله : صراط الدين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين •

***

وننتقل الى التفصيل • بسم الله الرحمــــن الرحيم •• اذا جاز لنـــا ان نعبر عن هده البدايه بانها براعــه الاستهلال — ولله المثل الاعلى — فان فى هذه البــداية اكثر من معنى واشاره • فما معنى بسم الله • يقول بعض المفسرين •• ابتدىء متبركا او مستعينا باسم الله •• وبعضهم يقول ان معناها ان الله تفضل فاقسم لعباده بأن كل ما يقص عليهم من سور القرآن حق لا مريه فيه ، كما يقول بعزة الله ••بحق الله ، وبعضهم يقــول : ان عادة الناس جرت اذا ارادت أن تعطى قرارا أو اتجاها او امرا ، قــوة ومكانة ، نســبته الى قــوة لها مكانتها كما يقولون •• باسم الشعب ، باسم الامة ، باســم هذا الجمع الكبير ، باسم الحاكم ، باسم السلطان ، فكان الله تبارك وتعالى بدأ الســورة بسم الله ليشــعر

من سيستمع الى آيات القرآن فى هذه السـورة وغيرها ان القرآن لم ينزل معنونا باسـم نبى أو رسـول أو حاكم أو ذى جاه ، انما نزل معنونا ومتوجا باسـم الله تعالى ، فهو متجرد لوجه الله وهو هاد الى صراط الله ولذلك توج فى بدايته باسم الله عز وجل و كلمة « الله » تشعرنا بتجرد الانسان للايمان بهذا الاله المعبود بحق الذى ليس له اول وليس له آخر ، الظاهر والباطن ، ثم تاتى بعد هذا .. الرحمن الرحيم ، لتذكر جميع ابناء الاسلام بأن دينهم دين تذكر للرحمة وتعبد لله بذكرها ، يردد المؤمن هاتين الصفتين فى كل ركعة ليذكر انه دين رحمة وأمن وهدوء واطمئنان . و كلمة الرحمن من كلمة الرحيم ذهب فيهما المفسرون مذاهب فى فهم معناها فهنـاك من يقول ان كلمة الرحيم تأكيد لكلمة الرحمن وهـذا ما تنزه عنه بلاغة القرآن ودقته واعجازه . هنـاك مـن يقول ان الرحمن هو المنعم بجلائل النعم اى عظيمهـا وكبيرها . والرحيم هو المنعم بدقائق النعم اى بما كانت صغيرة فى الظاهر ولكن لها قيمة فى الباطن والحقيقة . لكن هناك من يفهم هاتين الصفتين على فهم يمكن أن تتقبله نفس الانسان ، فالرحمن معناها الذى يوصل آثار نعمته ورحمته وفضله بالفعل الى عباده ، أما الرحيم فهى كلمة تدل على أن ايصـال هـذه الالـوان من الرحمـة والنعم ليس شيئا عارضا يصدق فى زمان دون زمان .. لانه ناشىء عن صفة دائمة مستمرة لله فالرحمن تدل عـلى انه يفعل الرحمة والرحيم تدل على انه يتصف بهـذه الصـفة !

***

● الحمد لله رب العالمين .. جاءت كلمة « الحمد » معرفة لان الحمد بجميع أنواعه وألوانه لله هو فى الحقيقة

والواقع لا يستحقه سواه حتى لو وصل للانسان فضل او نعمة اوجميل حسن على أيدى انسان فالواقع والحقيقة أن المستحق للحمد انما هو الله لان هذا الانسان الذى صنع الجميل فى الظاهر ، او وصل النعمة للانسان انماهو سبب يسره الله وسخره ليوصل هذه النعمة . والمؤمن يحمد الله بلسانه واعماله ، وغير الشاكر حاله ودلالته تدل أيضا - وان كره ولم يقر - ان الحمد لله ، لانه سبب ظاهرى ، فموجد الاسباب ومهيىء الامور كلها هو الله سبحانه . لماذا وجب الحمد لله . . لان الله رب العالمين اى انما استحقت ذات الله القدسية هذا الحمد كله دون ان يشاركه فى الحقيقة سواه لانه رب العالمين والرب

صفة تدل على معنى الايجاد والانشاء والتربية ، ولاشك ان المربى يحرص على خير من يربيه ويوصل اليه كل ما يستطيع من خير لينعم به، والله تعالى على كل شيء قدير فالله رب العالمين . . أى هو المتفضل عليهم بالايجاد والتربية والتنمية والتقوية والتوجيه لكن الآية قالت : « العالمين » فما معناها . . العالمين جمع عالم ، وقال البعض انه يراد بها عالم الانسان وعالم الحيوان وعالم النبات والله هو المسيطر على كل العوالم يسخرها ويوجدها وينميها ويجعلها صالحة لاداء كل ما يطلب منها . وبعضهم يقول : ان العالمين معناها عالم الملائكة

وعالم الانس وعالم الجن ، ولا يبعد هذا عن المعنى الاول فى بعض اجزائه . وهناك من يرى ان العالمين هم الموجودات كلها أى كل الخلائق التى أوجدها الله سواء فى عالم الانسان أو الحيوان او النبات او الجماد ، ولان البحث العلمي يثبت ان هناك تناسقا عجيبا بين ذرات الجمادات ولا يمكن لانسان ان يفعل هذا . وانما هو صنع الله الذى اتقن كل شيء . فالله تعالى مستحق الحمد لانه

الرب .. ورب من ؟ .. انه ليس رب جنس معـــين من الناس وانما رب الخلائق والموجودات ما علمنا وما لانعلم

***

والآية التالية هي : الرحمن الرحيم .. ونلحظ هنا ان هاتين الصفتين تتكرران بعد مجيئهما في قوله بسم الله الرحمن الرحيم .

ويعلق الدكتور احمـد الشرباصي على هـذا الملحظ فيقول : اننا اذا نظرنا نظرة سـطحية لقال بعضنا ان

هذا نوع من التكرار . وليس هذا تكرارا أو تأكيدا كما عبر بعضهم ، وانما ذكر الرحمن الرحيم مرة ثانية لاكثر من حكمة فربما يفهم بعض من لم يتدبر ان الله قداوجد الخلائق كلها ورباها ونماها لمصلحته هو ــ تعالى عن ذلك علوا كبيرا ــ أو لحاجة يحتاج اليها من هذه الخلائق، فأراد الله أن يلفت ابصارنا وبصائرنا الى انه لم يخلق الخلق لذلك وانما لهاتين الصفتين لـكى يكون لهم .. رحمن .. ويكون لهم رحيما على الدوام ، فالله قد ذكر الرحمن الرحيم مرة ثانية لينفي عن ذهن من يتوهم ان كلمة رب العالمين تفيد معنى الاحتياج كما يربى الانسان شيئا فيظهر انه محتاج اليه ولذلك عني بتربيته . والله غنى عن العالمين وهو القائل : « وما خلقت الجن والانس الا ليعبدون ، ما اريد منهم من رزق ، وما أريد أن يطعمون ، ان الله هو الرزاق ذو القوة المتين » .

حكمة ثانية وهي ان كلمة رب العالمين قد يفهم منها كثير من النـــاس انه ما دام هو الرب الموجـد المنشيء والمسيطر اذن له صفات تتصل بمعنى القهر والجبروت، فلا يتأكد في ذهن السامع أو القارىء معنى هذه الرحمة الشاملة بكونها صفة لله وبكونها تظهر في صفات عمـل الرحمن الذى يوصل آثار رحمته الى النـــاس فأرادت

السورة ـ والله أعلم بمراده ـ أن تنفى عن بعض الناس أو كثير منهم أن صفة رب العالمين تفيد شيئا من معنى القهر أو الجبروت أو التسلط الذى تبدو فيه القوة ، ولا تظهر بعده الرحمة المتجلية فى كلمتى : الرحمن الرحيم

ولعل مما يمكن أن يفهم أيضا ، والله تعالى أعلم بمقاصد كتابه ، انه يكرر الرحمن والرحيم مع ذكر الرب الذى يفيد معنى المربى ، لكى يتذكر القادرون من الناس ، والذين نالوا حظهم من التربية ، والعلم والثقافة فأصبحوا صالحين لكى يكونوا مربين انهم حينما يقومون بوظيفة التربية ينبغى لهم ـ ان لم يلزمهم ـ ان يتذكروا أن الله وهو الموجد المنشىء المربى لم يستعمل هذه الصفات فى قهر وجبروت بهؤلاء الذين يربيهم وانما اخذهم باسلوب الرحمة التى تكررت فى السورة فأفادت ان الرحمة تنساب من حمى الله عز وجل لكل مستحق لهذه الرحمة

لماذا استحق الله الحمد ؟

لانه رب العالمين .. وهل يتعارض كونه رب العالمين مع انه الرحمن الرحيم .. هل هذه صفة قهر أو جبروت لا .. الرحمن الرحيم ، واذا كان الله تعالى له الحمد ، وهو رب العالمين وهو الرحمن الرحيم فرحم عباده وهو غنى عنهم وتلطف بهم وهو غير محتاج اليهم ، فاذا جاء بعد هذا قوله : مالك يوم الدين ، كان هذا تذكيرا بأن من جحد رحمة الله ، وتنكر لنعمة الله وانكر وحدانية الله وتمرد على ربوبيته ، ينبغى له أن يتذكر ان الله تعالى مالك من ناحية الظاهر والباطن ومن ناحية الحقيقة والشكل .. يوما لابد من لقائه ، لابد أن يقف الناس جميعا فيه أمام يديه ، فقال الله مالك يوم الدين . والمالك للشىء هو المسيطر عليه المتمكن منه المتصرف فيه المدبر لشئونه ، ويوم الدين هو يوم القيامة وانما سمى

يوم القيامة يوم الدين لان كلمة الجزاء تفيد معنى الحساب والجزاء ، ولا بد من يوم كما اخبر الحق جل جلاله تعتدل فيه موازين الحق والعدل ،فاذا كانت الدنيا لا تستطيع فى بعض نواحيها ان تضبط طاقة البشر فيها كل جريمه أو أن تثيب كل محسن فان هناك يوما افرده الله بالذكر وأشار اليه اكثر من مرة وهو يوم الحساب الالهى الشامل الذى لايظلم أحد فيه مثقال ذرة ويحاسب كل بما عمل كما قال القرآن : « ووضع الكتاب فترى المجرمين مشفقين مما فيه ويقولون يا ويلتنا ما لهذا الكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة الا احصاها ووجدوا ما عملوا حاضرا ولا يظلم ربك احدا » وقد يقال ان آية « مالك يوم الدين » قد توجد شيئا من الخوف عند العاصى أو المذنب ، فما شان المؤمن حتى يسمع هذه الآية.. فنذكر بما سبق من تأكيد لمعنى الرحمن الرحيم ، فالمؤمن المطيع لله الحق ، العابد له يطمئن الى أن الله اعدل العادلين ، واما غيره فسيلقى جزاءه على ما قدمت يداه من ذنوب أو آثام .

***

انتقلت السورة بعد هذا انتقالا قد يبدو لنا فى الظاهر مفاجئا ، انتقلت من صيغة الاخبار الى صيغة التوجه بالخطاب الى الله ، نناجيه وندعوه .. اياك نعبد واياك نستعين .. اياك اى أنت وحدك والعبادة معناها الخضوع الكامل الذى بلغ النهاية والناشىء عن شعور القلب بأن المعبود أهل للعبادة دون سواه .. اى اياك نخصك بالعبادة دون سواك واياك نستعين نطلب منك الاعانة ، والاستعانة هى التوجه والرجاء فى طلب المساعدة والمعونة من الله .

لقد بدات الآية اولا فقالت : اياك نعبد والعبادة وان

تمثلت أولا فى فرائض كالصلاة والصوم بصفة خاصة فانها تتمثل بالمعنى العام فى كل عمل نافع يقدمه الانسان بنية طيبة ، فلا بد أن يقدم الانسان العبادة أولا بمعناها الخاص والعام ثم يجد له وجها لكى يطلب من الله أن يعينه فهو يبذل جهده وطاقته ويعمل كل ما فى وسعه وفى أثناء ذلك وفى أعقابه يقول : اللهم أعنى واجعل لى عونا على ما لم أستطع وأنت تستطيع لانك على كل شيء قدير ..

يقول علماء البيان العربى أن تقديم كلمة : اياك ، على .. نعبد تفيد معنى التخصيص لله فى العبادة ، كان يمكن فى أفهامنا أن تكون الآية نعبدك ونستعينك ، لكن الله أراد أن يعلمنا انه لاينبغى أن نعبد سواه ولا ينبغى أن نستعين فى الحقيقة والواقع الا به .. فقد قدم كلمة اياك ليفيد ان العبادة والاستعانة مقصورتان على الله .. ولا يفهم أحد ان الاستعانة بالله فى كل حال تتعارض مع ما دعى اليه القرآن من التعاون بين الناس لانه قال لنا : « وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الاثم والعدوان » لان الاخذ بطريق التعاون انما هو جزء من مفهوم الاستعانة بالله .. فأنا عندما أتعاون مخلصا صادقا مع أبناء وطنى فيما هو خير لنفسى ولأمتى أكون قد نفذت مبدأ من مبادىء الحق أرشدنى اليه الله سبحانه .. هذا الارشاد جزء من الاعانة التى وجهنى الله اليها فيجب أن أستعين بمن أقدر وفى الوقت نفسه أستشعر معنى طلب ورجاء الاستعانة من الله فى كل حال وليس هناك تعارض بين هذا وذاك .

هذا على أساس ان الانسان وهو يذكر بين يدى الله انه يعبده ولا يعبد أحدا سواه ، فهو يطلب منه العون حتى فى أداء هذه العبادة لانه اذا كان قد أتيح له قدر

من الاسباب التى أعطاها الله له ، فلا شك انه يظل ـ حتى مع أداء العبادة ـ فى حاجة الى تأييد وعون من الله • ولعل هذا يفسر معنى الحديث أو الدعاء الذى كان الرسول عليه الصلاة والسلام يتوجه به فى أعقاب الصلاة : اللهم اعنى على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك .

ويقول الدكتور الشرباصى : الواقع أنه من أهم الوجوه التى نحتاج فيها دائما وأبدا الى الاستعانة بالله هو أن تكون عبادتنا خالصة له كما أراد الله ، وهذا الاخلاص فى العبادة لله يتضمن الاخلاص والصدق والامانة والاستقامة والمداومة والاحسان والاتقان ، فأنا فى عبادتى سواء كانت عبادة بالمعنى الخاص او العام ينبغى دائما مع بذل كل ما أستطيع من جهد ومع التعاون مع اخوتى فى الله والوطن أن أتذكر رجاء المعونة من الله عز وجل حتى تكون عبادتى خالصة لوجه الله سبحانه وتعالى .

***

اهدنا الصراط المستقيم .. كأن الانسان هنا يشعر انه اذا كان محتاجا الى الاستعانة فهو يحتاج كذلك الى ارشاده الى الطرق التى تكون أهلا لكى يطلب من الله الاستعانة بها وهو الاهتداء الى الصراط المستقيم لانى لا استطيع أن أعبد الله الا اذا أرشدنى الى الطريق الذى اعبده به .

والهداية هى الدلالة بلطف على ما يوصل الى المطلوب والمرتجى للانسان ، وكأن هذا اشارة الى أن الله حين يهدينا الى الصراط المستقيم فانه يهدينا بأسلوب الرب الحكيم الرحمن الرحيم • والهداية هنا أنواع : هناك هداية فطرية طبيعية كهداية الطفل الى الصراخ عندما يجوع وكاهتداء الرضيع الى ثدى امه ، وهذه هداية يشترك فيها اغلب الاحياء ، وهناك هداية حسية ،

يستخدم فيها الانسان حواسه كالسمع والبصر واللمس وهذه الهداية تجعله متمكنا من ادراك طائفة من الاشياء وخصوصا الحسية .. ثم هنالك هداية العقل، فالعقل الذى وهبه الله للانسان يجعله يدرك كثيراً من الاشياء المعنوية ويستطيع ان يميز بين الخير والشر وبين الحق والباطل، ولكن هداية العقل لا تمنع الانسان من الزيغ والانحراف رغم تمييزه بين الصواب والخطأ والخير والشر . وتلك الانواع الثلاثة من الهداية لا تكفى للانسان فى هذه الحياة فقد يكون ادراك الفطرة ساذجا وبسيطا وقد تخدع الحواس ، والعقل مهما كان قويا لا يستطيع أن ينفرد بالتخطيط الكامل الشامل للانسان فى دنياه واخراه ..

اذن نحن محتاجون بعد هذه الهدايات الثلاث الى هداية أعم واشمل واكمل ، وهى هداية الله . ولذلك قال القرآن اهدنا الصراط المستقيم ، الطريق المعتدل الذى لا عوج فيه ولا انحراف ولا يستطيع أحد أن يرشدنا الى هذا الصراط الموصل الى أقرب طريق وأقصرها واضمنها الا من كانت منه الهداية كلها وهو الله سبحانه وتعالى .

***

بقيت آية صراط الذين انعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين .. قد يسبق الى الذهن ان اى صراط يستطيع أن يهتدى اليه الانسان ويعقل ويفهم انه مستقيم ، يصبح عنده مستقيما ، فاراد القرآن أن يوضح لنا المراد بقوله صراط الذين أنعمت عليهم .. فالصراط اذن صراط الله الذى اتبعه من انعم الله عليهم فى الماضى ، ولعل هذا تذكير بأن اتباع هذا الصراط الذى يهدى اليه الله ليس شيئا مستحيلا او معجزا او متعبا فقديما سبق المسلمين اناس اهتدوا بهدى الله فأنعم عليهم ، صراط الذين انعمت عليهم ، ولذلك أعاد الله

كلمة صراط ليفهمنا أن الصراط المقصود هو الذى اتبعه من أنعم عليهم فى الماضى ، ثم هذا تذكرة أيضا بأن رسالة القرآن وان كانت الرسالة الخاتمة الجامعة الصالحة لكل زمان ومكان لا تتعارض مع ما أوصى الله الى أنبيائه ورسله من قبل من مبادىء الحق والخير والعدل بل هى تتمة لها ، فالدين الالهى واحد قائم على اسلام الانسان نفسه وحسه لربه ، ولذلك لا يجوز لنا أن نقول : لماذا أرشدنا الله وبصرنا بالذين أنعم الله عليهم من قبل مع أن القرآن فيه الكفاية ، انما هذا تذكير بوحدة الدين الالهى الذى يجمع كل المؤمنين منذ آدم الى أن يرث الله الارض ومن عليها تحت ظل الله ولواء دعوة الله والقرآن .

***

يقول الدكتور الشرباصى من هم أولئك الذين أنعم الله عليهم ، انما هم الذين استجابوا لله وعرفوا هدايته واتبعوا صراطه فكانوا مسلمين له مؤمنين به خاضعين خضوع العبادة له وحده .

و « غير المغضوب عليهم » تشير الى الذين فعلوا ما استوجب غضب الله وعذابه ونقمته ، الذين عرفوا الحق الالهى ثم تنكروا له وخرجوا عليه وتمردوا فى وجهه ، يعرف الحقيقة الالهية ولكنه يعاند ويكابر كما كان يفعل كثير من المشركين فى عهد الرسول وكما فعل قبل ذلك اناس تمردوا على دعوة الله وحرفوا كتب الله وتنكروا للمبادىء التى جاء بها الانبياء والرسل . اما كلمة الضالين فالضلال يفيد معنى الحيرة وعدم الاهتداء الى الطريق المستقيم وهذا الضلال اما ان يكون لان الانسان لم تبلغه الدعوة ــ وهذا نوع من الضالين ــ واما أن تكون الدعوة قد وصلت اليه ولكنه لم يكلف خاطره أن يبحث فيها ويتبين صوابها وصدقها ، هذا أيضا صنف من

الضالين ، واما أن يكون قد آمن بالدعوة دون أن يقتنع بها متابعة وتقليدا ·· وهذا ايضا نوع من الضلال وان كان ضرره أخف من سابقيه ، وهناك أيضا من يضلون اى انهم لا يكلفون انفسهم استمرار البحث فيصلوا الى الحقيقة .

***

والمؤمنون الذين يرددون الحزب الالهى وهى فاتحة الكتاب وأم الكتاب ، يسألون الله تعالى أن يهديهم الصراط المستقيم .. صراط الذين أنعم عليهم باهتدائهم وايمانهم وأن يجنبهم طريق المغضوب عليهم المتمردين ، وحتى أيضا طريق التائهين الحائرين ، لان الانسان لو احتار فى هذه الحياة ، لما استطاع أن ينعم بهداية الله ولعل هذا يذكرنا بقول الله لرسوله : « ووجدك ضالا فهدى » اى وجدك باحثا عن الحق فهداك اليه واصبح قلبك ثابتا ومؤمنا به » .

د • عبد العـــزيز كامل

الاســـتاذ البهى الخـولى

أنوار الرسالة الاسلامية

جولة سريعة فى حياة النبى عليه الصلاة والسلام تمثلت فيها حياة الانبياء وتمثـل فيها الخير كله • فكيف يصف هـــذا النبى الكريم نفســـه ، انه يقول : « مثلى ومثل الانبياء من قبلى ، كرجـل بنى بيتا فجمله وحسنه ، الا موضع لبنة (حجر فى زاوية من زواياه)• فكان الناس يطوفون حول البيت ، ويعجبون ويقولون : ما اجمله ، ما احسنه ، هلا وضعت هذه اللبنة • فأنا اللبنة وأنا خاتم المرسلين »

فى حلقة من برنامج « نور على نور » كان الحديث عن حجرة الرسول التى عاش فيها ودفن بها جسده الشريف طولها كعرضها لا يزيد عن ستة أمتار ولـكنها تمثل طابع البساطة التي كان يحيا فيها عليه الصلاة والسلام وعنها يقول الاستاذ البهى الخولي : انها حجرة السيدة عائشة رضي الله عنها ، وهى فى الوقت نفسه مسكنه ..وهى فى بساطتها تمثل حالة الزهادة والتسامي التى كان يحياها رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقد كانت مبنية من الجريد والطين ، واكسية من الشعر تشد هذا الجريد بعضه الى بعض ليؤدى وظيفة الحجرة ، أما الارتفاع فيمثله قول الحسن البصرى : لقد رأيت حجرات الرسول صلى الله عليه وسلم وأنا غلام مراهق كنت أمد يدى فألمس بها السقف .

هذه الحجرة المتواضعة كان لها من المجد والشرف ما يزرى بأفخم القصور ، فقد كان رسول الوحى الالهى جبريل يهبط عليها بأقدس رسالة وبتحيات ربنا سبحانه بكرة وعشيا لرسوله ، لم تكن قيمة الحجرة فى انها مبنية من الجريد والطين ، وانما فى انها بنيت كذلك ورسول الله صلى الله عليه وسلم يستطيع

أن يتخذ لنفسه أفخم القصور ، ولكنه صلى الله عليه وسلم كانت همته مشغولة ببناء أعلى ، وفى هذا يقول ابو امامة بعد أن هدمت تلك الحجرات : ليتهم تركوهاحتى يرى الناس ما رضيه الله لرسوله ، وهو الذى كانت بيده اموال الجزيرة العربية كلها . وكان فراشه فيها يجاريها فى البساطة ، كان تارة حصيرا يؤثر فى جلده ، وتارة يكون كساء من الشعر ، ويروى أنهم طووا له الكساء طيتين لينام عليه ، فاذا به لا يقوم ليلته تلك للتهجد ، فلما اكتشف انهم طووه له قال : ان لين الكساء منعنى التهجد والقيام ، وحذرهم أن يعودوا لمثل ذلك .

وكان هذا الفراش أيضا أحيانا يكون جلد حيوان محشو بالليف ، وتروى السيدة عائشة رضى الله عنها ان سيدة من الانصار رأت هذا الفراش يوما فلم ترضه للرسول ، فخرجت ثم عادت بفراش محشو بالصوف ، فلما رآه الرسول قال : ما هذا يا عائشة ؟ رديه ، فوالله لو أردت لأجرى الله لى جبال الذهب والفضة .

فى طعامه ، كان طعام من عافت نفسه لذة الحياة الدنيا،لان قرة عينه كانت فى الصلاة ومعرفة الله .. كانت هى جنته وهى زاد روحه ، فلا جرم اذا استوت فى نظره مطاعم الدنيا حتى ليقول فى اللحم : سيد الطعام اللحم . ويقول فى الخل : نعم الادام الخل انه كان ادام النبيين من قبلى .

وهو هنا يزهد زهد الواجد لا زهد الفاقد ،ولقد كان له منهج كبير فى التسامى تدلنا عليه السيدة عائشة .. قلت له يا رسول الله بابى أنت وأمى ، هلا ترفهت بشىء مما معك ؟ فقال : يا عائشة اخوانى من النبيين صبروا على ما هو اشد وأشق مما انا فيه فصبروا وظفروا من الله باعلى الدرجات وأخشى ان ترفهت أن يقصر بى الترف

من منازلهم « درجاتهم » .

هذه المعانى لا نظن معها ان صاحب الحجرة عليه الصلاة والسلام كان فى معزل من المجتمع أو فى جانب التراخى ، بل ان التواضع فى حجرته هذه كان يأخذ مظاهر ايجابية قوية فى الحياة ، فلا ننسى صورته صلى الله عليه وسلم ، صورته المهيبة وقد استعد لغزوة احد .. دخـــل حجرته ولبس لامة الحرب « لباس الحرب » ، درعين وخـوذة على رأسه ، لبس المغفر وهو نسيج من الزرد يلقى على الوجه، واتخذ درقته وسيفه ثم شد وسطه بمنطقة من الجلد ،خرج من حجرته غارقا فى الحديد لا يظهر منـــه الا عينـــاه الشريفتان فلما رأوه اقبلوا عليه يقولون : يا رسول الله قد استكرهناك على الخروج فاصنع ما بدا لك ، فقال كلمته الرائعة : « لا ينبغى لنبى اذا لبس لامته أن يضعها حتى يحكم الله بينه وبين عدوه » .

انـــا اذ نعيش معركة ضارية بيننا وبين عدونا فان واجب نسبتنا الى رسول الله صـــلى الله عليه وسلم ، وواجب المعركة وحقها علينا يدعونا الى أن نستعد بما استعد به رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأن نلقى عدونا بمثل الزهادة والقوة الروحيـــة التى لقيـــه بها رسول الله ونحن نذكر قول الله تبـــارك وتعالى : « ان تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم » .

● وننتقل من الحجرة الشريفة الى رحبات مسجد النبوة لنتعرف على المجموعة المؤمنة من صحابة الرسول التى كانت تتلقى منه وتعيش فى نور دعوته وتقبس من هديه وتتربى على تعاليم رسالته ، وينتقل الحديث الى الدكتور عبد العزيز كامل وزير الاوقاف وشئون الازهر ، فيقول :

لو تصورنا أنفسنا نعيش على عهد النبى صلى الله عليه وسلم ودخلنا مسجده ورأينـــا الصـــحابة الذين كانوا

يعيشون معه يصلون ويصومون ويتعبدون ويجاهدون ، وحاولنا أن نوزعهم بحسب البلاد التي أتوا منها. وهذا أول توزيع سنقوم به ـ لأنه من أهم النواحي التي يتميز بها الرعيل الاول الذي عاش مع النبي علية الصلاة والسلام عن اي مجموعة عاشت مع أي نبي سبقه ، فالانبياء السابقون كانوا يرسلون الى قومهم ، وأتباعهم كانوا من اهل البلاد التي يعيشون فيها ، أما هذه المجموعة التي اختارها الله تبارك وتعالى لصحبة نبيه فكانت بطبيعتها تمثل الانسانية كلها .

نأتي أولا الى قريش البطاح وهم ذروة قريش فنجد « أبا بكر وعمر وعثمان وعلى وطلحة والزبير » رضى الله عنهم جميعا ، وهذه مجموعة .

هل كان هناك اناس من قبائل الساحل على البحر الاحمر يعيشون معه أيضا فى المدينة ؟

نجد على سبيل المثال لا الحصر ، أبا ذر الغفارى ، ونحن نعلم أن قبيلة غفار كانت تعيش فى تهامة على ساحل البحر الاحمر . وكانت اليمن ايضا ممثلة ، فأبو هريرة من « دوس » أى من اليمن ، وأبو موسى الاشعرى ومعاذ بن جبل أيضا جاءوا من منطقة اليمن .

بعد ذلك ننظر الى منطقة الخليج العربى والبحرين وعمان ، فسنجد منذر بن عائذ ، ومنقذ بن حيان من أصحاب النبى عليه الصلاة والسلام وهم من قبيلة عبد القيس من البحرين .

هل هناك من جاء من أطراف بلاد الشام ؟ نجد أيضا الصحابى فروة رضى الله عنه جاء من عمان من بلاد الشام فكان الاجزاء : الشمالى والجنوبى والشرقى والغربى والاوسط ، كل هذه الاجزاء كانت ممثلة فى مجتمع النبى عليه الصلاة والسلام ، هذا على المستوى العربى .

ثم نحاول أن نخرج من هـذا المستوى العربى الى المستوى العالمي لنرى الانسانية كلها ممثلة كما مثلت معه القبائل العربية ، فنجد من الحبشة بلالَ بن رباح فكأن قارة افريقيا كانت ممثلة ، ونأتى لصهيب فنجد انه اما كان روميا أو عاش فى بلاد الروم فمعنى ذلك ان الجزء الشمالى ايضا كان ممثلا .

فكأن الاجزاء الافريقية والاوربيـة والاسـيوية ، كل هذا العالم الكبير كان ممثلا فى المجتمع النبوى الكريم ونحن لا نستطيع ان نسمى هذه مدرسة نبوية ، فانها كانت جامعة نبوية شريفة تتمثل فيها كل الاقطار والاجزاء

ولكن هل توقف النبى صلى الله عليه وسلم عند حد التلاميذ الذين يقبلون على هذه الجامعة ، أم أنه أرسل رسله ووفوده لينشروا هذا الدين وليدعوا الناس الى الاسلام ؟ نجد بعد صلح الحديبية انه قد أرسل رسله ومندوبيه يحملون رسائل الى كبار المسئولين فى العالم فى ذلك الوقت ، أرسل الى هرقل الروم دحيـة الكلبى ، وأرسل عبد الله بن حذافة السهمى الى ملك الفرس ، وحاطب بن أبى بلتعه الى مصر ، وعمـرو بن أميـة الى النجاشى فى الحبشة ، وشـجاع بن وهب الى الحارث الغسانى ، وأرسل الى اليمامة سليط بن عمرو ، فكان باب هذه الجامعة مفتوحا للاقبال عليها والناس يدخلون فى دين الله أفواجا .

هذا من ناحية عالمية هذه الجامعة المحمدية ، فهل كان يقبل التلاميذ فيها من مستوى اجتماعى معين ؟ هل كانت للأغنياء وحدهم أو للفقراء وحدهم ؟ أم كانت للانسـان من حيث هو انسان كرمه الله بانسانيته ، لقد كانت مفتوحة للانسانية كلها : اغنيائها وفقرائها ، أشرافهـا وعبيدها ، كلهم كانوا ممثلين فيها . ولنأخذ أمثلة على ذلك:

من الاشراف السادة عندنا مرة أخرى ابو بكر وعمر وعثمان من قريش ، من ولاة عمان وحكامها عبيد وجعفر، من الضعفاء بلال وياسر وصهيب وخباب ، من النساء المستضعفات سمية ولبينة وزنيرة ، ومن النساء اللاتى انحدرن من بيوت كريمة امهات المؤمنين وكثيرات ممن آمن بالنبى .

***

ثم نجد ان المواهب قد تفتحت فى هذه الجامعة ولم تكن محصورة فى نوع خاص من العمل فى المجتمع الاسلامى وانما شملت كل جوانب الحياة الاسلامية ، نجد منهم من ذهبت موهبته الى مرتبة القيادة الشاملة فى المجتمع مثل أبى بكر وعمر وعثمان وعلى ، ونجد مجموعة برزت مواهبها فى القيادة العسكرية مثل خالد بن الوليد ، وأبو عبيدة بن الجراح ، ونجد مجموعة برزت كحكام أقاليم يهتمون بالتعمير وباقامة العدل بين الناس مثل خالد بن سعيد فى صنعاء والمهاجر ابن أمية فى كنده والعلاء بن الحضرمى فى البحرين ، ونجد مجموعة من العلماء الربانيين الذين يجمعون بين العلم وبين عمق التقوى كما نجد فى عمر بن الخطاب وعلى بن أبى طالب ، ونجد المتخصصين فى العلم مثل عبد الله بن عباس وعبد الله ابن مسعود وعبد الله بن عمرو بن العاص وعبد الله بن عمر ، ونجد عبقريات النساء مثل عائشة وأم سلمة فى العلم والتعليم . ثم نجد نماذج فى الزهد والاقبال على الله والبعد عن متاع الدنيا ، كما نجد فى أبى ذر الغفارى الذى لم تظل السماء ولم تقل الارض مثله فى صدق الكلمة وقول الحق ، لا يدخر طعام يومه لغده .

فهى اذن كانت جامعة برزت فيها كل هذه المواهب وتفتحت فيها كل هذه النواحى من القيادات فى مجالات

الخلق والحكم والنواحى العسكرية وغيرها ، وبهذا أعطت الانسانية صوره من صور النبوغ الذى يصنعه العلم والايمان العميق لم تتوفر الا فى جامعة النبى عليه الصلاه والسلام وبين اصحابه .

***

● ماذا تلقى المنتمون الى هذه الجامعة النبوية من الدروس ؟ وما هى أهم الاسس التى اقام عليها الرسول صرح هذا البناء ؟ لقد كانت هناك ركائز اساسية تتمثل فى الايمان بالله الواحد ، وعقيدة البعث والجزاء ، والعمل الصالح ، وارتبطت هذه الاسس وتفاعلت فى أعماق الفرد المسلم كما رباه الرسول ، وأقام عليها صرح المجتمع والدولة فكيف كان السبيل الى تحقيق ذلك ؟

يقول الاستاذ البهى الخولى : ان الركائز التى أقام عليها الرسول عليه الصلاة والسلام مجتمعه المثالى كثيرة جدا ، ويجب ان يكون معلوما أن أهمها هو صناعة الفرد وتربيته على أساس عقيدة عبادة الله تعالى وحده وتوحيده ، والله تعالى يقول : « وما خلقت الجن والانس الا ليعبدون » فكان المسلم يعلم أول ما يعلم ان حكمة وجوده تتلخص فى ان يعبد الله تبارك وتعالى وحده ، والعبادة ليست مجرد صيام وصلاة وزكاة وحج ، وانما هى أبعد من ذلك ، انها تعنى التحرر التام من كل سلطان ظاهر وباطن الا سلطان الله تبارك وتعالى ، سلطان الحق والخير والعدل ، فكل سلطان غير هذا ، يطلب الاسلام من الفرد ان يحرر نفسه منه لتخلص عبادته لله ، واشد هذه العوامل تأثيرا على الفرد ويجب ان يتحرر منها هى الاهواء الباطنة ، فحقيقة الانسان ليست اسمه ولا هيكله الظاهر أو قالب اللحم والدم وانما هى ملكات القلب التى بها

يتصل بالله تبارك وتعالى فإذا استولت أهواء هـذه الحياة الدنيا على ملـكات القلب ابادتها وصيرته شخصا لا قيمة له ، والله تعالى يقول : « افرأيت من اتخذ الهه هواه واضله الله على علم وختم على سـمعه وقلبـه وجعل على بصره غشاوة » اى مسـخت كل ملـكات القلب التى بها يكون الانسان انسانا ٠ كان عليه الصلاة والسلام يبنى الفرد على أسـاس التحـرر الظـاهر والباطن ، وبهذا التحرر وبهذا البناء استطاع عليـه الصلاة والسلام ان يربى أمثال الفر الميامين من أمثال ابى بكر وعمر وعثمان وعلى وطلحة وأولئك الضعفاء من أمثال بلال وصهيب وغـيرهم ، وكل هؤلاء كانوا اخـوة بهذه الوحدة الايمانية ، ثم التفت الى المجتمع وكان من أهم ما فيه ، تحرير المرأة ، فانه قرر انسانيتها التى ظلت قرونا مضيعة وقرر اهميتها الاجتماعية وأهميتها الاقتصادية بما لم تبلغه الحضارة الغربية الى اليوم ٠٠

فالمرأة فى اوربا تفقد اهليتها على التصرف بالزواج فلا تكون لها ذمة مالية مستقلة عن زوجهـا ، ولابـد من موافقة الزوج على تصرفاتها المالية ، ومنذ أربعة عشر قرنا لم يكن هناك اى تعقيب على تصرف اقتصـادى للمرأة المسلمة ٠

من ذلك أيضا عناية الاسلام والرسول عليه الصـلاة والسلام فى اقامة المجتمع بتنظيم القاعدة الاقتصادية على اساس نستطيع ان نسميه بالتوازن ، فلا يكون الغنى فى جانب والفقر فى جانب آخر ٠ فالمعروف ان الصحابة المهاجرين هاجروا من مكة وتركوا فيها اموالهم وممتلكاتهم ودورهم ، وكانت الامـوال والدور فى المدينة بأيدى الانصار ٠٠ فتقدم الانصار فى سـخاء وكرم ومودة وعرضوا على المهاجرين ان يقاسموهم أموالهم ، فاعتذروا

شاكرين وكان الواحد منهم يطلب من أخيه الانصارى ان يدله على السوق ليعمل ويتكسب ، وظل الفـارق بارزا بين المستويين ، صـحيح ان الفقر لم يكن هنـا نتيجة ظلم من أهل المدينة وصحيح ان الانصار قدموا بأخوة وأريحيه كل ما لديهم ولكن الرسـول كان ينظر الى ذلك الوضع بمحض فطرته وحسـه الاجتماعى المصلح ، ان سنن المجتمعات وعمارتها لا يمكن ابدا ان تستوى او تصلح على مقتضى وجـود الغنى فى ناحية والفقر فى ناحية ، فكان عليه الصلاة والسلام قلقا لذلك اشد القلق حتى واتته الفرصة حين غنم المسلمون فيئا عظيما من يهود بنى النضير وذهب الصحابة من المهاجرين والانصار لكى يوزع عليهم الفىء كالمعتـاد ، ولـكن الرسول كان يفكر تفكيرا آخر فعقد شبـه مؤتمر بين الانصار والمهاجرين ، انهم يعرفون الموقف ويفهم الانصار بالذات موقف المهاجرين فيقول : « ان شئتم أخـذت أموالـكم وقسمتها بينكم وبينهم على السـوية ، ثم قسمت الفىء الجديد بينكم وبينهم على السوية ، وان شئتم جعلت لـكم أموالـكم فى أيديكم خاصة ، وجعلت الفىء الجديد لاخوانكم المهاجرين »

فماذا قال الانصار ؟

ولننظر الى الخلق الاسلامى الرائع الفريد .

قالوا له : لا يا رسول الله ، بل تجعل الفىء الجديد لاخواننا المهاجرين ، ثم تقسم لهم من أموالنا ما تشاء .

فما كان من الوحى الا ان سجل هذا الموقف الرائع الى يوم القيامة : « والذين تبوءوا الدار والايمان من قبلهم ، يحبون من هاجر اليهم ، ولايجدون فى صدورهم حاجة مما أوتوا ، ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة ، ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون »

تلك جوانب سريعة نحن فى حاجة الى التأسى بها في علاقتنا باخواننا المهجرين ، ولقد شهدنا بعد النكسة صورا رائعة من صور الايثار والتكريم لاخواننا من أهالى مدن القناة ·· ولكن يبقى المثل الاعلى قائما نستشرف الوصول اليه والسعى الى تحقيق المزيد نحوه .

***

● أحمد فراج: كان محمدعليه الصلاة والسلام من ناحية اخرى خاتم الانبياء والمرسلين وكانت رسالته مكملة لرسالات السماء ومهيمنة عليها ، فكيف نجد فيه خصائص النبوات وكيف تجمعت فى شخصه مزايا النبوات ؟

يستهل الدكتور عبد العزيز كامل حديثه حول هذا المعنى فيحرص أولا على نسبة الفضل فيما يقول الى عالم جليل هو السيد سليمان الندوى وكان أكبر علماء الاسلام فى شبه القارة الهندية وتتلمذ على يديه عدد كبير من علمائها فى الوقت الحاضر ، ولقد اجرى السيد سليمان الندوى نوعا من الدراسة والمقارنة بين الرسالة المحمدية وبين الرسالات السابقة ، على أصحابها جميعا وعلى نبينا افضل الصلاة والسلام ، فذكر ان الرسالة النبوية الكريمة انما تجمع هذه الرسالات جميعا ، وقد اعطى على ذلك نماذج تكاد أن توضع فى جداول ·

من ذلك مثلا قوله ، حينما ننظر الى حياة النبى صلى الله عليه وسلم وكل ما مر بها وهى حياة معروفة بكثير من الدقة والتفصيل الذى لا نجد له نظيرا ، ولم تعتمد على مجرد الاقوال فقط وانما اعتمدت اعتمادا رئيسيا على رصد أفعاله كلها صغيرها وكبيرها يقول : اذا ما نظرنا الى الهجرة على سبيل المثال نجد ان موسى خرج من مصر الى مدين والنبى عليه الصلاة والسلام قد خرج

من مكة الى المدينة ، واذا ما كانت لموسى مناجاة لربه فلقد كان النبي يعتكف فى غار حراء ، واذا ما كان ادريس قد رفعه الله مكانا عليا ، فان نبينا قد أكرمه الله بالاسراء والمعراج ، واذا ما كان عيسي عليه السلام قد اكرمه الله بأن ألقى عظته الشهيرة المعروفة المسماة بعظة الجبل على جبل الزيتون ، فان نبينا قد ألقى عظته أيضا على جبل الصفا فى أول الاسلام فقال لقريش : « أيها الناس ان الرائد لا يكذب أهله ، والله لو كذبت الناس جميعا ما كذبتكم ولو غررت الناس جميعا ما غررتكم ، والله لتموتن كما تنامون، ولتبعثن كما تستيقظون، ولتحاسبن بما كنتم تعملون ، وانها لجنة أبدا أو نار أبدا ، وانكم لاول من انذر بين يدى عذاب شديد » ويدعوهم فيقول « انى رسول الله اليكم جميعا » واذا كان الانبياء السابقون كموسى مثلا قاتل المآبيين والعموريين والاموريين فلقد قاتل النبى مشركى بلاد العرب ، واذا ما كان عيسى يدعو لقومه بالهداية ، فان محمدا كان يقول : « اللهم اهد قومى فانهم لا يعلمون » واذا ما كان داود قد عرف بمزاميره وبتلاوته فان النبى يتحدث عنه ربه فيقول : « أقم الصلاة لدلوك الشمس الى غسق الليل وقرآن الفجر ان قرآن الفجر كان مشهودا »

***

واذا ما عرف سليمان بجنده وبقوته فلقد دخل النبى مكة فى جيش كثيف قوى ، واذا ما كان يوسف قد صبر فى سجنه فان محمدا صبر فى شعب بنى هاشم على المقاطعة والبلاء والفقر والاقلال ، واذا ما كانت لموسى احكامه فالقرآن له احكامه ، واذا ما كانت لعيسى أخلاقياته فللاسلام أخلاقياته ، واذا ما كانت لداود مناجاته فلنبينا مناجاته ، ثم أخذ السيد سليمان الندوى يذكر

كل تفاصيل حياة الانبياء ويذكر ان حياة نبينا قد جمعت كل هذه الحيوات فى حياة واحدة أراد الله أن تكون البحر الذى تنصب فيه كل هذه النبوات لتكون خاتمة النبوات

ثم يبين توجيهاته الى الامة الاسلامية ، فيقول :

وانت ايها المسلم اذا كنت غنيا فاذكر نبيك حينما كان تاجرا صادقا امينا يقول الحق ويفعل الحق •

واذا ما كنت فقيرا فتذكر نبيك فى شعب بنى هاشم يصبر ثم يعمل حتى يفتح عليه •

واذا ما كنت حاكما فتذكر الرســـول فى اعماله وفى ادارته لمجتمع المسلمين فى المدينة •

واذا ما كنت رعية مغلوبا على أمرك فتذكره حين كان فى مكة يقول الحق ويفعله ويجاهد حتى نصره الله على اعدائه•

واذا ما كنت فاتحا غالبا فتذكر دخوله مكة على رأس جيشه ، ورأسه الشريف – من تواضعه – يكاد أن يمس ظهر دابته ، وفى ذلك اليوم يوم الفتح الاكبر يأكل كسرا يابسات معها خل ويقول : « نعم الادام الخل يا ام هانيء »

واذا ما أصبت بهزيمة فتذكر رسولك يوم اصيب وأصيب اصحابه فى غزوة أحد ، وهو واقف ومن حوله مصـــارع الشهداء والضحايا •

واذا ما كنت معلما فتذكر رسولك وحكمه على أصحابه وأدبه الكريم فى تعليم الناس •

واذا ما كنت تلميذا فتذكر موقف الخشوع لرسول الله وهو يتلقى القرآن الكريم الذى يتنزل عليه من عند الله تبارك وتعالى •

واذا كنت واعظا فتذكر رسولك على أعواد المنابر وهو يدعو الناس الى الخير والهدى والنور •

واذا ما نصرك الله بعد هزيمة فتذكر نصر الرسول بعد الهزيمة وكيف فتح اللهعليه بعد هذا فدك خيبروتيماء

ووادى القرى ومكة وحنين والطائف ·

واذا ما كنت تنظم أمر مال مجتمعك فتذكر كيف تصرف فى اموال بنى قينقاع وبنى النضير وبنى قريظة وخيبر·

واذا ما كنت يتيما فتذكر ان رسولك قد عاش يتيما وقد رباه الله تبارك وتعالى بالحرمان فاصبح بعد هـذا أبا لكل يتيم وأبا لكل فقير فى المجتمع ·

واذا كنت شابا فتذكر شباب رسولك وطهره ونقاءه ·

واذا كنت زوجا فتذكر حسن معاملته لاهله ولازواجه ·

وأذا كنت أبا فاذكر كيف ربى فاطمة الزهراء على الخلق الكريم فربت بعد هذا الحسن والحسين سيدى شباب أهل الجنة ، وكيف استطاع المسلمون ان يستفيدوا من هذه المعالم الكريمة فى السيرة العطرة ·

الدكتور احمد كمال ابو المجد

الإسلام : دستوراً

كان حديث الرأى العـام حول الدستور الجديد وحول عدد من الموضوعات والقضايا التى تتصل به اتصالا وثيقـا وفى مقدمتها قضايا الحرية ، والمساواة ، وسيادةالقانون ٠ وأراد برنامج نور على نور أن يعرض رأى الاسلام وتصوره لهذه الاصول ، فكثير مـن الناس يبحثون ويدرسون وينقبون ويجـرون وراء النظريات فى الشرق والغرب فى محاولة للتعرف على أرقى ما وصل اليه هؤلاء وهؤلاء فى النظر الى هـذه القضايا ، ولكنهم مع الاسف ــ والمثقفون منهم على وجه الخصوص ــ لا يحاولون النظر الى ما بين أيديهم مـن هدى الاسلام ، عقيدة وشريعة ، ومعطياته للحياة ٠

وكانت هذه الحلقات الثلاث من البرنامج حول الحرية والمساواة والديمقراطية وسيادة القانون ونظرة الاسلام لها تشريعا وتطبيقا كما عرضها الدكتور أحمد كمال أبو المجد ٠

الحرية فى الاسلام

● أحمد فراج : نعرف ان الاسلام ليس مجرد دين يدعو الى البر والخير والتراحم وسائر الفضائل ، ولكنه يمتد ليشمل ويغطى كل جوانب الحياة .. فالاسلام عقيدة تنظم صلة الفرد بالله على طريق التوحيد ، وتنظم العبادات التى تحقق ـ بالتزامها ـ معنى العبودية والطاعة لله ، وتربى الخلق والسلوك ، وكذلك ،هو شريعة تنظم صلة الفرد بالفرد وبالاسرة وبالمجتمع ، وتضع الاسس التى تقوم عليها الحياة السياسية والاجتماعية والاقتصادية فى المجتمع وفى الدولة الاسلامية ، وتنظم علاقات السلم والحرب الى سائر مناحى الحياة فى الحقوق والواجبات وغيرها ..

فما هى الاسس التى يقيم عليها الاسلام أركان الحياة السياسية ؟ .. وما هى هذه الاصول التى تحكم التشريع الاسلامى بصفة عامة ؟ ..

● د. كمال أبو المجد : دين الاسلام ليس دينا فحسب ينظم علاقة الانسان بربه ، وانما هو أيضا ينظم علاقة الناس بالناس .. هذه الحقيقة على بساطتها وتكرار الناس لها واقتناعهم بها ، الا أنها للأسف الشديد لا تزال قضية نظرية ، بمعنى ان أكثر المسلمين الفوا فعلا ان

يتصوروا الحياة حياتين : حياة تتعلق بالدين ، بقرآن وسنة ، وتاريخه وتراثه وفقهه وكتبه الصفراء .. وحياة اخرى تتعلق بحاضرنا ومشاكلنا وأيامنا ، والعلم ومخترعاته واللغات الاجنبية والفنون والابتكار . هذه القسمة ليست قسمة عقلية فحسب ، وانما هي للأسف الشديد قسمة نفسية ايضا . أننا اذا ألمت بنا ملمة او طرأت على حياتنا ظاهرة أو مشكلة ــ خيرا كانت أو شرا ــ انطلقنا نلتمس الحلول لها والمواقف النفسية تجاهها من أمور ومصادر لا صلة لها بالاسلام ، مع أن الطبيعي ونحن نؤمن عقليا بأن هذا الدين ينظم الدنيا والاخرة ويقيم علاقات سوية مستقيمة بين الانسان وربه ، وبين الناس والناس .. الطبيعي أن نفتش عن الحلول فى هذا الدين ، وأن نلتمس الموقف النفسي والموقف العقلى من هدى القرآن الكريم ومن أصول الاسلام المختلفة

وهذا الذى نثيره اليوم ، وهو نظام الاسلام ومنهجه العام فى التشريع ، مدخل طبيعى لربط ما نعيش فيه من مشاكل سياسية واجتماعية ، بمصدر التقويم الاساسى فى حياتنا وتراثنا وهو الاسلام .. الدين القيم الذى جعله الله رحمة للناس وهدى . هذا الاسلام حين يعالج قضايا السياسة وقضايا الاجتماع ، وقضايا نفس الانسان الفرد ، وقضايا العبادة ؛ يصدر عن أصول واحدة ..

وفى خصوص التشريع بصفة خاصة فهو يصدر عن مبادىء محددة ، تدور أساسا حول الانسان .. فشرائع الاسلام ليست شيئا منفصلا عن الناس ، الناس هم محور شرائع الاسلام . « يا أيها النــاس انتم الفقراء الى الله والله هو الغنى الحميد » فنحن الناس نحتاج الى هــذا الدين .. نحتاج الى الخالق والخالق ليس محتاجا الينا، ومن ثم فكل ما جاء عن الله تعالى وعن الرسول صلى الله

عليه وسلم من شرائع ، يدور أساسا حول هذا الانسان ، ويناسبه بطبيعته كلها ، ما فيها من عوج وما فيهـا من استقامة ، ما فيها من ضعف وما فيها من قوة ..

ولذلك كان من الاصول التى قررها الفقهـاء وانتبه اليها المتأملون فى شريعة الاسلام ، أنها شريعة وسط ، لا تطالب الانسان بما يعلو عن مستواه فتصير شيئا خياليا يستعصى على الانسان المتوسط العادى ان يلتزم بها وأن يتحقق بها وان يطيعها ، ولكنها أيضا لا تهبط من مستواه فتقعد عن تمكينه من أداء رسالته التى اختارها الله له حين عرض الامانة على السموات والارض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها ، ولا تقعـد به عن أن يكون ، ولا تقعد بأمة المؤمنين ان يكونوا كما أراد لهم ربهم أن يكونوا أمة وسطا وجعلهم لذلك شهداء على الناس .

فالوسطية .. هذا الاعتدال .. هذا التوسـط بين الافراط والتفريط ، هذا التوسط بين الالتصاق بالطين وبالعيش وبين التحليق الى آفاق ملائكية تعلو على طبيعة الانسان ، هو اصل عام فى التشريع ، يستطيع المتأمل فى كل جزئية من جزئياته — وفى كل جانب من جوانبه — أن يجد له الشواهد ، وهو الذى يجعل هذه الشريعة نظاما ملائما للانسان « فطرة الله التى فطر الناس عليهـا ، لا تبديل لخلق الله » « ألا يعلم من خلق وهـو اللطيف الخبير » . هذه الوسطية تعبير عن ملاءمة شريعة الاسلام للناس وعن صلاحيتها .

ثم من أصول الاسلام ايضا فى التشريع ملاءمة فذة بين الحقوق والواجبات ..

أساس هذه الملاءمة أن النـاس وان كانوا يحاسبون ويقفون بين يدى الله عـز وجل أفرادا « كل نفس بمـا كسبت رهينة » « ولا تزر وازرة وزر أخرى » « وكلهم

آتية يوم القيامة فردا » هــــذه الفردية فى التكليف وفى الحساب وفى المسئولية تتممها وتقابلها أن الناس فى هذا الكون وفى هذه الحياة ، فى حياتهم ومعيشتهم لا يعيشون افرادا منفردين وانما يعيشون جماعات ، فالجماعة هى الوعاء الاجتماعى الذى يجرى فيه التكليف ويجرى فيه التعامل ويدور فيه كل تشريع اسلامى أو غير اسلامى ..

فشريعة الاسلام فى جوهرها شريعة اجتماعية .. ولما كان اجتماع الناس يقتضى التوفيق بين مصالحهم وحقوقهم فان من معالم التشريع الاسلامى انه ما قرر حقا الا قرنه بواجب . وهذا الواجب فى حقيقته هو حق الاخرين فى الجماعة ، فحقك فى أن تتكلم ، لابد أن يوازنه وأن يوفق بينه وبين حق الاخرين فى أن يهدأوا ، فى أن يختاروا وأن يسمعوا أو لا يسمعوا . حقك فى أن تسير مغنيا أو صائحا أو متحدثا يتممه ويوازنه ويقيده بعض الشيء حق الاخرين فى أن يهدأوا وأن يتركوا بغير ضوضاء وغير ذلك مما سوف نعود اليه .

هذان هما الاصلان العامان ، وسطية واعتدال تلائم فطرة الناس ، وملاءمة بين الحقوق والواجبات تعبر عن التوفيق بين فردية المسئولية وجماعية المعيشة فى هذه الدنيا ..

● أحمد فراج : فى ظل الوسطية والملاءمة أو التوازن بين الحقوق والواجبات نتناول بعض الحقوق التى كفلها الاسلام ونختار حق الحرية لما له من مكانة خاصة فى نظر الاسلام ، ونتعرف على التصور الاسلامى لهذا الحق .

● د. كمال ابو المجد : نحن فى هذا المجتمع — وفى هذه الفترة بالذات — نسلط الاضواء على الحرية ايمانا واعتقادا راسخا بانه لا نصر بغير حرية ، ولا اصلاح للمجتمع بغير حرية ، ولا تنمية لاقتصاد هذا البلد — وأى بلد — بغير

قدر معقول من الحرية .

فأين يقف الاسلام من هذا ؟..

ان سبق الاسلام فى هذا ليس سبقا عاديا .. والذى ازعمه ـ وأجد لهذا الزعم شاهدا فى أصول الاسلام ونصوصه وكتابات علمائه ـ أن الحرية فى الاسلام ـ خلافا للشرائع الوضعية ـ ليست حكما سياسيا فحسب ـ ليست جزءا من شريعة الاسلام ، وانما هى فى الحقيقة جزء من عقيدة الاسلام . فى اللحظة التى يقرر الاسلام فيها وحدانية الله ، ويطالب الافراد بألا تذل جباههم الا للخالق قيوم السموات والارض .. هو يحررهم من العبودية لاى مخلوق ولأية فكرة ولأية جماعة ..

فكأن حرية الانسان تجاه الانسان ، هى الوجه الاخر العسودية لاى مخلوق ولأية فكرة ولأية جماعة ..

العبودية ، ومشاعر الذل ، ويوجهها فى الانسان كله نحو خالقه فهو يقضى على كل بقاياها تجاه الناس . من كان عبدا لله كان حرا تجاه الناس جميعا ، ولهذا اعتبر الفقهاء والمفسرون أن من تكريم الله تعالى لانبيائه أن يصفهم بأنهم عباد لله .. «عبد الله» .. «عبدنا» .. الى آخر ما جاء فى النصوص ، اعتبروا هذا من التكريم لان من خلصت عبوديته لله تم تحرره ازاء الضغوط والقوى وازاء سائر الناس ..

فالحرية اذن ، حرية الانسان تجاه الانسان أصل فى عقيدة الاسلام قبل أن تكون أصلا فى شريعته . على أن هذه الحرية لا نريد أن نرددها هكذا شعارا وفكرة عامة ، نريد أن يكون لها معنى محددا نمسكه بأيدينا ونعرف عناصره المختلفة حتى يكون تمسكنا بها عن بينة ووعى وادراك لمكانها فى الاسلام .

ما الحرية ؟ ..

الحرية لها مستويات عديدة . أول هذه المستويات أن يكون الانســان الفرد متحررا من الخوف ، فالخــائف لا يستطيع ان يمارس اى حق واية حرية اخرى ممارسة جدية . أو ان شئتم فقولوا ان الحرية ذات وجهين ، وجه سلبى يتمثل فى التحرر من الخوف ، ووجوه ايجابية متعددة تتمثل فى ممارسة التعبير .. فى ممارسة الاعتقاد .. والاجتماع .. فى ممارسة حرية التملك وحــريات وحقوق كثيرة اخرى . هى ايجابية ولكنها لا تظهر الا اذا استوى الانسان انسانا مكتمل البناء وزال عنه الخوف .

ومن غرائب الامور التي نتجت من فساد منهجنا فى فهم هــذا الدين وفى الوقوف نفسيا منه أننــا نردد فى صلاتنا ـ واطفالنا يرددون فى مدارسهم ـ آيات أو سورة هى دستور الحرية ، وهى أساس الامن دون أن يفطن واحد منا الى هذا ، وهى قوله تعالى « لايلاف قريش ايلافهم رحلة الشتاء والصيف فليعبدوا رب هذا البيت الذى اطعمهم من جوع وآمنهم من خوف » هذه الآيات نقرؤها هذه الايام فكأننا ما مررنا بها أبدا مع أنها تضــع هذين الاصلين . لا ينقص الرجال ولا يذل الجباه الا الفقر والخوف ، الفقر الذى يهدد الكيان الحيوى ويهدد الحياة فى صميمها ، والخوف الذى يهدد الوجــدان والرجولة والرأس المرفوعة فى كيانها أيضا وفى صميمها .

الانسان اذا اكتمل بنيانه العضوى بلقمة العيش التى تقيمه رجلا أو امراة يتحرك او تتحرك ويسعى على قدميه، ما ان يكتمل هذا الكيان حتى يستشعر الحاجة الى أن يأمن .. الى ان يأمن فى بيته ، على رزقه ، على حياته ، على حريته ، على كرامته ، على عرضه ، على ملكه . هذا المقام مقام الامن هو أول مقامات الحرية لانه ينفى عنها الضغط . بعد مقام الامن ماديا بلقمة العيش ، ومعنويا

بالامن ، يتطلع الى مزيد من الحقوق والحريات الايجابية.

أول حرية .. حريته فى نفسه ، حقه فى أن تحترم حياته ، وفى الا يعتدى على حياته ، فى الا تزهق نفسه بالباطل . وعلماء التشريع الاسلامى يعلموننا أن جميع تكاليف الشريعة ترجع ـ كما يقولون ـ الى حفظ مقاصدها فى الخلق ..

ما معنى هذا ؟ .. معناه أن هذا التشريع وقد جاء لمنفعة الناس ، يحمى مصالح محدودة فى هؤلاء الناس وأول مصلحة يحميها التشريع هى مصلحة الانسان فى نفسه ، حماية النفس . وهناك قائمة طويلة من تشريعات الاسلام ومن أحكامه جاءت بها نصوص ـ كتابا وسنة ـ تستهدف كلها صيانة حق الانسان فى نفسه ، تحريم القتل « ولا تقتلوا النفس التى حرم الله الا بالحق » رسول الله صلى الله عليه وسلم فى حجة الوداع يعلم المؤمنين من بعده قائلا « .. ان دماءكم وأموالكم وأعراضكم حرام عليكم حرمة يومكم هذا فى شهركم هذا .. » وقدم النفس .. الدم ، لان حق الانسان فى نفسه هو الذى تتفرع منه سائر الحقوق ، وكما حماه توقية ومنعا بمنع الاعتداء عليه ، فقد منعه بعد ذلك وحماه زجرا وعقابا لكل من يعتدى عليه فشرع القصاص ..

ومن حكمته ومن ارشاده الى هذا المعنى قوله تعالى «ولكم فى القصاص حياة يا أولى الالباب» لأن هذا القصاص هو الذى يحمى حياة النفوس الاخرى بما يزجر به وبما يردع وما يصد به المعتدين عن أن يتعرضوا للحياة وللنفوس . فحماية نفس المؤمن هى أول حماية لاول حرية ولاول حق .

بعد حماية النفس نجد ما يسمى بالحريات الفردية ، وهى فى الحقيقة يفرعها العلماء المحدثون والوضعيون ،

كما يفسرها أيضا علماء التشريع الاسلامى ، الى قائمة طويلة . أول هذه الحقوق والحريات : حرية الانسان فى خصوصيته ، فى أن يترك فى بيته وأن يكون له مسكن لا يقتحمه عليه أحد . وهذه الحرية تفخر شرائع حديثة كثيرة بأنها تحميها .. فنجد مثلا فى النظام القانونى الانجليزى والامريكى تعبيرا مشهورا يقولون فيه « مسكن الانسان حصنه وقلعته » لان الانسان لا يكتمل كيانه ولا يستطيع أن ينمى ملكاته ولا يستطيع أن يربى أسرته الا اذا كانت له مملكة ، هو فيها حر لايزعجه مزعج ولا يقتحمها عليه مقتحم .. هذه المملكة وهذا القصر أو القلعة هى داره ..

حرية المسكن قد حماها الاسلام حماية مركبة متكاملة، حماها من أن تقتحمها السلطة فتطرق على الناس أبوابهم قبل مطالع الفجر فتأخذ من تأخذ الى حيث لايعرف . كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يخطب يوما فقاطعه واحد من الصحابة قائلا : جيرانى يا رسول الله ، بم أخذوا ؟ فأعرض عنه رسول الله صلى الله عليه وسلم واستمر فى خطبته فظل يقول : جيرانى بم أخذوا ؟ فلما فرغ الرسول عليه الصلاة والسلام قال : ردوا عليه جيرانه . فطرق الباب بغير حق اعتداء على حرية المسكن .. بل ان الاسلام ليحمى حرية المسكن من الازعاج العارض بأن تفاجأ وانت جالس فى بيتك تقرأ أو تنام أو تستريح أو تخلو الى زوجتك فى حديث عائلى أو تربى أطفالك أو تعلمهم ، من حقك أن تأمن من أن تقتحم عليك هذه الخلوة

ولذلك شرع الاسلام نظاما متمدينا رقيقا راقيا انسانيا اجتماعيا لحماية حرمة المسكن . وما تستطيع أن تسميه الحرية الخصوصية ، أن تكون لك خصوصية تعزل نفسك بها عن ضوضاء العالم ـ ولو لفترة محدودة ـ وذلك حيث

تقول الآية الكريمة « يا أيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوتا غير بيوتكم حتى تستأنسوا وتسلموا على أهلها »

وتأملوا فى لفظ الاستئناس وفى دقته ورقته وتعبيره عن المعنى ، تقدمة يتهيأ بها صاحب المسكن للانتقال من خلوته الى لقاء الناس .. تمهيد يستأذن فيه ويخبر فيه أن زائرا قد وصل .. فلا يفاجأ بشخص يقتحم عليه الخلوة ..

وليس هذا فقط وانما حتى تكتمل مع الخصوصية معانى الامن ، يأمر الاسلام الطارق بأن يسلم على أهلها . ذلكم خير لكم جميعا .. لأن ماتمنحه لصاحب البيت من حق ، هو يمنحك اياه حينما تكون أنت خالدا الى الراحة خاليا الى نفسك . ثم هو يضع لهذا المسكن نظاما حتى حين لايكون صاحبه فيه « فان لم تجدوا فيها احدا فلا تدخلوها حتى يؤذن لكم » ليس من حقك الدخول فقد يكون صاحب البيت قد ترك أوراقا أو تركه بحال لايحب أن يراه عليها أحد الا باذن صريح منه . بل أكثر من هذا قد يكون صاحب البيت فى بيته ولكنه لايريد أن يراك الآن .

من آداب الاسلام التى ضيعناها وطغت عليها قيم أخرى فيها مجاملة فى غير موضعها أننا نتأذى اذا قيل لنا ان صاحب البيت ليس مستعدا الآن للقائنا ، مع أن الاسلام يقول « وان قيل لكم ارجعوا ، فارجعوا » ففضل وأعلى ورجح حق صاحب البيت فى أن يترك فى خلوته أو حاله على حق الطارق فى أن يدخل . هذه حماية مركبة لا اعرف شريعة قديمة أو حديثة تعطى حماية لحرمة المسكن تعلو عليها . هذه هى الحرية الاولى فى قائمة الحريات .

● أحمد فراج : اظن انه فى مجال التطبيق شهد هذا الحق فى حرية المسكن صورا رائعة ، منها ما كان من

المواطن الذى راجع الخليفة الراشد عمر بن الخطاب رضى الله عنه عندما راى انه حدث اعتداء على حريته فى مسكنه رغم خطأ ارتكبه .

● د. كمال أبو المجد : فى الحقيقة لا يعرف كالاسلام نظام فى التسوية بين الحاكم والمحكوم ، وهذا ما قد نعود اليه فى مرحلة تالية عن سيادة القانون . اذا وضع المبدأ فهو كالسيف يلتزم به الناس جميعا ، ولا يعفى منه أحد ــ خليفة كان أو غير خليفة ــ وأنتم تعرفون سنة عمر مثلا فى هذا ، فهو كان اذا أراد أن يأمر الناس بشىء أو ينهاهم عن شىء دخل الى أهل بيته أولا وقال لهم:«أمانى سأدعو الناس الى كذا وكذا وسآمرهم بكذا وكذا أو سأنهاهم عن كذا وكذا . وانى اقسم بالله ، لا أجد أحدا منكم ترك ما أمرت الناس به أو أتى ما نهيت الناس عنه ، الا جعلته نكالا » وكما كان يطلب ذلك من أهل بيته فقد كان يطلبه من نفسه ويلزم نفسه به .

ونحن نعرف حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم « من نظـر فى دار جاره فـكانما ينظر فى كوة من نار » والقاعدة عامة وعمر لم يعف نفسه منها ، والقصة التى ألمح اليها الاستاذ أحمد فراج معروفة . حينما نمى الى علمه أن شابا يتعاطى الخمر ويسرف فى المجون ، فأراد عمر أن يضبطه متلبسا بهذا الامر فتسور عليـه جدار داره واطلع عليه وأراد أن يأخذه بهذا الذى ضبطه متلبسا به .. فما كان من الرجل الا أن قال له : يا أمير المؤمنين ، جئت بواحدة (وهى شرب الخمر) واما أنت فقـد جئت بثلاث ، يقول الله تعالى « ولا تجسسوا » وقد تجسست على ، ويقول الله تعالى « لا تدخلوا بيوتا غير بيوتكم حتى تستأنسوا .. » وأنت لم تستأذن ، ويقول الله تعالى « وأتوا البيوت من أبوابها » . وقد تسورت على دارى

اى أن هناك ثلاث مخالفات : التجسس ، وعدم الاستئذان، واقتحام البيت ومفاجأة الناس من الجدر والنوافذ والمخارج . فعاد عمر الى نفسه موقنا أنه أتى بثلاث فعلا ، والخليفة لا يعفى من هذا لان حرمة المسكن فى الاسلام حرمة اساسية لان الذى لا يأمن فى نفسه أولا ثم لا يأمن فى بيته ثانيا انسان قلق عاجز عن أن يرفع قامته او أن يبنى أمته

● احمد فراج : ماذا عن حرية الاعتقاد وحرية الرأى والتعبير ؟

● د. كمال ابو المجد : نستطيع أن نقول اذا كان للحرية عموما جانبها السلبى وهو دفع الاذى ودفع الخوف والتمتع بالامن فان حرية المسكن وحرمته هى فى الحقيقة ايضا جزء من الامن حتى ان بعض العلماء المحدثين يجمعونها هى والامن الذى تحدثنا عنه أولا ، بما يسمونه « حق الانسان فى أن يترك وحده » . نجد ذلك فى كل النظم الاوربية فى انجلترا وامريكا وغيرهما .. يتحدثون عن حق الانسان فى أن يترك وحده مع نفسه وفى مسكنه .

اذا انتقلنا بعد ذلك الى الجانب الايجابى وجدنا أولا حرية الاعتقاد .. أن يستعمل الانسان ما أودعه الله فيه من ملكات ، فان العقول ما وضعت فى الرءوس لتختزن وانما وضعت لتستعمل . ينبنى على حرية الفكر والاعتقاد حرية الناس فى أن يعبروا عن ثمرات هذا الفكر ، ويأتى بعد ذلك أمر حرية القول أو ما يسمى بحرية التعبير .

حرية الاعتقاد حماها الاسلام ، لانه ناط كل أحكامه بالاختيار ، وبالحرية .. فلا يتصور أن يطالب الانسان بأن يعتقد بشىء لا يفهمه او لا يؤمن به . ولذلك تقول الآية الكريمة « لا اكراه فى الدين قد تبين الرشد من الغى » وحتى يتبين لنا بعد هذه الآية ومدلولها ينبغى أن نعرف

سبب نزولها ، كان لرجل من الانصار طفلان تنصرا فى الجاهلية قبل البعثة ، ثم قدما عليه بعد اسلامه فى تجارة يبيعان زيتا مع قبيلة من القبائل ، فلما رآهما امسكهما وقال : لا اتركما حتى تسلما ، فاختصموا الى رسول الله صلى الله عليه وسلم وجعل الرجل يقول : يا رسول الله ادع قطعة منى تدخل النار وانا انظر ؟ فخالفه الرسول صلى الله عليه وسلم فى ذلك وابى ان يدعه يكرههما على الاسلام ، فقال ارسلهما (اى اتركهما) . ونزل قوله تعالى « لا اكراه فى الدين قد تبين الرشد من الغى »

كان رسول الله صلى الله عليه وسلم — بعد ان انتصر على اقل تقدير — قادرا ان يلزم النـــاس هذه العقيدة وان يكرههم عليها ، ولكن اى فضيلة لمن يؤمن تحت ظلال السيف .. والله تعالى غنى عن ايمان هؤلاء المضطرين ، انما يقبل الله ايمان هذه القلوب المتفتحة والعقول المنطلقة ولذلك كان الاصل فى العقيدة وفى غيرها «لا اكراه فى الدين»

ولهذا أيضا شرعت المحاجة والمجادلة وقدمت البيانات حتى تكون سلاح المؤمنين فى تقديم العقيـــدة ، « وتلك حجتنا آتيناها ابراهيم » لان ابراهيم ما كان يدعو الى الحنيفية بالاكراه وانما كان يدعو بهذه المحـــاجة « ولا تجادلوا أهل الكتاب الا بالتى هى أحسن » « أدع الى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة »

ولهذا دعى الاسلام الى اســـتعمال البرهان والدليل والى المحاجة ، واذا كانت من سنة ابرهيم فقد أمرنا أن نتاسى بالانبياء لا نفرق بين أحد من رسله .

بعد قضية الاعتقاد تأتى حرية التعبير .. حـــرية أن يتناقش الناس ، وكذلك كان رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ما حجر على حرية أحد من أصحابه فى أن يتكلم وان يتناقش . واكثر من موقف خاضه الرسول عليـــه

الصلاة والسلام مع أصحابه واختلف الأصحاب وتناقشوا وتجادلوا .. هذا يعرض رأيا ، وهذا يعرض رأيا ثانيا .. فاذا استبان الحق ومالت الجماعة الى رأى ، فهنا تنظيميا يجب علينا أن ننطلق وراء هذا الرأى الذى اتفقنا عليه . ولكن الجماعه لاتنطلق بغير مناقشة ولا تحجر على حرية أحد فى أن يناقش ، والمواقف معروفة فى السلام وفى الغزوات وفى الاسرى ونزول الجيش فى موقف معين .. الخ

وفى كل موقف عرض للرسول عليه الصلاة والسلام ، ولم يكن فيه وحى يقطع ، فالناس بشر ورجال يقولون ويجتهدون ، وأساس هذا فى افساح الاسلام المجال لحرية التعبير ما قررناه من أن الاسلام لا يعرف الا مقامين : مقام الغيب الذى يعرفه الله تعالى وينفرد به ويوحى به الى أنبيائه ، ومقام الخلق الذين أودع الله فيهم قبسا من نوره وروحا من روحه وعقلا من علمه . ولذلك كان من عادة الصحابة ومن فقههم لهذا التقسيم الثنائى أنهم كانوا اذا عرض موقف سألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم :

أهذا منزل أنزلكه الله .. أم هو الرأى والحرب والمكيدة ؟ ..

أهذا أمر أمرك الله به أم هو أمر تصنعه لنا أم أمر نصنعه لك ؟...

فان كان وحيا نزلوا جميعا عليه ، وان كان رأيا أو اجتهادا فهم يجتهدون كما اجتهد عليه الصلاة والسلام .

وكان هذا أيضا فقه علماء المسلمين ، كان من دأب أبى حنيفة رضى الله عنه أنه كان يقول : اذا جاءنا الامر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فهو على العين والرأس لانه ما ينطق عن الهوى ، ان هو الا وحى يوحى . واذا جاءنا عن الصحابة الذين نزل الوحى بينهم وعاش الرسول عليه الصلاة والسلام بين أظهرهم ، عاشروه وعايشوه

وصحبوه فى سلمه وحربه فى رضاه وفى سخطه فى بيته وفى سوقه ، فهم يعرفون هديه ويعايرون سننته ، فيختار أبو حنيفة بين آرائهم ولا يعدوها ، أما اذا انتهى الامر الى التابعين وتابعى التابعين فقد كان أبو حنيفة يقول « هم رجال ونحن رجال » هذه عقول ونحن عقول لا قداسة لرأى ولا عصمة لرجل . ولذلك ، اسمعك وتسمعنى ، واناقشك وتناقشنى ، يتكلم هذا وذاك لا نحجر على حرية أحد فى التعبير ، هذه فلسفة الاسلام فى الحرية فى هذا الجانب ..

● أحمد فراج : كنا نحب فى الواقع ان نتناول موضوع حرية التملك ــ بعد هذه الحريات والحقوق ــ فى المجالات التى أشرنا اليها .. ولكننا نفضل أن نؤجل الحديث عن حق التملك لنتناول القيود التى يمكن أن ترد على الحقوق المشار اليها ، لان السؤال المنطقى بعد الحديث عن تلك الحقوق والحريات هو ما اذا كانت مطلقة بمعنى هل حريتى فى المسكن بلا حدود ، وحرية الاعتقاد والتفكير والتعبير والرأى كلها حريات مطلقة ؟

● د. كمال أبوالمجد : الحقيقة ان هذا المبحث ليس نظريا .. الدنيا تعرف مذهبين ، مذهب يسمى المذهب الفردى ينظر الى الحقوق نظرة مطلقة ، وبصفة خاصة الى الملكية . كانوا يعلموننا قديما مثلا فى القانون الرومانى الذى هو أصل الشرائع الاوربية الحديثة كلها فيقولون « الملكية حق مطلق » .. هى حق استعمال الشىء واستغلاله والتصرف المطلق فيه . ثم ظهر مذهب أو مذاهب أخرى تسمى المذاهب الجماعية تركز النظر على حقوق الجماعة وتقيد حق الفرد ، ولأمر ما ولسبب لا أدريه وقر فى أذهان كثير من الناس ــ وهما ــ أن الاسلام ينحاز انحيازا كاملا الى المذهب الفردى ، وأنه

يقول بأن الحقوق مطلقة . وهذا غير صحيح أصلا ، الله تعالى خلق الناس شعوبا وقبائل ويعاملها على أنهـا جماعات وهو يعلم أن كل حق انما يمارس فى جماعة ، فلو أطلق لهدم الجماعة هدما .

والمثال الذى يكشف عن فلسفة الاسلام فى هذا مثال قديم نعرفه ، ولكننا نذكره ليكون منطلقا لفهم نظرية الاسلام فى القيود التى ترد على الحقوق وعلى الحريات . هو حديث الرسول عليه الصلاة والسلام الذى يقول فيه مثل القائم فى حدود الله والواقع فيها كمثل قوم استهموا فى سفينة ، فصار بعضهم أسفلها وبعضهم أعلاها ، فكان الذين فى اسـفلها اذا استقوا من الماء ، مروا على من فوقهم ، فقال قائل منهم ، لو أننـا خرقنا فى نصيبنا خرقا ولم نؤذ من فوقنا ، فلو تركوه ، هلكوا جميعا ، ولو ضربوا على يده نجوا ونجـا معهم . هـذا معنى الحديث الذى يشير الى ان ممارسة الحقوق فى الجماعة .. الامة .. الدولة .. ترتبط بحقوق الآخرين . فأنت لا تستطيع أن تباشر حقك مباشرة مطلقة .

وهذه قضية بدهية يعبرون عنها فى الغرب بمثال طريف وبسيط ، ولكنه يكشف عن جوهر الفكرة . يقولون : ان حقك فى أن تلوح بيدك فى الهواء قائم ، ولكنه ينتهى حيث تبدأ انفى ، لان لى حقا فى الا تصيبنى يدك . وهكذا فى كل حق ، حقك فى ملكيتك مقيد بألا تؤذى جارك والا تؤذى جماعتك .. حقك فى التعبير أيضا ليس مطلقا والا لسمحنا مثلا بأن يقف واقف فى مجتمع عام ويقول : أعلنت الحرب ، ولم تعلن الحرب . أو يأتى فى دار من دور السينما أو المحاضرات أو فى المدرسة أو الجامعة فيقول : « اشتعل حريق ، فيضج الناس ويخرجون ويتزاحمون ويؤذى بعضهم بعضا . فحقك فى التعبير مقيد حتما برعاية

حق الجماعة • ولكن رعاية حق الجماعة فى الاســلام أمر منضبط ، يضبطه ما نسميه مبــدأ الشرعية ، مبــدأ القاعدة ، مبدأ دولة القانون .

***

ان دولة الاسلام دولة تحكمها القواعد والنصوص ، حتى رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يقضى فيهـــا بارادته . الله تعالى يقول « ولو تقول علينا بعض الاقاويل لاخذنا منه اليمين ثم لقطعنا منه الوتين » • ويقـول ان الرسول لم يأت بهذه النصوص من عنده وانما هو مبلغ « ان هو الا وحى يوحى » وفى خطبة الوداع يقول الرسول عليه الصلاة والسلام « انكم والله ماتمسكون على بشىء فانى لم احل الا ما أحل الله ولم أحرم الا ما حرم الله » اذن القاعدة فى الاسلام أن الحقوق توازنهـا واجبات ، ونستطيع أن نطبق هذا فى حرية التعبير وحرية الامتلاك وفى سـائر الحريات .

المساواة فى الاسلام

● احمد فراج : اذا انتقلنا الى قضية المســــاواة ، ما هو رأيكم فى المفهوم الشــــامل لقضــــية المساواة بأبعادها المختلفة ، والإخوة الانســـــانية التى يتميز بها الفكر الاسلامى ..

● د . كمال أبو المجد : فى الحقيقة أن فكرة المساواة من الافكار التى تبناها مع الاسلام الفـكر السياسى فى ظـل أنظمة وفلسفات أخرى ، ولكن فكرة الاخوة فكرة متميزة قليلا عن فكرة المساواة ، وأكثر منها تحقيقا لمعنى الارتباط الانسانى . فكرة المساواة أساسا تعنى أن يتمتع الناس بنفس الحقوق وأن يطالبوا بنفس الواجبات ، وأن يلقوا نفس المعـاملة ما داموا أساسا متساوين فى الطبيعة وفى الوضع . أما فكرة الأخوة ، فهى لاتكتفى بالغاء التمييز بين الناس ، وانما هى تقيم رابطة أوثق . أنها تجعل من الأفراد جسدا متماسكا اذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الأعضاء بالحمى والسهر ..

فالأخوة اذن فكرة يضيفها الاسلام الى فكرة المساواة التى تعتبر الحد الادنى فى تحقيق العـدل التوزيعى بين الناس فى الحياة السياسية ، والحياة الاجتمـاعية .

والمساواة فى الاسلام أصل أساسى وردت فيه نصـــوص عديدة فى كتاب الله تعالى ، وسنة رسوله عليه الصلاة

والسلام وهى تنبع من تصور الاسلام للانسان ، يقول الله تعالى « ولقد كرمنا بنى آدم وحملناهم فى البر والبحر ورزقناهم من الطيبات ، وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا » ..

فجوهر هذا النص أنه سبحانه وتعالى كرم الناس وفضلهم ، والاسلام بهذا وضع حدا لما كان يذهب اليه التفكير اليهودى من اعتبار بعض القبائل أو بعض السلالات او بعض أصحاب الاديان جنسا متمايزا ، جنسا أعلى من سائر الناس . ويحل محل هذه الفكرة نظرية « الكائن الممتاز » نظرية الانسان الذى كرمه الله ، ولكن فى اطار هذه الانسانية العامة يستوى الناس جميعا ويلقون نفس المعاملة ..

فكرة المساواة هذه بحكم كون الناس ناسا ، يشهد لها قوله تعالى « يآيها الناس انا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا ان أكرمكم عند الله اتقاكم » . وهذا النص القرآنى يحتاج الى وقفة قصيرة، لنعرف ترتيب الاولويات فى تصور الاسلام للانسان وللحياة ..

هذا النص يتحدث عن أمرين ، عن اختلاف بين الناس شعوبا وقبائل .. يختلفون لونا ، ويختلفون عنصرا ، ويختلفون نسبة ..

ثم هو يتحدث عن عنصر يشترك فيه الناس جميعا وهو الاصل ، انهم جميعا خلقوا من ذكر وأنثى ، كان من الممكن أن يقدم الاختلاف الذى هو الامر الظاهر لنا الان ، اختلاف الالوان والاجناس والالسنة ، ثم يدعو الناس بعد ذلك الى التعارف ويذكرهم بوحدة الاصل . ولكنه حتى يستولى على الشعور وعلى الفكر بهذه الحقيقة الكبيرة ــ وحدة النشأة والاصل ــ قدم هذه النشأة فقال : « يآيها

الناس » ثم قال : « انا خلقناكم من ذكر وانثى » وليس بعد هذا الاصل مبرر للتفرقة والتمييز . ثم ذكر اختلاف الالوان على إنه شيء عارض ، بل جعل له وظيفة ايجابية ، وهي أن يتبادل الناس المنافع ، وأن يتعارفوا ، ثم انتقل بعد هذه المساواة الاصلية الى أن يذكر أن الناس وان كانوا يتفاضلون ، انما يتفاضلون على اساس موضوعي ، وهو ما سنعود اليه بعد قليل ، « ان اكرمكم عند الله أتقاكم » .. وهذا التذكير بوحدة النفس التي هي اساس المساواة ، متكرر في نصوص قرآنية وفي نصوص السنة « يا أيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث منهما رجالا كثيرا ونساء » فهذا اذن هو أصل التوحيد ، ينبع من تصور الاسلام للانسان وتشهد له نصوص في القرآن الكريم وفي السنة قاضية بالمساواة العامة ..

● احمد فراج : هل التمايز الوحيد للفكر الاسلامي في قضية المساواة هو ربطها بمعنى الاخوة ؟

● د. كمال أبو المجد : من المعروف ــ وهذا أمر ينبغي أن نلاحظه ــ أن كل الدساتير تقريبا تنص على هذه المبادىء الطيبة النبيلة . الناس متساوون في الحقوق والواجبات ــ حرية العقيدة ــ حرية الرأي ــ حرية التعبير .. الخ ، ولكن الاسلام كنظام انزل من عند الله تعالى يتميز بشيء آخر ، هو قدرته العملية على تحويل النصوص والمبادىء السياسية والنظرية ، الى حقائق حية تتطور بها المجتمعات ، وتستقيم على امر هذه المبادىء والنصوص ، ولنقارن بين كثير من المجتمعات التي تنص دساتيرها على مساواة الناس امام القانون ، وعلى انه لا تمييز بينهم بسبب الجنس أو اللغة أو الدين ، لنقارن بعض تلك المجتمعات وما كان عليه الامر في مجتمع النبي

عليه الصلاة والسلام ومجتمع الصحابة فى تطبيق هـذا المبدأ بالذات : مبدأ المساواة .

الاسلام قرن الدعوة النظرية دائما بالتدريب العملي عليها حتى ينتقل المجتمع من الاعتقاد النظرى الى الممارسة العملية .. وذلك مصداقا لحكمة الله تعالى فى ارسال الرسل وانزال الكتب السماوية .. « ليقوم الناس بالقسط » ، هذه اللام ـ ليقوم ـ تحدد هدف الرسالات وهدف بعث الانبياء . ولذلك نجد فى الاسلام وسائل تدريبية عملية محددة لتقيم الجماعة على مبدأ المساواة

فى حياة الناس اليومية فى ظل الاسلام ، عبادات ومعاملات وأمثلة شتى على هذه التدريبات .. حرص الاسلام مثلا على صلاة الجماعة ، وعلى أن يصطف الناس صفا واحدا ، وعلى أن يجلس القادم للصلاة حيث ينتهى به المجلس .. لا حيث ترشحه مكانته الاجتماعية أو قوته أو ضعفه أو غناه أو فقره . هذا الاصطفاف فى الصلاة تأكيد متكرر معاد ، على أن الناس بين يدى الله تعالى يستوون ولا يتفاضلون الا بالتقوى .

الصوم ايضا امتناع القادر والعاجز والغنى والفقير والتزامهم بنفس العبادة بنفس المواقيت ، تأكيدا على أن النفوس واحدة ، تطالب بما يطالب به الآخرون .

الحج أيضا ، ولعله أروع صورة عملية على المساواة بين الناس تلغى فيه الفوارق ويمحى الغنى والفقر والجاه والسلطان . وهو توكيد عملي علىهذه المساواة الانسانية .. واذا كان الناس يستوون بين يدى الله تعالى فان الجماعة ستعتاد ان تنظر الى الناس على أساس صفتهم الانسانية لا على أساس الصفات العرضية .

● احمد فراج : اظن انه فى مجال المساواة امام القانون

قد لا نتصور التدريب العملي بقدر ما نتصور القدوة .

● د . كمال أبو المجد : القدوة كانت دائما احدى وسائل التدريب العملي لانه حين نمارس الشعيرة او المبدأ من عامة الناس فاثرها طيب ولكنه محدود ، ولكنها حين تكون ممارسة من مكان الصدارة ومكان التوقير والتعظيم والاقتداء من رئيس الامة ورئيس الدولة .. من حكامها ومسئوليها ، من رائد الجماعة وقائدها — ومن هم على هذا المستوى علما وقدرة وسلطة — فان تأثيرها يكون هائلا ويكون كبيرا .

ولنسمع مثلا قول عمر رضى الله عنه وهو يبحث عن مرشح للخلافة يقول : لو كان سالم مولى أبى حذيفة حيا لوليته ، وهو عبد ملون . ومع ذلك يرى عمر ان قدراته وطاقاته وصلاحياته ترشحه لهذا المنصب ارتفاعا فوق حواجز اللون والفنى والجاه . أو بلال الحبشى مثلا حيث كان عمر رضى الله عنه يقول من أبى بكر ، أبو بكر سيدنا وبلال سيدنا . فهو يقول عن ابى بكر انه سيدهم ، ويقول عن بلال أيضا انه سيدهم .. فالسيادة فى الاسلام فى مقام الذين يعملون ويقسمون الضوابط ، والمعايير الموضوعية لا تتحدد بأصل ولا بلون .. وانما تتحدد بالنسب الذى اقامه الله تعالى وهو الصلاحية الموضوعية للناس . فنفعهم للناس ، تقواهم ، صلاحيتهم .. والتقوى تعبير اسلامى عن كل عناصر الصلاحية الموضوعية .

● أحمد فراج : فى مجال المساواة أمام القانون ..

● د . كمال أبو المجد : ان المساواة أمام القانون عنصر من عناصر سيادة القانون ولكنها أيضا عنصر أساسى من عناصر المساواة ، لانه من أخطر ما يتعرض له الناس ، مما يفقدهم ثقتهم بكل الانظمة التى يعيشون فيها أن يروا فى حياتهم اليومية تمييزا فى معاملة الدولة للناس ، فى

معاملة القانون للناس ، بحيث يحس الفقير مثلا أو العاجز أو قليل الجاه بأن القانون يطبق عليه وحده ، بينما يعفى منه الاغنياء والاقوياء ، الاثر الضار لهذه الظاهره لايتوقف عند المرارة التى يشعر بها العاجز أو الضعيف .. وانما هذا الاحساس يولد فى الجماعة أسلوبا ونظاما كاملا للتعامل يسعى به الناس الى الافلات من القانون والى اقامة شبكات من الاتصال بالافراد ذوى الجاه حتى يحصلوا على درجة من الحماية مساويه لما يحصل عليه ذوو الجاه ..

الاسلام قطع دابر هذا الطريق الشيطانى حين قرر فى صراحة أن يعامل الناس أمام القانون معاملة متساويه. واخطر ما يمكن ان تقع فيه التفرقه .. التفرقة فى وقوع العقاب ، أن نشعر بأن القانون تطول يده الضعفاء وتقصر عن الاقوياء ، والسابقة فى الاسلام معروفة ، سنة عملية وقوليه للرسول عليه الصلاة والسلام وقمت حينما سرقت امراة من بنى مخزوم فأراد بعض الصحابة استكثارا واشفاقا من توقيع الحد على تلك الشريفة المخزومية ، أرادوا أن يتشفعوا فيها فلجاوا الى واحد من اقرب صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم اليه ، الى حب رسول الله أسامة بن زيد ، وأرادوا أن يتشفع عند النبى ، فغضب عليه الصلاة والسلام غضبا شديدا ، وقال : يا أسامة أتشفع فى حد من حدود الله ، ثم وقف خطيبا وقال : « انما أهلك من كان قبلكم .. »

ونريد أن نقف قليلا عند كلمة أهلك ، فليس هذا هلاكا بآفة سماوية ، انما هو اضمحلال اجتماعى ، فساد وتلف سياسى يؤدى فى النهاية الى ضعف المجتمع السياسى « انما أهلك من كان قبلكم انهم كانوا اذا سرق فيهم الشريف تركوه واذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه

الحد ، والذى نفسي محمد بيده لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها »

هذه مساواة وسيادة قانون .. يتقرر المبـــدأ ، ثم لا يعفى منه صغير أو كبير .. قريب أو بعيد .. حاكم أو محكوم ، قريب للرسول ومن أسرته وبيته وسلالته ، أو رجل من أطراف ضعاف القبائل . هذه المساواة أمام القانون تحدث اثرا نفسيا كبيرا وتؤدى الى شيوع ظاهره الرضى والاطمئنان والتعاون مع السلطة والرضى بالقانون وحده .

امثلة اخرى ، أمير المؤمنين عمر – وهو فى مقام الرئاسة والخلافة – راى رجلا يرتكب الفاحشة فسأل عليا رضى الله عنه قائلا : يا على ، أمير المؤمنين راى رجـــلا على فاحشة فماذا يفعل ؟ فقال على : يقطع بالحق ويحسم الامر به « يأتى بأربعة شهداء أو يجلد » .

فهو فى مقام القانون وفى مقام القواعد واحد من الناس يسرى عليه مايسرى عليهم ، ويطالب أمام القانون بمـا يطالب به أبناؤهم وأطفالهم .

أمثلة أخرى : الخلاف معروف بين على كرم الله وجهه وبين يهودى من أهل الكتاب ، فيصر على أن تجــرى التسوية بينهما فى مجلس القضاء ويستكثر على الخليفة أن ينادى عليه بكنيته (لقبـــه الذى يألف ويؤلف به) ويستكثر ذلك لانه يشكك فى عدل القاضى . وأولى بالقاضى أن يسوى بين الناس فى عدله ومجلسه ووجهـــه حتى يطمئن اصغر صغير فى الرعية الى أن القانون يعطيه من العدل ما يعطيه لأمير المؤمنين .

هذه المساواة أمام القانون هى ذروة المساواة ، وبهـا يشيع الرضى بالقانون . واذا شاع الرضى بالقانون ، شاع احترام القانون وشاع الالتزام به .

أريد بعد هذه المساواة أمام القـــانون أن أقرر أن الاسلام يرفض كل صور التمييز بين الناس الا على اساس المعيار الموضوعى ، فهو يرفض التمييز بسبب الدين ـ او بسبب اللون ـ ويرفض التمييز كما رأينا على اساس المكانه الاجتماعية او السياسية . التفرقة بسبب الدين يرفضها الاسلام رفضا حاسـما .. ولا يكتفى بهـــذا الرفض ، وانما هو يحرص أكثر من هذا على أن يقيم نوعا من التآلف والترابط بين كل المؤمنين بالله ، بين أهل الكتاب جميعا .

وقد سبق رسول الله صلى الله عليه وسلم ســبقا بعيدا من الناحية الزمنية والنوعية الى تقرير هذا المبدأ . لما دخل عليه الصلاة والسلام يثرب كان من أول ما قام به ان عهد عهدا أو عقد عقدا ـ او اقام دستورا بالمصطلح الحديث ـ اراد أن يضبط به الحياة السياسية فى دار الهجرة وأدخل فيه مع قريش قبائل أخرى وقبائل من اليهود ، واعتبرهم شركاء مع المسلمين فى هذا التآلف السياسى وفى الخضوع لهذا الدستور الواحد ، ونص على قبائل اليهود بأسمائها ، فقال ما معناه : وان يهود بنى كذا أمة مع المؤمنين يشتركون معها على قدم المســاواة ويتحملون من الضرائب والالتزامات والحقوق والتبعات ما يتحمله المسلمون الى آخر ما ننصح بالرجوع اليه فى هذا العهد أو الدستور الذى يسجل نظر الاسلام الى ضرورة التسوية بين النــاس بغض النظـر عن اختلاف الاديان .

ومن الوثائق التاريخية التى تؤكد بصفة خاصة حرص الاسلام على منح المؤمنين بالمسيحية ـ وكذلك المؤمنين باليهودية ـ حرية اقامة الشعائر الدينية وأن يضمن لهم حماية كافية فى هذه الممارسة ، ما نجده فى العهد القيم

الذى كتبه عمر رضى الله عنه الى أهل أيلياء بيت المقدس ،
ونحن نسمع هذه الايام أقاويل وتزييفات كثيرة عن ائتمان المسلمين على بيت المقدس ، ونرد على ذلك لله بان تراثنا الاسلامي وتاريخنا الثابت المدون يؤكد شيئا ، ان نصوص الاسلام ومبادئه تنصف أهل الكتاب مسيحيين ويهود وتضمن لهم فى ظلال الاسلام حدا أقصى من الحرية والضمان ، فهذا عمر بن الخطاب يقــول فى هذا العهد ، أنه أعطاهم الامان لانفسهم وأموالهم وكنائسهم وسـائر ملتهم ، لاتسكن كنائسهم ولا ينتقص منها ولا من خيرها ولا من صلبهم ، ولا يكرهون على دين غير دينهم ، ولا يضار احد منهم . بل يبلغ فى مجاملة مشاعر المسيحيين أن يحفظ عليهم مشاعرهم فلا يدخل عليهم – كما طلبوا – احدا من اليهود لما كان بين اليهود والمسيحيين قبيل هذا الوقت من شحناء وتنازع وخصومة .
وكل هذا ينطلق من قاعدة القرآن الكبرى « لا اكراه فى الدين » . ومن اعتقادهم فى حق الناس فى الاعتقـاد ، وحمايتهم للشعائر الدينية . وكما يرفض التفرقة بسبب الدين فهو يرفض أيضا التفرقة بسبب الجنس ، فسوى بين الرجل والمراة فى كل ما لا يتدخل فيه اختلاف الخلقة مصداقا لقوله تعالى « وليس الذكر كالأنثى » وأما فى الحقوق الانسانية والحقوق الاجتماعية فالنســاء شقائق الرجال « لهن مثل الذى عليهن بالمعروف » . كذلك قام مجتمع النبى صلى الله عليه وسلم . فالقاعدة اذن أن الاسلام يسوى بين الناس استنادا الى وحدة أصلهم ، وأنه لا يقبل تمييزا لا بسبب الدين ، ولا بسبب اللون ، ولا بسبب اختـلاف الذكورة والانوثة ، الا حيث يكون لهذا الاختلاف الخلقى دخل مباشر فى الوظيفة الاجتماعية
● احمد فراج : لو اردنا أن نبحث عن المساواة فى

مجال الوظائف العامة والخدمات والمرافق .. هل نجد نفس القاعدة ؟

● د. كمال أبوالمجد : ان مبدأ المساواة فى الاسلام فى الحقيقة ، حل جميع المشاكل المتعلقة به .. لأن مبدا المساواة من المبادىء المطلقة فى الاسلام ، يسوى بين الناس أمام القانون ، وفى تمتعهم بحق تولى الوظائف العامة ، وفى استفادتهم بالمرافق والمصالح والخدمات المتنوعة التى يؤديها المجتمع لابنائه .. فبالنسبة للوظائف العامة يضع الاسلام أصلا ، وهو أن الحاكم أو المسئول أو اى مؤمن ، يأثم اذا ولى احد الناس أمرا وفى الرعية من هو أصلح منه . هذه الصلاحية تختلف من مرفق الى مرفق ومن وظيفة الى وظيفة .

وهذه قضية هامة جدا فى تطبيق مبدأ المساواة ، فان مانعنيه ، ان المتساوين يعاملون معاملة واحدة ، ولكن الناس لا يتساوون تماما فى كل المواهب ، فأنت مثلا اذا اردت أن تعين مهندسا فالناس يتفاوتون فى صلاحيتهم لهذه الوظيفة ، أو اذا اردت أن تعطى معونة اجتماعية فالناس لا يتساوون فى استحقاقهم لهذه المعونة ، وانما يقضى مبدأ المساواة بأن تسوى بين المتماثلين وأن تفرق بين المختلفين .

ولذلك ، تطبيقا لهذا المبدأ حين يفاضل الاسلام مثلا بين الناس فى صلاحيتهم لامامة الصلاة ، فهو يراعى اعتبارات غير التى يراعيها فى اختيار الاصلح لامامة الناس اى لرئاسة الدولة وسياسة الرعية .. غير التى يراعيها فيمن يتولى القضاء وهكذا ، فنجد مثلا فى امامة الصلاة ، يؤم الناس أقرأهم واحفظهم للقرآن ، لان هذه الصلاحية لها دخل فى صلاحية آداء هذه العبادة أو أداء تلك الوظيفة . بالنسبة لسياسة الرعية وادارة أمور الدولة

يراعي فيمن يولى ان يكون له محبة وطاعة لدى قطاعات كبيرة من الرأى العام الى غير ذلك ، وهذا فى الحقيقة تفسير ما ذهب اليه كثير من العلماء فى العهد الاول فى اعقاب وفاة الرسول عليه الصلاة والسلام من اشتراط ان يكون الخليفة قرشيا .. لا لان قريشا افضل القبائل فذلك امر قد قضى عليه الاسلام حين جعل المسلمين سواسية كأسنان المشط لا فضل لعربى على عجمى الا بالتقوى وانما لان قريشا فى ذلك الوقت كانت لها مكانة أدبية وسياسية يظن معها ويرجح أن تطيعها اكثر القبائل ..

وهكذا فالاسلام يسوى بين الناس أصلا فى حقهم فى أن يتولوا الوظائف العامه وان يحصلوا على خدمات الدولة، ولكنه بعد ذلك يراعى ما بينهم من اختلافات موضوعية تتعلق بالوظيفة التى يطلبهم لها أو الخدمة الاجتماعية التى يريد أن يؤديها اليهم . وهذا امر هام لان التقسيم والتصنيف والمفاضلة على أسس موضوعية ليست فى الحقيقة اخلالا بمبدأ المساواة وانما هى اعمال له ، ولقاعدة العدالة بصورة اعم واشمل وأوسع .

● احمد فراج : فى مجال المساواة فى أداء الخدمة لعلنا نجد فى مجال التطبيق صورا عديدة يشتهر عندنا منها ما قاله عمر بن الخطاب رضى الله عنه « لو عثرت دابة فى العراق أو فى الفرات ، لوجدتنى مسئولا عنها يوم القيامة ، لم امهد لها الطريق » وهذا النص يبرز قضية هامة هى أن الدولة تقوم بأداء الخدمات على مستوى واحد من العدالة والكفاءة ، لا تميز بين مكان وآخر ، بين قرية ومدينة قريبة أو بعيدة ، بل ان الانتفاع بهذه الخدمات لا يقتصر فى الدولة الاسلامية على الانسان وانما يتعداه الى الدابة التى يعتبر الخليفة نفسه مسئولا عن تعبيد

الطريق لها حتى لا يساءل فى ذلك يوم القيامة .

كذلك هناك ملاحظة اخرى بمناسبة ما ذكره الدكتور كمال أبو المجد فى شأن امكان تمايز الناس فى مسائل الولاية أو الوظائف العامة .. فقد يكون هناك من هو أصلح فى عمل معين من غيره ، وقد يصلح هذا لما لا يصلح له ذاك . والمعيار فى التفاضل والصلاحيه معيار موضوعى بغض النظر عن مكانة الفرد او قربه من الحاكم ، كما يتمثل لنا ذلك عندما نرجع الى حديث لرسول الله قاله لابى ذر الغفارى نلمح خلاله أن أبا ذر تطلع الى ولاية معينة ، ورأى الرسول انه ليس لدى أبى ذر من الخصائص والمقومات اللازمة لهذه الولاية ما يجعله صالحا للترشيح لها ، فقال له « يا أبا ذر انها أمانة وانها يوم القيامة خزى وندامة ، الا من اخذها بحقها ، ووفى الذى عليه فيها » فالمساواة اذن فى مسائل الولاية أو الوظائف العامة ليست مطلقة أو حسابية .

● د . كمال ابو المجد : ولعل هذا فعلا يجمع فكرة ان التقوى التى هى أساس التفاضل ليست هى مجرد التفاضل فى أداء العبادة ، وانما هى تفاضل موضوعى .. أى تفاضل قائم على أساس متصل بالمشكلة التى ندرسها، ان كانت عبادة ، فالأتقى بمعني الاكثر عبادة أو الاقرأ للقرآن وهكذا .. ويكون هو الاولى . وان كانت ولاية عامة — كما فى الحديث الخاص بأبى ذر — فمعيار الصلاحية يختلف . وفى رواية اخرى للحديث يقول له « ان فيك ضعفا » فاذن ليس هو أصلح الناس او افضلهم لهذا المنصب بالذات كما قال الاستاذ احمد فراج ، فالمسألة مرنة ولكن جوهرها أن الناس أصلا يتساوون ، وانه لايجوز التمييز بينهم بسبب اللون أو الجنس أو الدين ، وانما يجرى التصنيف والتقسيم بينهم على أساس

صلاحيتهم الموضوعية واستحقاقهم الثابت فى الخدمة أو الوظيفة أو المزية التى تطبق عليهم ، وهذا هو المدلول الاعم والاوسع للمساواة .

● سؤال من الجمهور : استأذن فى القاء بعض الضوء عن موقع الديموقراطية من الاسلام .. يقال ان الديموقراطية عنوان على عدالة النظام ، فما معنى هذا اللفظ فى الاسلام ؟

● د. كمال أبو المجد : أنا أريد أن أبرز شيئا .. فى الحقيقة ، هذه الاصول التى تحدثنا منهـا وتلك التى نوشك ان نتحدث عنها بينها قدر من التداخل ، ففكرة الحرية فيها عنصر من عناصر المساواة لانك تسوى بين الناس فى ممارسة حريات وحقوق ، ونرجع اليهم باعتبار أصلهم الانسانى ، ثم فكرة الديموقراطية وما تقوم عليه مما هو معروف من مشاركة الناس جميعا فيها أيضا تسوية بينهم .. فى نشاطهم السياسى وفى مشاركتهم فى حكم أنفسهم ، الا أنه ونحن بصدد الحديث عن أمور سياسية ودستورية ، تشتغل البلاد كلها الان بالاعداد لها ، فنحن فى حاجة الى قدر كبير من الضبط ، اى نضبط حدود الفكرة التى نناقشها ثم نعرف مكانها فى الاسلام ، ونظرته اليها .

الديموقراطية كما هو واضح كلمة غير عربية .. هى كلمة من أصل يونانى تشير الى حكم الاكثرية أو حكم الشعب ، وهى بهذا تقابل وتختلف عن أنظمة أخرى يكون الحكم فيها لفرد أو جماعة او لطائفة ، فجوهر فكرة الديموقراطية اذن ، هو مشاركة الجماعة فى حكم نفسها بنفسها ..

الاسلام يعرف هذا الاصل ولكنه يعطيه مصطلحا خاصا هو مصطلح « الشورى » ، لانه يفترض ان الجماعة حتى

ينتظم أمرها لابد أن يكون لهـا أمين ، رئيس ، راع . والمشكلة حينئذ هى دور الجماعة فى اختيار هذا الراعى وفى مشاركته تبعات الحكم ، أى فى أن تشترك معه فى ادارة شئون الدولة . فالاسلام ينظر اليهـــا اذن من زاوية الشورى . ولا تغرنكم الالفاظ ، لان التاريخ الاسلامى حين يعالج الشورى سواء فى عهد الرسول عليه الصلاة والسلام ، أو فى عهد الصحابة ، كان يعالج تطبيق مبـدأ الشورى فى مجتمع بدائى من ناحية تركيبه الحضرى .. من ناحية تركيبه المدنى والاجتماعى . فاحيانا نرى ان الصورة التى طبق بها المبدأ فى عهد الرسول عليه الصلاة والسلام كانت صورة مبسطة ، فنتصور أنها شىء آخر غير الديموقراطية التى نراها هذه الايام منصوصا عليها فى الدساتير ، مقامة لها مجالس تشريعية ، تجرى لهـا عمليات انتخابية معقدة ، ولكن ينبغى ونحن فى مقـــام التحليل أن نضع أيدينا على جوهر المبدأ .

ماذا صنع الاسلام بمبدأ الشورى ؟ ..

اولا : قرره كاصل عام فى نصين قرآنيين ، يصف المسلمين بانهم « وأمرهم شورى بينهم » ثم يطلب هذا كواجب خاص على الراعى وهو رئيس الدولة فيقـــول « فاعف عنهم واستغفر لهم وشاورهم فى الامر » هذه كلها اجراءات اتخاذ القرارات ، لانه يضيف بعـد ذلك « فاذا عزمت » عزما من عناصره الشورى « فتوكل على الله » ولكن اجراء اتخاذ القرار تدخل فيـــه مشاورة الناس . الشورى اذن اصل من اصول النظام الاسلامى ، ولكنها شورى فى ماذا ؟ .. هى شورى فى عدة أمور ، فى مقدمتها اختيار الحاكم نفسه ، لانه بعد الرسول انتهت النبوة ، وكانت له مهمتان ، مهمة دينية هى التبليغ عن الله تبارك وتعالى ، وتعليم الامة شعائر وشرائع هذا الدين

القيم . المهمة الثانية : سياسة أمر المسلمين خصوصا بعد أن قامت لهم دولة وجماعة سياسية منظمة منذ عهد الهجرة الى المدينة المنورة ..

هذه الوظيفة الثانية ـ وهى سياسة أمر المسلمين ورعاية الدولة ـ يخلف فيها الرسول عليه الصلاة والسلام . على أن الخلافة لا تعنى صورة معينة من صور الحكم ، وانما هى تعنى مجرد تولى الامر بعد الرسول . والمعروف أن أبا بكر ما تولى بعد الرسول عليه السلام الا بعد محادثات ومشاورات ومناقشات فى سقيفة بنى ساعدة اقتنع معها الناس ـ بعد المداولة ـ بانه لا يصلح لهذا الأمر الا شخص من قريش تدين له العرب ، ورجل يتمتع برضى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وله صفات معينة تبين بعد المناقشات انها متوافرة فى أبى بكر . فكأن الذى حدث فى سقيفة بنى ساعدة ـ وان يكن مبسطا ـ من الشورى والتداول لاختيار الأصلح ، كذلك تعاقب الامر بعد أبى بكر حتى ان الفقيه المشهور ابن تيمية ـ وهو يناقش استخلاف أبى بكر لعمر رضى الله عنهما ـ يقول : ان أبا بكر انما رشح عمر للناس وأنه كان بوسع المسلمين من بعد أبى بكر أن يختاروا رجلا غير عمر ، ولو فعلوا ذلك لكانوا ممارسين حقهم .

وهذا المعنى الجليل كان قبل الترشيح ، ولكن القرار النهائى بقى بعد ذلك لاجماعهم .. وهذا المعنى بهتت بعض معالمه ، فانتبه وردهم اليه عمر بن عبد العزيز حين استخلف لخلافة المسلمين .. فصعد المنبر ، وخلع ما فى رقاب الناس له من بيعة ، وطلب اليهم أن يختاروا اختيارا جديدا مبتدأ انتباها وتنبيها الى أن هذا الأمر لا يكون الا عن رضا ، ولا يكون الا عن بيعة ، ولا يكون الا عن شورى . ولذلك كان الراجح المتعارف عليه فى الفقه

السياسى الاسلامى ان الامامة عقد يقوم على الرضى بين المرشح من ناحية وبين الامة من ناحية اخرى ، حتى اذا قضى وحكم ونفذ كان فى ذلك كله مستندا الى رضى الناس . وكان الناس حقا وصدقا يحكمون انفسهم بانفسهم ، هذا ما يعبر عنه الان بانتخاب رئيس الدولة أو كبار المسئولين فى الدولة .

بعد هذا اذا اختاروا حاكمهم تبدأ مهمة جديدة لهم، لان هذا الحاكم يصدر قرارات ويدير سياسة ، فى امور السلم والحرب ، الاجتماع والاقتصاد .. وكلها أمور تعود نتائجها على الرعية ، فغير معقول أن ينفرد بها .. لذلك شرع مبدأ المشاورة فى ادارة أمور الدولة . رسول الله صلى الله عليه وسلم ـ وهو المعصوم الذى لا ينطق عن الهوى ـ كان كما تقول عائشة « أكثر الناس مشورة » تقول : ما كان أحد أكثر مشورة من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكذلك كان أبو بكر بعده ، كان اذا عرض له امر نظر فى كتاب الله فان وجد شيئا قضى به ، وان لم يجد نظر فى سنة رسول الله فان وجد شيئا قضى به وان لم يجد سالهم : أفيكم من يحفظ فى هذا الامر شيئا عن نبينا ، فان وجد قضى به ، والا خرج وقال : أشيروا على أيها الناس ، فهذه الشورى فى ادارة أمور الدولة وسياسة شئون الرعية هى العنصر الثانى من عناصر الشورى بعد اختيار الحاكم .

● سؤال من الجمهور : هل الشورى التى تحدثتم عنها شورى الخاصة أم شورى العامة من الناس . مثلا ام بهم المسلمين .. هل كان الرسول يستشير خاصة الصحابة ام يجمع المسلمين كلهم ويستشيرهم ، وفى الوقت الذى تعيشه اليوم هل يصح أن استشير العلماء فى الامور التى تخص المسلمين أم أستشير عامة الناس حتى

فى الامور التى قد لا يفهمون فيها تماما ؟ ..

● د. كمال ابوالمجد : هذا سؤال مهم ، الشورى فى الحقيقة نوعان ، الشورى فى الامور الفنية والدينية .. وهذه لا رأى فيها الا لمن يعلم . وكما قلنا ان المساواة بين الناس لا تعنى ان يخوض كل أحد فيما لا يعرفه ، ولذلك كان الاصل « اسألوا اهل الذكر ان كنتم لاتعلمون» ولذلك ايضا كان للاجتهاد فى الاسلام شروط ، وليس كل أحد يحسن أن يفتى فى اى امر ، اما حين تتصل الامر باختيار الحاكم ، فالناس كلهم يختارون ، لان هذه المصالح تعم جميع الناس وتهمهم ، وحين يقتضى الامر تعرف رغبات الجماهير فى قضية عامة ، فهذه ايضا تستفتى فيها الجماهير ويؤخذ فيها رأى الناس جميعا ..

ولذلك كان الاسلام يعرف التمييز بين الفريقين ، أهل الحل والعقد ، وهؤلاء يشاورون فى المسائل الفنية ، واهل الشورى وهؤلاء يؤخذ رايهم فى كل امر . الان فى هذه الايام ، أيضا الامور الفنية تحتاج الى لجان متخصصة ، لذلك نجد فى الدساتير الحديثة أن هناك امورا يكتفى فيها برأى المجلس التشريعى ، وهناك أمور فنية تبت فيها لجان تنفيذية قد لا تكون منتخبة وانما هى لجان حكومية . وهناك أمور اخرى لايكتفى فيها برأى اعضاء مجلس الشعب وانما تطرح على الكافة فى استفتاء شعبى لانها تمس الناس جميعا وتحتاج الى أن يعرف الحاكم اتجاهات الرأى العام كله ..

فالجوهر أن الناس جميعا اصحاب حق فى حكم انفسهم ، ولكن هناك ثلاث درجات ، مسائل فنية خالصة يؤخذ فيها برأى الفنيين ، مسائل تشريعية يؤخذ فيها برأى ممثلى الشعب المنتخبين ، وبعض مسائل يحتاج فيها

الى معرفة رأى الكافة فيعقد لها استفتاء عام ..

روح الاسلام لا تنكر هذا ، وكما قلت لا تتوقعوا ان تجدوا فى السوابق الاسلامية كل هذه التفاصيل ، ولكن السوابق الاسلامية تؤكد وجود مسائل فنية تحتاج الى رأى أهل الفتيا ، ومسائل عامة تحتاج الى مشورة أهل الشورى . فهذا أصل يرتضيه الاسلام » وله تطبيقات ازدادت وضوحا وضبطا وتحديدا مع زيادة الحياة الاجتماعية تعقيدا وضبطا وتحديدا .

● أحمد فراج : يحضرنى هنا مثال اقطع فيه ابو بكر أرضا لبعض الناس بعد أن شاور من كان فى مجلسه ، ولم يكن فيهم عمر ، وامرهم ان يرجعوا لعمر فان اقرهم صارت الارض لهم . فذهبوا الى عمر الذى كان مشتغلا ببعض عمله فعاد معهم الى ابى بكر وساله عما اذا كانت الارض تخصه ، فقال ابو بكر : لا . فساله عمر : فهلا استشرت ؟ قال : نعم استشرت من حولى . قال : فهل هى ملك لهم . قال : لا هى للمسلمين جميعا . فقال عمر : فهلا أوسعت المسلمين مشورة ..

● د . كمال ابو المجد : وانا فى الحقيقة يحضرنى مثال آخر فى نفس الامر .. رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يستأذن الناس فى أن يحرمهم من شىء مما يستحقونه فى توزيع الغنائم ، فاستشارهم فقالوا : نعم . فقال عليه الصلاة والسلام : « لا ، انا لم نعلم من طاب منكم نفسا ممن لم يطب ، ارجعوا الى عرفائكم » اى لم يقتنع بهذه الموافقة المجلسية وانما طلب اليهم الرجوع الى قواعدهم الانتخابية ـ اذا صح هذا التعبير ـ ليأتوا اليه برأى أعم وأشمل .

الحكم فى الاسلام

● احمد فراج : بعد الحديث عن الحريات وعن الاخوة وعن المساواة بكل جوانبها وعن الديموقراطية ، ننتقل الى سيادة القانون . ففيمايختلص بسيادة القانون نود أن نعرف أولا : ماجوهر الفكرة فى نظر الاسلام ؟..

● د . كمال أبو المجد : سيادة القانون فى بساطة ، معناها أن أعمال الناس كلها فى الجماعة على أختلاف مسئولياتهم فى ادارتها وحكمها ـ ابتداء من أكبر كبير الى أصغر صغير ـ لا تكون صحيحة ، ولا جائزة ، ولا مشروعة الا بقدر اتفاقها مع القواعد العامة التى يعبر عنها بالقوانين ، والتى تعيش الجماعة كلها فى ظلها ..

فالجماعة تعتبر جماعة تعيش فى ظل سيادة القانون اذا كانت الكلمة العليا فيها لقاعدة عامة مقررة ومعلنة ويعرفها الناس ، وليست ارادة بشرية ترى شيئا اليوم وتعدل عنه غدا . هذا جوهر فكرة سيادة القانون ، وهذه الفكرة أصلها فى الاسلام واضح . الله تعالى حين أرسل رسوله محمدا عليه الصلاة والسلام ، لم يجعل من محمد النبى بارادته البشرية ـ الفردية ـ صاحب الامر والنهى فى جماعة المسلمين ، وانما جعل النبوة نفسها مقيدة بقاعدة تحكمها كما تحكم الناس ، هى نصوص القرآن الذى يوحى به وحيا الى النبى صلى الله عليه وسلم ، ولذلك

تقول الآية الكريمة : « وكذلك جعلناك على شريعة من الامر فاتبعها ، ولا تتبع أهواء الذين لا يعلمون » ..

فكأن الرسول عليه الصلاة والسلام ، والجماعة المسلمة كلها اقيمت على أمر مستقيم هو قاعدة عامة نزل بها الوحى ، ولم تنزل عند ارادة فرد ، ولو كان هذا الفرد هو محمد بن عبد الله .

ونجد توكيدا لقاعدة سيادة القانون فى اول وثيقة معروفة .. هى ذلك العهد الذى كتبه النبى صلى الله عليه وسلم حينما دخل المدينة المنورة ، وعقد اتفاقا بين اهلها وقبائلها ومن أقام معهم وجاورهم من اليهود ، فانه نص على القاعدة التى يرجع اليها اذا أختلف الناس فجاء فى هذا العهد .. « وأنه ما كان من أهل هذه الصحيفة من حدث أو اشتجار » .. أى مشاجرة « يخاف فساده ، فان مرده الى الله عز وجل ، والى محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وان الله على أتقى مافى هذه الصحيفة وأدق » .. فكأنه وضع قاعدة قانونية تحكم هذه الجماعة حين تختلف فى شىء ، وهذا تطبيقا لقوله تعالى .. « فان تنازعتم فى شىء فردوه الى الله والرسول »

هذا الرد الى الله والرسول هو احتكام عند الاختلاف الى قاعدة تحكم الناس جميعا فى الجماعة ، والمبدأ بهذا المفهوم ليس مبدأ نظريا ، وانما له فوائد محققة ، وأنا دائما أعتقد أنه بقدر معرفتنا بوظائف المبدأ يكون تمسكنا به ..

لماذا يقف الناس وراء المبدأ الديمقراطى ؟ .. لانهم يؤمنون بانه يؤدى وظائف تنفعهم فى معيشتهم . لماذا نتمسك اليوم بسيادة القانون ؟ .. لماذا يحرص الاسلام على اعتبار سيادة القانون اصلا من الاصول الدستورية ؟ لان هذا المبدأ يؤدى وظائف لابد أن نعرفها : الوظيفة الاولى انك

وأنت تخضع لقاعدة فى كل أمورك .. على مستوى مصنعك .. على مستوى مدرستك .. على مستوى وزارتك .. على مستوى الدولة كلها ، على مستوى اى عملية تجرى فى بناء الوطن كله ، فانت تطمئن انك وجميع المشاركين فى العمل تنزلون عند قاعدة ، فتكونون جميعا بمنجاة من أهواء البشر .. لانه لا بديل لأهواء البشر الا النزول عند القاعدة

الوظيفة الثانية أنك فى حياتك اليومية والمعيشية والادارية والسياسية ، حين تعرف وجود قاعدة عامة معلنة سلفا ، فانت تستطيع أن ترتب أمورك وأن تدير شئونك وأن تجرى مصالحك على أساس هذه القاعدة التى ستحكمك اليوم وغدا الا اذا غيرت ، أما حين تختفى هذه القاعدة ، فانت لاتستطيع ان ترتب أمورك لا فى معاشك ، ولا فى ادارتك ، ولا فى سياستك . فامكان الترتيب .. ترتيب الامور على أساس قاعدة معروفة هو النعمة الثانية من نعم مبدأ سيادة القانون ، ثم ان وجود القاعدة يكفل المساواة مادام المسئول فى اى قطاع من القطاعات ينزل عند حكم القاعدة ، فالناس بخير والناس باطمئنان لانه لن يميز بينهم ، يصدق هذا فى الامور السياسية وفى الامور المالية ، ولعل من تطبيقاته الهامة فى التاريخ الاسلامى مانسمعه من عمر وهو يتحدث عن تطبيق القواعد فى توزيع الاموال على الناس ، يقول عمر « والله الذى لا اله الا هو ، ما أحد الا وله فى هذا المال حق أعطيه أو منعه ، وما أحد أحق فيه من احد ، وما انا فيه الا كأحدكم ..

واسمعوا هذا .. فهذا مبدأ سيادة القانون .. « ولكنا على منازلنا من كتاب الله عز وجل ، وقسمنا من رسول الله صلى الله عليه وسلم .. فالرجل

وبلاؤه فى الاسلام ، والرجل وقدمه فى الاسلام ، والرجل وغناؤه في الاسلام ، والرجل وحاجته فى الاسلام » فعمر حين يوزع .. انما يوضح أن توزيع الاموال فى الاسـلام انما لاينفرد به المسئول يجريه يمينا وشمالا ، وانمـا تحكمه ضوابط ، يعطى أولا أكثر النـاس بلاء واجتهادا ثم يتدرج العطاء حتى يعطى صاحب الحاجة ..

هذه القواعد .. قواعد أقرها الكتاب وأقرتها السنة ، وهو مايعنيه عمر بقوله .. « ولكنا على منازلنا من كتاب الله عز وجل وقسمنا من رسـول الله صلى الله عليه وسلم » .. فهذا الترتيب لم يأت به عمر من نفسه ، ولم يتبع به هوى ، وانما الجماعة التى تعيش فى ظلال سيادة القانون تنزل عند حكم القاعدة فى أمور الاموال وفى غيرها .

● أحمد فراج : قلنا ان المساواة ليست مساواة حسابية وانما مساواة بين المتماثلين ، وأن هنـاك بعض الظروف الموضوعية التى قد تجيز نوعا من التفاوت بين الناس فى قضية المساواة .. فاذا ما أردنا ونحن نتكلم عن سيادة القانون أن نتذكر هذه القاعدة ، هل يمكن أن نتصور أن هذا التفاوت قائم ، أم هناك تطبيق عام .. هل ينسحب على سيادة القانون نفسه ؟

● د. كمال أبوالمجد : ان مبدأ سيادة القانون معناه أن القاعدة تطبق على الجميع ، هذه القاعدة نفسـها لاتخل بمبدأ المساواة اذا كانت تجرى تقسيما موضوعيا . ولذلك فالمثال الذى قلناه الان يؤكد أمرين : الأمر الاول أن عمر وأن أى مسئول فى ظل الاسـلام لايتبع ارادته وهواه ، وانما ينزل مع الناس جميعا عند حكم القاعدة .

ولذلك قال : « ولكنـا على منازلنا من كتاب الله ، وقسمنا من رسول الله صلى الله عليه وسلم » .. اذن

هو اتبع القاعدة .. القاعدة فى مضمونها وفى اعمالها على الناس ليست قاعدة عمياء ، تطبق أسلوبا أو معيارا حسابيا .. آليا ، ولكنها تدخل فى حسبانها الفوارق الموضوعية . فهذا العطاء لايذهب الى الناس على اساس مساواة حسابية ، وانما يدخل فى حسبانه غناء الناس للناس .. قدرتهم على النفع .. اسهامهم الفعلى فى النفع . ثم يدخل بعد ذلك فى حسبانه حاجة الناس ، لايعطى المستغنى كما يعطى المحتاج ، ولذلك بدأ بالتفاضل على أساس الجهد والعمل .. ثم وصل الى التفاضل والتمايز على أساس الحاجة . اذن هو يعمل بالقاعدة ، ولكن القاعدة قاعدة مبصرة تدخل فى حسبانها مايكون بين الناس من تفاوت ، وترتب عليه اختلافا فى المعاملة هو تأكيد لحكم القاعدة وهو نزول عند مبدأ المساواة وليس حكما

● أحمد فراج : فماهو الحال فى نصوص العقوبات مثلا ؟

● د. كمال ابوالمجد : فى حالة نصوص العقوبات ـ وهذا شىء مهم جدا ـ كان التشريع فى بعض الانظمة السابقة على الاسلام يشدد العقوبة على الضعيف ويخففها على القادر ، وكان هذا شذوذا . جاء الاسلام فنقضه ، لانه يميز على أساس موضوعى مفهوم ، فالآية القرآنية التى تتحدث عن نساء النبى عليه الصلاة والسلام .. وترتب حكما مؤداه أن من تأتى منهن بفاحشة لا قدر الله ، فان لها ضعفين من العذاب لماذا ؟ لان عليها مسئولية مجسمة مضاعفة بحكم أن الوحى ينزل فى بيتها ، وأن صحبتها لرسول الله صلى الله عليه وسلم اتم وأكمل ، فلما كانت مسئوليتها أكبر ، كان عقابها أشد . هذا تقسيم موضوعى منصف وعادل ، خلاف التقسيم العكسى الذى يستغل ضعف الضعيف

ليشدد عليه العقوبة ويستعمل معه القسوة ، انكرها الرسول صلى الله عليه وسلم حينما قال « .. انما اهلك الدين كانوا من قبلكم .. انهم كانوا اذا سرق فيهم الشريف تركوه ، واذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد » ...

● أحمد فراج : انما الاصل فى العقوبة المساواة ، فالجريمة الواحده مثلا لها عقوبة ، بغض النظر عن الاشخاص ...

● د. كمال أبو المجد : نعم ، الجريمة الواحدة لها عقوبة بغض النظر عن الاشخاص فى منازلهم .. فى ضعفهم وقوتهم .. فى جهدهم .. فى لونهم .. فى دينهم ، كل هذه الامور لا اعتبار لها فى نظر الشارع الاسلامى حين يتصل الامر باعمال القاعدة القانونية .. القاعدة الشرعية.

وتذكرون مثال عمرو بن العاص حينما ضرب ابنه ابن المصرى القبطى ، أصر عمر على أن ترد العقوبة الى ابن الامير هذا واصر على أن ياتى هذا القبطى وان يضرب ابن الاكرمين كما يقول عمر فى هذه الواقعة المعروفة

● أحمد فراج : حينما ناتى الى الضمانات التى وضعها الاسلام لتحقق سيادة القانون ، ماهى هذه الضمانات ؟

● د. كمال أبوالمجد : فى الحقيقة ان سيادة القانون فى الانظمة كلها لها ضمانات ، حراسة الناس لها ، وقيام القضاء العادل . وحراسة الناس للقاعدة فى تقديرى هى الاهم .. فكل الدساتير تنص على شىء شبيه بهذا ، ولكن الناس الذين تجرى عليهم احكام هذه الدساتير ان لم يكونوا مؤمنين بهذا المبدأ ، فلن يستطيع القضاء وحده أن يحميهم . ولهذا تحتاج الوثائق الدستورية دائما الى أن تشتمل على نوع من التربية السياسية حتى يعرف الناس قيمة المبدأ . القرآن الكريم ، والسنة النبوية حين

قررت هذه المبادىء .. ربت الناس عليها ، وعودتهم على احترامها ، وجعلت للرأى العام سلطانا كبيرا ، ولهذا نجد تشديدا دينيا كبيرا على الذين يتركون الامر بالمعروف والنهى عن المنكر ، لانهم لايرتكبون جريمة فى حق انفسهم ، وانما يرتكبون جريمة فى حق الناس . اذا ضاع سلطان الرأى العام .. سقطت سيادة القانون ، ولكن من الناحية العملية التطبيقية يحتاج الامر الى ضابط محدد .

بالنسبة للامر الاول نجد الحديث المشهور « اذا رايت امتى تهاب أن تقول للظالم ياظالم فقد تودع منها » .. لماذا تودع منها .. لان سيادة القانون فيها ستذهب ولن يكون لها قيام ، ولكن ننتقل بعد ذلك الى الضمان العملى التفصيلى ، وهو قيام قضاء يرد الامر الى نصابه ، كلما هم أحد فى الجماعة صغيرا أو كبيرا بانتهاك حرمة القانون ، والخروج على الدستور . ولهذا يجمع الناس – قديما وحديثا – على أن القضاء هو الضمان الفعال لتستمر الجماعة تحت ظلال القاعدة القانونية ، وفى ظلال مبدأ سيادة القانون .

ولهذا عنى الرسول صلى الله عليه وسلم منذ انتشر الاسلام على أن يرسل ولاة .. هم ولاة ومعلمون ، وهم فى نفس الوقت قضاة يفصلون فى القضايا ويعملون حكم القانون ، والواقعة معروفة حينما أرسل معاذ بن جبل الى اليمن ، أرسله لهم معلما وارسله لهم مبلغا .. وارسله لهم أيضا قاضيا ، وأكد هذا المعنى الأخير حينما سأله .. « يامعاذ اذا عرض لك قضاء فبم تقضى ؟ » .. قال : « بكتاب الله » .. قال فان لم تجد .. قال فبسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم . قال .. « فان لم تجد » .. قال .. « أجتهد برايى ولا آلو » .

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « الحمد لله الذى وفق رسول رسول الله صلى الله عليه وسلم بما يرضى الله ورسوله » ..

نستخرج من هذه الواقعة بان رسول الله عليه الصلاة والسلام عنى عناية خاصة بأن يكون فى الامصار قضاة يحملون ميزان العدالة فى حياد وأمانة وموضوعية وانصاف يعلو بهم صوت القانون ، ونجد ابتداء من عهد عمر أنه بدأ يخصص قضاة للأمصار ، فارسل شريح الى الكوفة ، وشريح من أكبر القضاة المعروفين ، وأبا موسى الاشعرى وهو أيضا من كبار القضاة العدول الى البصرة ، وارسل لهم رسالة لاتزال الى يومنا هذا صالحة لان تكون دستورا للقاضى فى سلوكه الذى يتحقق به الحياد ، وفى سعة صدره وسعة أفقه التى تتحقق بها فرص الاهتداء الى الحق ، لان ماهو القضاء ، وبماذا يمتاز القضاء عن أى سلطة ؟ يمتاز القضاء بأمرين : حياد القاضى ، أى انه لاينحاز الى هذا المدعى ولا ينحاز الى ذلك المدعى عليه . حتى ينصفه ينبغى أن يكون عادلا .. محايدا ..

الامر الثاني أن يفسح صدره لسماع ذاك الرأى وهذا الرأى ، وأن يقلب الامور ويعمل الفهم حتى يأتى حكمه مؤيدا العدل والصواب ، وشدد الاسلام وشدد عمر فى هذه الرسالة التى تعتبر دستور القضاء فى حياد القاضى ليس فقط فى المسائل الموضوعية وانما حتى فى المسائل الشكلية حتى يطمئن الافراد الى أن هذا القاضى يسوى بينهم ، فجاء فى هذه الرسالة .. « وآسى بين الناس » – أى سوى بينهم – « فى عدلك ووجهك ومجلسك » فهو لايعطى واحدا فرصة حديث أكثر من الاخر ، وهو لايقبل بوجهه مبتسما على خصمه ويشيح عن الاخر ، ولا يقرب

واحدا منهم من مجلسه ويترك الاخر واقفا فى آخر القاعة مثلا ، لانك اذا ميزت فى هذه الامور المظهرية تركت عند المتقاضين شعورا بانهم ليسوا أمام محكمة عادلة ..

الامر الثالث ان القاضي ينبغى ان يكون مصونا .. ينبغى ان يكون هو نفسه آمنا ، لان القاضى الذى يهتز تحته الكرسى فان العدالة لاتهتز فى نفسه .. فان القاضى لايعنيه ، وانما تهتز فى نفس المتقاضى .. فى نفس المدعى والمدعى عليه ، ولذلك نقول باصرار ويقول الاسلام معنا بروحه .. « ان استقلال القاضي هو ضمان المتقاضى » .. وحين تعنى الدساتير ، وحين نحرص فىهذا الدستور الجديد على توكيد أن القضاة غير قابلين للعزل ، وان القضاء سلطة مستقلة .. فنحن والاسلام معنا فى هذا ، لا نفرد القضاء بامتيازات ، ولا نخص القضاة بحصانات لاشخاصهم ، انما يفعل الناس ذلك ، ويفعل الاسلام ذلك ، وفى خاطره الجمهور .. ارباب القضايا .. المتقاضون الذين يستمدون عدلا وضمانا من استقلال القاضي ومن خبرته ..

ولذلك نجد مكانة القاضي فى الاسلام كانت مكانة كبيرة ، وكانت مسئولية جسيمة ، ولذلك اشفق بعض الائمة منها على أنفسهم .. ونحن نعرف محنة أبى حنيفة حين رفض القضاء ، ونحن نعرف كيف علم قضاة المسلمين ان قاضيا فى الجنة ، وقاضيين فى النار ، من شدة هذا الامر ، وما يتطلب فيه من عدل وحياد وحزم ، وارتفاع على كل مظان للهوى والخوف ، هذه طبيعة القاضى .

- والحقيقة ان المميز ليس القاضي وانما هو المتقاضى ، فهذا اسراف فى منح الضمانات للمتقاضى ، ثم هو تميز يقابله مبالغة فى التشديد والمسئولية فى الاختيار

وفى المساءلة ، لانه لايوجد لا فى النظام الاسلامى — ولا فى غيره — منصب يعفى صاحبه من المسئولية . القاضى عليه ان يمشى بالسيف والميزان ، واذا حاد كان لذلك جزاءات مقرره ومنظمة . الحقيقة القضاء فى الاسلام سبق سبقا بعيدا ، فلم يقتصر على الصور التقليديه ، وانما انشأ صورا غريبة ، وقضى فى أمور تلفت النظر ، الاسلام عرف نظامين شبيهين بالقضاء : وهذا توكيد لانه يقصد مصالح الناس .. يعرف او عرف ماسمى بوالى الحسبة ، المحتسب ، وهو نظام ليس قضائيا من كل وجه ، ولكنه يدخل فى حديثنا عن سيادة القانون .. موظف خاص ؛ والى من الولاة يجوب الاسواق ، ويتفحص مرافق الدولة حتى اذا وجد خللا اتصل بولى الامر لاصلاحه ..

ومن الغريب ان هذا النظام الذى استمده الاسلام انطلاقا من فكرة « الامر بالمعروف والنهى عن المنكر » .. وحفاظا على سيادة القانون ، وحرصا على اطمئنان الناس الى ان العدالة تاخذ مجراها ، وأن عين الدولة تراقب لتبحث عن الظلم فتقاومه ، وجدنا فى عصرنا هذا نظاما عظيم الشبه بنظام والى الحسبة تاخذ به دول الشمال فى أوربا يعرف باسم «نظام الرقيب البرلمانى» اذ يعين البرلمان شخصا تكون مهمته ان يفتش وان ينطلق مراقبا الادارة حتى اذا وجد فى أعمال الموظفين والادارة خللا أو ظلما او خروجا على القانون ابلغ ذلك للبرلمان ، واتخذت سلسلة من الاجراءات تهدف الى رد الامر الى نصابه ، فنظام والى الحسبة فعلا وبالامانة التاريخية من الانظمة التى سبق بها الاسلام .. نظام القضاء الادارى

● أحمد فراج : من الغريب ان هذا النظام ازدهر فى مصر بالذات ازدهارا رائعا ونحن الان لا نكاد نعرفه .

● د. كمال أبو المجد : رغم أننا نحتاج الى مثل هذا النوع من الرقابة . نظام القضاء الادارى الذى تسلط به فكرة سيادة القانون على ادارات الدولة نفسها ، والذى ينشىء لها فى الانظمة الحديثة نظــام مجلس الدولة ، عرف الاسلام شيئا شبيها به أو يدخل فى اطار نفس الفكرة العامة ، وهو نظام والى المظالم أو ديوان المظالم ، وجعل من وظائفه الرئيسية النظر فى شكوى العامة من العمال .. أى موظفى الدولة ، وهــو ما نســميه بالمصطلح الحديث .. « دعاوى الافراد ضد الموظفين العموميين »

الدكتور مهدى بن عبود

الاسلام ... ومشاكل الشباب

« ناهيكم بما ضربه الاسلام من مثل عجيب .. فانه رغم فقر الرقعة الارضية التى انطلق منها ، ورغم ضعف الوسائل العسكرية ــ أى الجيش ــ ورغم قلة عــــدده ، ورغم ضيق النطـــاق فى الثقـــافة فى ذلك الوقت فانه اجتاح فى فترة وجيزة رقعة الارض من الهند الى البحر الاطلسى كانه اعصار أيدلوجى »

● أحمد فراج : نرجو أن يتفضل الدكتور مهدى بأن يعطينا صورة للشباب المسلم ـ كما يراها ـ فى العالم الاسلامى كله ، بحكم أسفاره ، واتصالاته ، وقراءاته العديدة ، وكيف يرى هذا الشباب الآن ..

● الدكتور مهدى بن عبود : الشباب شغل شاغل للرأى العام العالمى ـ لا العربى أو الاسلامى فقط ـ ذلك بما وقع من عواصف ثورية على أيدى الشباب فى العالم بأسره فى القارات الخمس ، فى كوريا .. بالاطاحة بحكومة سيجمان رى .. وفى الولايات المتحدة التى كانت نقطة الانطلاق لحركة الشباب المتمردة على الاجيال السابقة . فى اليابان .. فى افريقيا .. فى أسيا الوسطى مثل تركيا مثلا ، وفى أوروبا على وجه الخصوص بعد الحوادث التى وقعت فى فرنسا قبل سقوط حكومة ديجول ، وفى ايطاليا ..

والعالم كما يقال اليوم هو رقعة من الارض واحدة فى مظهرها على وجه الخصوص ، وفى بعض جوانب جوهرها . الشباب بكيفية عامة يتميز بخصال حميدة ، وخصال أخرى ينبغى اصلاحها . الخصال الحميدة هى : الصدق فى الشعور ، والاستقلال من مؤثرات الجاه ومؤثرات المال نظرا لكونهم لايزالون فى طور التكوين .. والمستقل

من تأثير المال عليــه وتأثير الجاه عليــه يتمتع بفــكر يتميز بالشجاعة والاقدام ، وحتى بالوضوح فى بعض الاحيان ٠ الشباب المسلم يتأثر بغيره ، كما أن غيره يتأثر بما يجرى خارج حدود وطنه ، لكن الخصـــال التى ينبغى اصـــلاح بعض الجــوانب منها هى أن الشـــباب فى فترة الزمان المحدود ـ بين المراهقة والكهولة ـ ناقص الخبـــرة من ناحية ، ومن ناحية أخرى كلما كان ناقص الخبرة ٠٠ كان عنيد الفكر ٠

فمن الناحية الايجابية، الشباب صادق وفكره مستقل ٠ ومن ناحية أخرى سـلبية الشباب فى نقصـــان اختباره وتجاربه الى أن يصل الى طور الاربعين ، وهذا شيء معقول ومنطقى ٠ الشباب فى العالم اليوم ، كما تعلمـــون وكما سمعتم أكثر من مرة ، يمر فى هذه الحقبة من التاريخ التى نعيشها فى النصف الاخير من القرن العشرين بطور يتميز بالقلق أو ببحث الانسان عن نفسه ٠

وهذا القلق متأصل من الاجيال السابقة التى مرت عليها غطرسة بعض الاشياء فى القرن الثامن عشر والقرن التاسع عشر ، والنصف الاول من القرن العشرين ٠ الغطرســـة الاولى أو السيطرة الاولى هى الغرور ، الغرور أولا بالمال ، وثانيا بالجاه ، وثالثا بما يسمى بالعلوم (بالجمع) ، كالكيمياء والفيزياء أو العلوم الصناعية التى أدت بالانسان إلى نوع من القوة اغتر بها ، وظن ان هذه القوة وهـــذه العلوم تحل محل العرفان الذوقى الروحانى ٠٠ الذى عليه وحده يقوم أساس الشخصية البشرية ، فيما أنه وقـــع اختلاط فى الذهن البشرى خصوصا فى الغـــرب بين ما يسمى بالمعارف الصناعية والمعـــارف العرفانية ، أصبح الانسان يدور فى حلقة مفرغة ، لانه بغروره معتد بنفسه كأنه حصل على آخر مرحلة من المعرفة الانسانية ، غافلا عن

القاعدة القائلة .. « بأن فوق كل ذى علم عليم » .. وأن العلوم تطور ، منها ما يصلح نفسه ، ومنها ما يلغى ومنها ما يضاف اذا كان ايجابيا ثابتا ، وأدى به هذا الغرور الى فراغ معنوى .

وهذا الفراغ المعنوى له جانبان واضحان : الجانب الاول هو أن المسئول عنه هيأه لنفسه ، والجانب الثانى هو أنه وقع شىء من الدس المقصود من الحركة الصهيونية فى العالم ، التى آلت على نفسها أن تروج فى العالم أفكارا تقول هى بنفسها .. « نعلم بأنها خاطئة ، وبأنها مضرة » .. وأننا سنروجها فى العالم لنستأثر بالحقيقة الواحدة التى ينبغى أن يتميز بها شعب الله المختار .. ودفعوا الناس الى الفكرة العلمانية على شكل مذاهب ، الى حد أن واحدا منهم واسمه « كادمى كوهين » فى كتاب عنوانه « الرحل » يصف فيه الجنس السامى ويركز على القسم اليهودى ، يقول بكل اعتداد بالنفس ما ترجمته حرفيا :

« ان اسم تروتسكى واسم روتشيلد يمثلان تموجات العقلية اليهودية . بين هذين المعلمين تتقمص الجماعة كلها فى القرن العشرين والحضارة كلها فى القرن العشرين » ففى هذه الحلقة المفرغة التى يخلط فيها الانسان بين المعارف الصناعية التى تصله حتى الى القمر ، وبين المعارف العرفانية التى تقوم بها شخصية الانسان الايجابية .. المطمئنة الشجاعة المملوءة بالخصال الحميدة المعنوية ،والتى تجعل من الانسان عالما بموقعه فى الوجود لا من ناحية تكريمه ولا من ناحية تواضعه ، فى هذا التخليط ، لم يترك السلف للخلف الحاضر الا الفراغ المعنوى بشهادة كاتب بلجيكى يقول فى أحد كتبه : « الانسان المعاصر لا يفكر ، أو انه لم يفكر بعد ولكنه يعلم كثيرا » .

وهنا نرى فى القسم الاول من شهادته ، الفراغ المعنوى .

نظرا للغفلة عن المعارف العرفانية ‥ الذوقية ‥ المعنوية ‥ الروحانية ‥ وعن المعارف الصناعية من علم الرياضيات الحسابية الى علم النبات مثلا ، فالشـــباب ورث الفراغ وتمرد ، وعندما تمرد تمزق باطنه وأصبح يشعر بالشقاء، لانه أشرك . فالجيل السابق أشرك ، فلم يترك الا الشقاء المعنوى للخلف .

ما معنى أشرك ؟ المعنى أنه بدلا من أن يركز نفسه على وحدة الحق التي يستقى منها وحدة العقل - ومنها وحدة الروح ووحدة النفس - والمســـاواة بوحـدة النفس فى الحقوق والواجبات ، ووحدة الانسانية بالغـــاء العنصرية والغاء الفوارق الى غير ذلك ، اشرك ‥ فعوض هذه الخطة ، وهى مايسمى بالعبادة (لان لفظ عبادة بمعنى عبد اى عرف ، « ماخلقت الجن والانس الا ليعبدون » ‥ بمعنى الا ليعرفون بناء على الحديث القدسى القائل ‥ « أحببت ان اعرف ، فخلقت الخلق ليعرفونى » ‥) فهذه المعارف العرفانية الغيت وأشركت أن خلطت ، ودخـل التخليط والتعكير فى صفو العرفان الموحد ، أولا بالمال ‥ فلم يعبد العجل فى أى زمان من الازمان مثلما يعبد اليوم ، آما اسمه باسم المال ‥ باسم النقود ، واما اسمه باســم الترويج الاقتصادى الى غير ذلك ، أو بالرايات والوطنيات ، فترى فرنسا تحارب ايطاليا جارتها على الايمن ، أو بريطانيا فى ايام نابليون ونلسون . فأصبح الناس فى شقاء اجتماعى بعد الشقاء المعنوى بالحروب والتهافت على أشياء يظنون بأنها منبع الســـعادة ، وهى فى الحقيقة ما هى الا منبع الرفاهية فقط . وشتان ما بين الرفاهية عند المريض ‥ والسعادة والصحة والسلامة عند الفقير ، فأصبح هـذا الباطن ممزقا ، للاشراك . وأصبح الانسان يرى فى نفسه أنه غريب على وجه الارض او كما يقول أحد فلاسفة الغرب

« انه ملقى به على وجه الارض » .

وهذا المعنى مصور بكيفية بديعة فى قول الله تعالى .. « ومن يشرك بالله فكأنما خر من السماء » . (أى ملقى به على وجه الارض) .. متلوف وممزق « فتخطفه الطير » .. وهنا التمزيق والشقاء الباطنى .. « أو تهـوى به الريح فى مكان سحيق » .. يشعر بالغربة فى هذا الوجود

.. بالاغتراب وأصبح الشباب يتمرد ويتمرد وهـــو فى الفراغ ، فيخرج من دور وتسلسل الى دور وتسلسل .. ومن فراغ الى فراغ ، نظراً لكونه لم يهتد الى شىء وهو آنه كما أن العلماء يقولون عن الطبيعة انها تنفر من الفراغ، كذلك القلب العرفانى الانسانى ينفر من الفراغ ، فلا بد له من عقيدة تملؤه وتسير به ، وتجعله يقلب الجبال .

فنرى اليوم بأن العالم بأسره متخلف ، منه مثلنا من هو متخلف ماديا ومعنويا ، فلا هو بمتاع الدنيا ، ولا هو بخير الآخرة ، نظراً للحساب المنتظر بعد القبر . وقسم يتمتع برفاهية الدنيا ، ولكنه فى شقاء باطن الى حد أنه قيل عن الأمم الاسكندنافية التى تعيش فى رغد ، وفيما يســـمى بالديمقراطية ، وفى مساواة فى الواجبات والحقوق ، يقال عنهم .. ان أرقى الناس أشقاهم ، بكثرة الانتحار ، وكثرة الهم والغم واطفاء لهيب الهم والغم بالمسكرات ، والادمان على المسكرات ، والانسياق الى المستشفيات العقلية .

ومن الغرب ما يشاهد فى شباب اليوم التقليد الاعمى . فعندما يطول الغرب الشعور ، نطول الشـــعور ، وعندما يقصرون السراويل ، نقصر السراويل .. الى غير ذلك ، مما يدل على عدم النضوج وعدم التمتع والاتصاف بأفضل خصلة يتصف بها الانسان وهى استقلال العقل ، فى مقابل حرية الفكر المدسوسة فى هذه الاديان ، وهذه العقائد .

فواجبنا اليوم هو أن نرى أولا كيف هو شباب العالم الاسلامى والعربى • فيه المقلد ، وفيه المتحفظ ، وهــذا المتحفظ هو رصيد لاصلاح حال المقلد ، وانتشاله من هذا التقليد الاعمى ، فصورة الشـباب الاســلامى اليوم هى صورة غير متجانسه لان ما يمزق رقعتها هو التقليد ،ومن أغرب ما يرى هو أنه اذا أخذنا الفترة التى تتراوح ما بين العشرينات حتى اليوم ، نرى أنه مرت على ما يسمى بمبدأ « الوطنيـــات » أو « القوميـــات » دس لتمزيق رقعــة الامبراطورية المجرية النمساوية ، وخلق وحــدات فيها ضعيفة نظرا للقوة التى كانت عند المجموع ، فكان الناس ينادون كذلك ـ على اساس ان هذا تقدم فى العقـــل البشرى ـ بالقومية والوطنية ، فلما جاءت القمصـــان الحمـــر .. جاءت القمصـــان الحمر عنـــدنا . ولما جاءت القمصان الصــفر ، جاءت القمصـــان الصفر عندنا ، ثم كان الكتاب يقولون بأن الادب القـديم يتطرق اليه الشك ، فقلنا كذلك بأن الادب القـــديم يتطرق اليه الشك ، الى غير ذلك • الشـــباب لازال يقلد ، ولو قرب سنه من سن الاربعين ، وهى سن النضوج .

ثم القسم الايجابى منه هو أن هذا الشباب ينبغى ان يفهم بأن له دوراً كبيرا يلعبه فى هذه الدنيا .

● أحمد فراج : ظهرت فى مطلع حياة الامة الاسلامية حضارة فريدة من نوعها فى تاريخ الحضارات ، والذى يهمنا أن نلتفت اليه ، ونؤكد عليه فى هذا الصدد ، هو الدور الذى قام به الشباب فى صنع هذه الحضارة • كيف يمكن أن يقوم الشباب مرة أخرى ، وهو كما قلنا فى البداية مستقبل الامة ، بالمشاركة فى صنع حضارة جديدة تقوم فيها العقيدة بهذا الدور الذى يملأ الفراغ ، والذى يشبع الخواء الروحى .

● الدكتور مهدى بن عبود: الحضارة أسلوب حياةوعيش كما أن الثقافة أسلوب تفكير • فالثقافة بالنسبة للحضارة كالروح بالنسبة للجسد ، والحضارة بالنسبة للثقافة كالمظهر بالنسبة للجوهر • الحضارة الاسلامية قامت على الرجوع الى الطبيعة الفطرية للانسان الضاغطة على العقل بالاتجاه فى طريق المعرفة •• المعرفة الصادقة •• الشاملة العالمية •• والجامعة المانعة فى نفس الوقت ، والحضارة الشاملة التى هى فى نفس الوقت الجامعة المانعة هى الحضارة التى توفرت فيها شروط الايجاب ، ونهضة الانسان وإعلاء شأنه ، وبناء ما ينبغى أن يحتاج له فى هذا الوجود لا من ناحية الروح ولا من ناحية النفس ولا من ناحيةالجسم ، وهذا ثالوث يقوم‌عليه بناء الانسان‌من:

أولا : عرفان •

ثانيا : سلوك فردى •

ثالثا : سلوك مجتمع •

رابعا : تدبير سياسى من حكومة ودولة مع الفارق بينهما •

خامسا : سياسة اقتصادية •

سادسا : سياسة أخلاقية من المعاملات فى طريق الاحسان •

سابعا : نظرة الشمول للانسانية بتقديم السلم على الحرب ، والمسالمة على العدوان ، والمساعدة على الاثرة والانانية ، وجعل الناس دائما فى اطار أنهم خلقوا من نفس واحدة ، فمن قتل نفسا فكأنه قتل الناس كافة ، ومن عمل خيرا فى نفس فكأنما أسدى الخير الى الامة الانسانية بأسرها •

وأخيرا : تعلقه بالعلم الذى يرجع الى النقطة الاولى وهو العرفان الذوقى مع العلم العقلى •• وتقفل الدائرة •

هذا هـو المذهب أو الايدلوجية أو المظهر والجـوهر الحضارى فى نفس الوقت الذى يعلو بشأن الانسان ، ويجعله يسرع فى طريق النهضة لمن كان فى مؤخر الركب كما هى حالتنا فى مختلف أقطارنا ، هذه النهضـة قامت أولا على يدى رجل وصل الى سن الاربعين ، وتعداها حتى يكتمل تكوينه السامى وهو سـيدنا محمد صلى الله عليه وسلم ، ومعه جيش من الشـباب ، عمر على كان معروفا وعمر الصحابة فى صدر الاسلام الاول كان معـروفا الى حد أن الرسول عليه الصلاة والسلام صرح به فقال ٠٠ « جئت بالحنيفية السمحاء فحالفنى الشـباب ، وخالفنى الشيوخ والكهول » ٠٠ فكأنه كان هناك نوع من سـوء التفاهم والتقصير ، بل كان حتى من العشيرة ليس من يخالفه فقط ٠٠ بل يعاديه ويتهجم عليه ،فنفس الشىء يقع اليوم، لان هناك تشابها فى جوهر الحضارات مع الاختلاف فى مظاهرها ، جوهر الحضارات هو قيام الحياة الانسانية فى اختلاف أنواعها الروحانى والنفسانى والجسمانى على الحق، والحق فقط ، اما جزئيا أو كليا ، وجزئيا بمعنى اتبـاع الاخلاق والجد والاجتهـاد والبحث العلمى ، فمن كانت هجرته الى دنيا يصيبها سواء كان مسـلما أو نصرانيا أو ملحدا ٠٠ أو مجوسيا ٠٠ أو كيفما كان ، فهذا الحديث يطبق عليه ، أى اتجاه الهمة ٠

اليوم نرى بأن هناك تشابها فى الجوهر مع الاختلاف فى المظهر ، الجوهر هو أن الانسان اليوم يعيش فى فراغ بشهادة الاوربيين أنفسهم ، يبحثون كما يقول ، « هلد » ٠٠ وتوينبى وسوروكين وكيزرلنج عن شىء جديد يكمل ما يشعرون به من نقصان ٠٠ عنـدهم الرفاهية والصناعة ، ولكنهم يشعرون بأن صرح المجتمع ينهار شيئا فشيئا الى حد أن « كيزرلنج » يقول : « لسنا فى حاجة الى ان ينبئنا

شبنجلر في كتبه بأن الغرب ينهار » فهم يشعرون اليوم بنوع من الظلام . ما معنى الظلام ؟ هو طمس البصيرة رغم القوة ورغم الجاه ورغم المال .

في ذلك الوقت .. قبل الرسول عليه الصلاة والسلام كان ظلام ، وهو قيل له .. « وما رميت اذ رميت ، ولكن الله رمى ».. لان ما أتى به معصوم عن الخطأ ، فلابد أن يتصف بشيء فوق العقل ، هو نبراس الشرع ، والشرع هو عصمة العقل من الخطأ ، ولكن العقل وحـــده معرض للخطأ فلابد له من شرع كما يقول الاصفهاني في تفســير النشأتين ، اما ومعه جيش الشباب الذي يتصف بالخصال الايجابية وهي : أولا ، الاقدام والشجاعة .. والتشبث بالمبدأ . وثانيا ، عدم الخوف الذي يتسرب الى الانسان من ضياع المنصب وضياع المال وضياع الجاه والاولاد .
اليوم نفس الشيء ، لابد من جوهر لقيام حضارة جديدة للانسانية بأسرها ، لان الانسانية ان اختلفت في توزيع الرفاهية بين الناس ، فانها ائتلفت في الطبيعة المشتركة وهي الفراغ المعنوي المؤدي الى الشقاء المعنوي النفساني ، فاذن الجوهر هو هذه الثقافة الجديدة المبنية على العقل ، وعلى ما هو فوق العقل ، لان العقل معرض للخطأ ،فينبغي فرضا ومنطقا أن نفكر في شيء آخر هو فوق طاقاتنا ،لان

الانسان في نفس الوقت مسير ومخير ، فالقسم الذي هو مسير فيه هو جسمه من ناحية ، وهو ما فوق طاقة عقله كالحياة وكالموت .. وكنظام الكون الذي لا يمكن أن يغيره فيرد الليل نهارا ، والنهار ليلا ، ويجعل الشمس تسبق القمر ، فالعالم منظم ، وهذا فوق طاقة العقــل البشري ، فاذن ـ فرضا ومنطقيا ـ اذا أراد الانسان أن يخرج من طور التسلسل وهذا الفراغ ، ينبغي أن يفرض وجود الوحي ، والوحي وحده .. فنرى الفلسفات تتضــارب والمذاهب

السياسية تتطاحن وتؤول دائما الى الحروب ،والاقتصاديات افظع واشنع وكلها دائما فى تغير ، لانها دائما تعمـــل تصـــميمات وتراجعها ، وترى بأن قضية الربح هنـا ، وقضية التضييق هنا الى غير ذلك ينبغى أن تنفرج شيئاما .. وغير ذلك مما يطول شرحه ، فالحضارة اليوم ينبغى ان ترتكز على شيئين : الشىء الاول وهو الجوهر ،الثقافة المبنية على العقل والوحى» والشىء الثانى هو مظاهرالبناء وهو جسم هذه الثقافة ، وهو ما يسمى بالحضارة ، ولابد لها من عقل مفكر .. وجيش يتبعها من الشباب كما كان فى صدر الاسلام ، لان صدر الاسلام ولو لم يكن الانسان مسلما يتخذه كنموذج تاريخى .. لفترة فريدة فى نوعها

يقول « جيل رومان » ــ وهو الكاتب المشهور بتمثيليته « دكتور كنوك » ــ فى كتاب اسمه « المسألة رقم واحد » : ان الغرب فى دمار وينهار ، وهو ينهار نظرا لفقــدان ايدلوجية ثابتة ، لان الايدلوجيات كما يقول تنتشر .. تنطلق وتعدى ، ويقول « .. ناهيكم بما ضربه الاسلام من مثل عجيب » ، فانه برغم فقر الرقعة الارضية التى انطلق منها ، ورغم ضعف الوسائل العسكرية .. أى الجيش ، ورغم قلة عدده ورغم ضيق النطاق فى الثقافة فى ذلك الوقت ، والامية ورغم الوسائل الاقتصادية ، ورغم المعارضة التى واجهته من الوسائل الاقتصـــادية الضخمة فى البلدان الاخرى ــ يعنى الـــروم وفارس ــ والمعارضة العسكرية العظيمة فى البلدان الاخرى يقول .. « اجتاح فى فترة وجيزة رقعة الارض من الهند الى البحر الاطلنتيك فى مسيرة كأنه اعصار ايدلوجى » .

فاليوم نفس الشىء .. يشعر المخلص ، والباحث عن الحقيقة بكل نزاهة ــ لان من اوصاف الفكر العلمى اربعة اشياء : حب الحقيقة ، والغاء الشهوات ، والنزاهـــة

والانصاف يشعر بأن العالم اليوم بحاجة ماسة الى ايدلوجية، رغم كون لفظة العقيدة هي أعمق وأثبت من هذه اللفظة التى جاءت فى أطار القرن التاسع عشر والعشرين .. الجاف من المعارف العرفانية ، والذى كان يمج كل لفظة وكل عبارة فنية تدخل فى قاموس المعارف العرفانية ، فكان يعوضها بألفاظ دخيلة لا توافق ولا تفارق . وهذه الفترة التى نعيش فيها من المستحيل عقلا .. ولا نقلا ،لابشهادة التاريخ ولا بشهادة منطق العقل ، يستحيل أن نخرج منها مالم نرجع الى الطبيعة البشرية ومتطلباتها .

الطبيعة البشرية مبنية على ثلاثة أشياء : الرغبة الملحة الروحانية للاطمئنان والنور ، فتخرج النفس فى بطن أمها، من الحياة النباتية .. الجنين .. هو كالنبات لانه يستقى حياته من أمه ولا يتحرك ، يخرج من حياته النباتية الى حياته الحيوانية كرضيع الى حياة يستأثر فيها .. ويحب التملك فيها ، ويحب السيطرة على الاشياء فيها ، ويعتدى على الطيور الضعيفة ، ويعتدى على الصبيان .. النفس الامارة.. ، ثم ينضج بعد ذلك فتكون النفس اللوامة ، ثم يرقى ويتحد العقل والقلب فيه ، فتكون النفس المطمئنة ، ويشعر فى ذلك بمرحلة أعلى من ذلك .. كلها رضى بهذا الوجود .. ونظامه وابداعه وجماله ، ومنع اليأس فيه كانه حرام ، لان اليأس وصفه الله بأنه لا يتخذه الا القوم الكافرون والظالمون والقانتون فى نفس الوقت ، ثــلاثة أشياء فيكون راضيا ، ويشعر بأنه مقبول هو فى هــذا الوجود .. داخل فيه .. ليس بغريب عنه ، لا فى مكان سحيق ، فهى نفس مرضية ، ثم تصل الى نوع من الاشراق عند خواص الناس فى القدسية ، ثم تكتمل فى شخص واحد متكاملة .. عليه الصلاة والسلام .

فهذه الحضارة كما قلنا من الذوق ، لان الانسان ليس

له وقت كاف فى حياته للاحاطة بكل شيء علما ، فلابد له من الايمان ، والايمان عملية «ضروريه» كأنها القوت للمعدة ·· ضرورية للمعرفة كيفما كانت أنواع المعرفة فالكيمياء تبدأ بالفرض ، والرياضيات دائما تبدأ بالمسلمات، والاخلاق تبدأ دائما بالمعتقدات ، وهو ايمان كذلك ، والنظرة الكونية الشاملة التى ترجع الى طبيعه العقل وهو فى اوله وآخره موحد ، لانه يريد ان يرى الاشياء فى معنى واحد ·· فى وقت واحد ·· هو الايمان ، بدونه لا يقوم صرح الوجود ··

وبدون الايمان بخالق اسمه الله ، تبقى الحياة لا معنى لها ، وندخل فى الفلسفة الوجودية الملحدة التى تقول ·· « بأن هذا العالم كله هباء لا معنى له » ·· ولا يدخل فى هذا النوع من التفكير الا من ألغى فكرة الايمان مسبقا ، ودخل فى مرحلة أخرى فى الفلسفة ، فكان كالرجل المقطوع القدمين ، فاذا هذه المدنية التى هى مرتقبة فى المستقبل والتى نحن فى أشد الحاجة اليها ، لان الحياة كلها جهاد ، جهاد عسكرى هو الجهاد الاصغر ، وجهاد مدنى هو الجهاد الاكبر ·

***

الحياة من أولها الى آخرها صراع وجهاد ، وهذا الصراع سريع ·· لا ينتظر ، فلا بد له من نقطة الانطلاق وهو الإيمان ·· وهو المعارف العــــرفانية ، ولابد أن تكون معصومة من الخطأ ، اذن فرض الوحى ضرورى ·

بجانب هذا ينبغى فى هذه الحضارة قانون معين مخصوص مفصل لسلوك الفرد ·· هو الاخلاق ، وسلوك المجتمع هو الاخلاق الاجتماعية والاعراف المقبولة والقوانين الشرعية ، ثم سياسة اقتصادية كى لا تنقلب الاوضاع ويصبح السيد مسودا والعبد سيدا ، المال خلق عبدا للناس ·· لا سيدا

للناس ، خلق لكى يكون رمزاً شريفا لاشرف شىء بعـــد العبادة وهو العمل ، خلق ليكون نموذجا يتعامل به الناس بدلا من عرق جبينهم ، فينبغى لهذا المال أن يتصرف فيه الانسان ، لا أن يكون هذا المال يتصرف في الانسان ،

وهذه هى السياسة الاقتصادية الاسلامية،وسط،ولايملكه احد ؛ فالمال لله والملك لله ، والحكم لله . ثم سياسة من حكومة ودولة ، الدولة مستخلفة ، والحكومة أمر الناس شورى بينهم بكيفية ملحة لان مبدأ الشورى أكد عليه الله سبحانه وتعالى بكيفية شديدة العنف فى وقت كان القائد مصيبا كما هى العادة ، والاتباع فى خطأ فى غزوة احد فرغم اخطائهم نزلت الاية .. « فبما رحمة من الله لنت لهم ، ولو كنت فظا غليظ القلب لانفضوا من حولك ، فاعف عنهم ، أنت كبشر » واستغفر لهم « ربك ، فانه رحيم .. مستعد .. يجيب دعوة الداعى اذا دعاه ، « وشاورهم فى الامر » رغم أخطائهم لتكون السنة النبوية نبراسا يتبعها الناس على مر الاجيال .

***

وعندما يؤكد علماؤنا على الايمان ، يقول الناس : هؤلاء تعلموا الكتب الصفراء فجاءوا يتفقهون بها على الناس. الايمان هو صرح كل شىء ، فبدونه تصبح الحياة عبثا ، ونرجع اليه فى السياسة الدولية ، لان الايمان مع الشرك كأنه كفر ، والايمان مع الوحدة موافقة ومطـــابقة للعقل مع الواقع النفسانى والروحانى ، فوحدة الله منها وحدة الروح التى نفخ فيها فى سائر البشر .. لا فى الشعب المختار فقط ، ومنها وحدة العقل لتشابه الافكار بين الناس ، وإلا استحال التفاهم بين الناس ، ووحدة النفس الانسانية ليقـــوم صرح المسئولية والواجبات ، ويكون الناس ســـواسية كأسنان المشط ، ويكونوا سواسية فى الســـلم لا فى

الحرب ، وأذا كانت الحرب ، فما كان حراما يصبح حلالا مثل القتل دفاعا عن النفس ، وهنا نرى أن صورة النفس الانسانية التى ما اختلفت فى أجناسها والوانها الا لتتحد فى التعارف ، أمة واحدة ، وانسان واحد ، وهذه هى عظمة المذهب والايدلوجيه الاسلامية ، وهنا نرى بأنه حتى فى الاختلاف هناك تعارف « شعوبا وقبائل لتعارفوا » ثم اذا كان هناك طريق فهو فى العظمة الروحـــانية فى التقوى •

ولكن هذه السياسة كلها ، والاخلاق وسلوك الفرد والجماعة والحكومة والدولة تنهار مالم تستمر بمساعدة العلم كل يوم لان « فوق كل ذى علم عليم » •• معناها بأن العلوم تنمو دائما وتصلح نفسها بنفســها الى حـــد بأنكم الان عندما تفتحون كتابا للرياضيات •• للحساب كل واحد منا لا يستطيع أن يقرأه ، فالحساب الجديد وهو حساب المجموعات مخالف للحساب القديم الذى كنا نتعلمه فمن قبل كان من المستحيل أن تجمع بين قلمين وحذائين، فنقول أربعة ، وما هم الاربعة ؟ ولكن اليوم تجمع بين قلمين وبين حذائين فى مجموعتين صغيرتين داخل المجموعة الكبيرة بينهما ترابط يسمى « تطبيق » • فحتى العلوم تتغير ، ويصبح الانسان ليكون فى هذه الايدلوجية فى هذا المذهب العظيم •• ما يســـمى « الجملة المفتوحة » فهى مفتوحة لان الناس شورى ، والامر شورى بينهم •• حرية مطلقة •• حرية فى التقدم •• حرية فى التفكير •• حرية فى التعلم •• حرية فى الناس بعضهم وبعض ، حرية فى أن يكون الانسان أسود وأن يكون أبيض •

***

الاسلام من رأسه الى قدميه هو مذهب الحرية ، والحرية هى الاستغناء عن كل ما زاد عن الحاجة • هذا ملخصها فى

الاسلام •• فاذن نرى بأن الجوهر هو ألبحث عن الحق والخضوع الى العقل لكى لا يكون الانسان منافقا ومداريا والخضوع الى الحق •• هو آسلام الوجه للحق ، واللفظة الفتية لهذا المذهب اسمها •• آلاسلام •

الدكتور عبد العـزيز كامل

الشيخ محمد متولى شعراوى

من وحى الهجرة

كانت الشهور تنقضى على صاحب رسالة الحق وهو فى مهاجره بالمدينة ، فهل يترك الباطل مطمئنا فى مكة ؟ وفى جزيرة العرب ؟ وفى المجتمع الانسانى؟

لقد كان الحق والبـاطل فى حالة حرب ، وان اضطرار الرسول صلى الله عليه وسلم الى الهجرة فى سبيل الدعوة ، كان بذاته ايذانا من المشركين بقيام حالة الحرب بينهم وبين الاسلام .

روى سعيد بن جبير عن ابن عباس أن النبى صلى الله عليـه وسلم لما خرج من مكة ، قال أبو بكر : « أخرجوا نبيهم انا لله وانا اليه راجعـون ، والله ليهلكن » قال ابن عباس : فنزل قول الله تعالى « أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا ، وأن الله على نصرهم لقدير ، الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق الا أن يقولوا ربنا الله ، ولولا دفع الله النـاس بعضهم ببعض ، لهدمت صوامع وبيع وصلوات ومسـاجد يذكر فيها اسم الله كثيرا ، ولينصرن الله من ينصره ، ان الله لقوى عزيز »

محب الدين الخطيب

هل كانت الهجرة ضرورة ؟

يقول فضيلة الشيخ محمد متولى شـعراوى : ان الهجرة الى المدينة كحدث تاريخى ضخم ، كانت مقرونة ببعثة محمد صلى الله عليه وسلم ، فحين بعث وارسل اليه ، كان تصديق بعثته مقرونا بانه سيهاجر ، لا ادل على ذلك من ان ورقة بن نوفل حين عرض عليه أمر محمد وما يجيىء له قال : « انك لنبى هذه الامة ، وان الذى يأتيك لهو الناموس الاكبر الذى كان يأتى موسى وعيسى ، ولتكذبن ، ولتعذبن ، ولتخرجن ، ولتقاتلن ، ليتنى اكون حيا اذ يخرجك قومك . قال الرسـول : أو مخرجى هم ؟ قال : ما جاء احد بمثل ماجئت به الا عودى ، وان يدركنى يومك ، انصرك نصرا يعلمه الله »

فاقتران البعثة بقوله : « لتخرجن » وقول الرسول « أو مخرجى هم ؟ » يدل على ان الهجرة كحدث خطير تتعرض له الدعوة لتؤتى أكلها كل حين، والهجرة كحدث تاريخى لا يمكن أن يكون منفصلا عما سبقه من الاحداث ولـكنه كان نتيجة حتمية لما سبقه من الاحداث ، وكان أيضا مقدمة لما تبعه من الاحداث ، وارتبـاط البعثـة المحمدية بكل احداثها ، يدل على وحدة البعثة فى كل ما يعن لها .

بداية الهجرة وكيف كان التاريخ بها

الشائع عند الناس انهم يحتفلون بالمحرم، لأن الهجرة ربما تكون وقعت فيه ، ولكن الحقيقة ان الهجرة وقعت في ليلة الثامن والعشرين من صفر ، فقد خرج الرسول صلى الله عليه وسلم مع صديقه أبى بكر الى الغار يوم الجمعة ، ومكثا الى يوم الاثنين فظلا فى الغار ثلاثة أيام ، ثم سارا حتى وصلا « قباء » فى يوم الاثنين الثامن من ربيع ، وظلا فى قباء أربعة أيام ، ثم ذهبا الى المدينة فوصلا يوم الجمعة ، وبذلك استغرقت الهجرة اسبوعين تقريبا ، هذا هو التاريخ الزمنى لحادث الهجرة .

ولقد وقعت فى غير أول شهر ، فليس من المعقول أن نلوى الناموس لنجعل الهلال يبدأ فى الثامن والعشرين، فجعلوا التاريخ فى العام الذى حدثت فيه الهجرة ، وظلت السنة عربية كما كانت ، بدايتها المحرم وآخرها ذو الحجة ، ويسير التوقيت مع الهلال ، ولذلك كان لابد أن نؤرخ لا لحدث الهجرة فى ذاته وانما العام الذى حدثت فيه .

ولذلك قصة ، فقد عرض على عمر بن الخطاب كتاب ومحله في التاريخ شعبان . فقال عمر : أى شعبان هذا ؟ أشعبان هذا العام ؟ أم شعبان العام الذى مضى ، أم الذى يليه ؟ ضعوا للناس أمرا يعرفونه ، فوقف الناس وقالوا ماذا نصنع ؟ وقال بعضهم نؤرخ بالرومان وقال آخرون نؤرخ بالفرس .. وروى أن عليا كرم الله وجهه قال : نؤرخ بخروج محمد صلى الله عليه وسلم من دار الشرك الى دار الايمان .. فوافق عمر والصحابة على ذلك ، وكان ذلك بعد سنتين ونصف من خلافة عمر وانسحب هذا التاريخ على الماضى ، فحسبوا المدد ،

وجعلوا ذلك الحدث فى السنة الاولى للهجرة ، والآخر فى السنة الثانية .. وهكذا الى ما نحن فيه الآن .

معجزات الطريق

اذا نظرنا الى ما تخلل الهجرة من صعاب ومشقات ومن آيات ومعجزات ، قد يقف العقل منها موقف التردد فى قبولها ، فانه يجب أن يعلم الناس ان ما تخلل الهجرة من معجزات وكرامات ، انما كان من غير صنع البشر ، واذا رفعنا الاحداث الى مستوى صنع الله وقف العقل صاغرا ، فمثلا العنكبوت والحمامة والغصن ومثلا سراقه وأم معبد ، كل ذلك يكون أمرا مسلما عند المؤمن برب محمد ، وفى ذلك مصداق لقول الله : « الا تنصروه فقد نصره الله » .. الى قوله : « وأيده بجنود لم تروها » فأى شيء من هذه الإشياء يدخل فى كلمة « بجنود لم تروها » أى بمقاييسكم وبعقولكم وماديتكم

وينتقل الحديث الى الدكتور عبد العزيز كامل ، ليتناول بالتحليل كلمة ورقة بن نوفل : والله لتكذبن ، ولتؤذين ، ولتخرجن ، فيجد فى ذلك قاعدة لا تتخلف مع رسالات السماء . يبعث الرسول ، فيحدث صراع بين الحق والباطل ، بين الذين يحبون الخير والذين يحبون الشر . ولقد تعجب الرسول من كلام ورقة ، يأتيهم بخير الدنيا والآخرة فيكون جزاؤه أن يخرج من وطنه وان يعذب ؟ ويبين الله ان تلك سنة لا تتخلف : « أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يأتكم مثل الذين خلوا من قبلكم ، مستهم البأساء والضراء وزلزلوا ، حتى يقول الرسول والذين آمنوا معه : متى نصر الله ؟ ، الا أن نصر الله قريب » ، فاذن لابد من امتحان وفتنة ، وتجربة عميقة يمر بها الرسول ومن معه ، حتى يمحص الله هذا الايمان فيبدو معدنه نقيا صلبا ، فاذا نظرنا

الى تطبيقات هذا القانون نجدها تشمل جوانب مختلفة اذا كان الفرد ضعيفا أو مستضعفا كالارقاء ، ومس قلبه الايمان ، فآمن بالله وصدق برسوله وارتفع فوق ذل العبودية الى نور الحق ، فما يكون من سادتهم الا أن يعذبوهم العذاب الاليم .

ونحن نعرف قصة بلال ، يعذب ، ويراود عن كلمة يعيب فيها على محمد أو رب محمد فى مقابل أن يعفى من التعذيب ، فلا ينطق لسانه الا بقوله : أحد أحد ، لا أدنس لساني بكلمة الكفر بعد أن طهره الله بكلمة الايمان ، جملة نمر عليها سريعا ولكن ينبغى أن نتوقف عندها طويلا . ان الانسان منا اذا مس بيده كوبا ساخنا احس لسع النار فيها ، واذا مشى حافى القدمين فى يوم قائظ ، أحس حرارة الارض تحت قدميه ، واذا وخزته آلة حادة أحس ألم الوخز ، مع ان هذا لا يستمر الا لحظة أو لحظات . تصوروا انسانا ملقى على الارض فى يوم شديد الحر ، ويوضع الحجر المحمى على صدره ، لا يعرف متى يرفع ذلك الحجر ، وتربط رقبته بحبل حتى لا يكاد يتنفس ، ويعطى الحبل لصبية كالشياطين يتقاذفونه ويتجاذبونه دون رحمة ، وهو لا يدرى متى ينتهى ذلك العذاب .. هل يستمر يوما ؟ أياما ؟ شهرا ؟ هو لايدرى الا انه آمن بالله ، قد خالط الايمان قلبه ، فاصبح عنده أغلى من كل شيء ، وارتفع بايمانه فوق كل مستوى من مستويات التعذيب التى يريدها قومه به

ماذا يفعل الاغنياء ! هذا ابو بكر يشترى بلالا ويعتقه ويشترى غيره ويعتقه .. هل كان يريد كسبا ماديا من الاسلام ؟ لقد جاءه الاسلام بذلا للمال ينفقه فى سبيل الله

وصورة أخرى ، كانوا يحاربون التاجر المسلم ويضيقون عليه أمره ..

وغير هذا كثير ..

وكان النبى صلى الله عليه وسلم يمر على المعذبين ، فماذا يقول : صبرا ، لا أملك لكم من الله شيئا ، ان موعدكم الجنة ، لم يستطع أن يرفع عنهم ما كانوا فيه من عذاب وأذى ، وانما وكل كلا منهم لايمانه . ثم هو نفسه ، كان يصلى فى جوف الكعبة فاذا بهم يقدمون القرابين اليها ويأخذون أحشاء الضحايا والقرابين ويضعونها على ظهر محمد .. يخرج من بيته فيجد القاذورات أمامه . يدخله ، فيقذفونه بالحجارة ، ثم يلتمسون طريقا آخر فى محاولة اغرائه بالمال أو الملك أو السيادة ، فيقول لهم : كلمة واحدة تقولونها لا أرضى عنها بديلا ، قولوا : لا اله الا الله .

ويأتونه من ناحية التحدى : انت تعلم أننا فى أرض فقيرة ، وترى هذه الجبال تحيط بمكة ، فادع ربك أن ينبت عليها خيرا وزرعا .. أن يجعلها كأرض الشام أو أرض فارس .. ويسجل الله ذلك كله : « وقالوا لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الارض ينبوعا ، أو تكون لك جنة من نخيل وعنب فتفجر الانهار خلالها تفجيرا ، أو تسقط السماء كما زعمت علينا كسفا أو تأتى بالله والملائكة قبيلا ، أو يكون لك بيت من زخرف ، أو ترقى فى السماء ، ولن نؤمن لرقيك حتى تنزل علينا كتابا نقرؤه » فماذا تكون الاجابة : « قل : سبحان ربى هل كنت الا بشرا رسولا » ..

ذكرنا ان معجزات الهجرة يجب ان يؤمن بها من آمن بمحمد . ولكن غير من آمن بمحمد كيف يؤمن بها وهذه دعوة عامة للناس كافة .. ؟

ويجيب الشيخ محمد متولى شعراوى فيقول : ان المعجزة التى يجب أن يؤمن بها كل مؤمن بمحمد صلى

الله عليه وسلم هى القرآن الكريم ، لانه معجزة باقية عقلية . كل المعجزات الكونية تحدث مرة وتنتهى ، أما معجزة محمد فنظرا لخلود رسالته كانت معجزة عقلية حيث يستطيع كل مؤمن به أن يمسك بالمصحف ويقول : هذه معجزة محمد ومعجزة الاسلام من بعده ، أما بقية المعجزات الكونية التى حدثت له ورآها من رآها فانه يصدق بها ، أما من لم يرها فحسبه أن يصدق فى القرآن وحده معجزة له ، وان اتسع عقله لقدرة الله الذى خلق محمدا ، على خرق الناموس له ، فلعل ذلك من تثبيت المعاصرين له وليس تثبيتا لنا نحن ، فلم يعد الا خبرا يروى ، اقتنع به اذا وثقت بمن رواه ، ولكن لا تلغ عقلك . . لان عقلك مستعمل فى القضية الاولى ، وهى الايمان بوجود اله واحد والايمان بضرورة التبليغ من رسول صادق ، صاحب معجزة تدخل العقل ، فاذا ما انتهيت الى هذا القدر يكفيك ان تعلم انه قال كذا وكذا .

التخطيط العلمى للهجرة :

ويتحدث الدكتور عبد العزيز كامل من هذا الجانب ويقدم له بكلمة عن مكان الهجرة ، فالنبى قد دعا أصحابه الى الهجرة للحبشة وقال لهم : لو خرجتم الى الحبشة فان فيها ملكا لا يظلم عنده أحد ، حتى يجعل الله لكم مخرجا مما انتم فيه . فهنا نجد الهجرة كان هدفها ان يحيا بعض المسلمين هناك بعض الوقت ، ليهاجروا من بعد ذلك الى موطن جديد ، ومن هنا يبدو فى طبيعة هذه الهجرة ، أولا انها كانت هجرة مؤقتة ، وثانيا : انها لم تكن هجرة لنشر الاسلام ، وثالثا : انها لم تكن بحثا عن منطلق جديد للاسلام .

اما فيما يتعلق بهجرة الرسول واصحابه الى المدينة

فقد شارك فيها بنفسه بينما لم يشارك فى هجرة الحبشة ، لماذا ؟ لان المدينة أو الطائف أو اى مكان فى المنطقة العربية كان يمكن أن يكون منطلقا للاسلام ، فالفرق بين الحبشة وبين الجزيرة العربية كان فرقا بين هجرة هدفها « الايواء » وهجرة هدفها « الانطلاق » وتكوين قاعدة اسلامية ينتشر منها الاسلام وهذه واحدة والنقطة الثانية هى ان النبى عليه الصلاة والسلام رتب الامر من ناحيتين :

من ناحية تامين هذه القاعدة قبل انتقاله اليها وذلك عن طريق بيعة العقبة « عاهدونى على أن تمنعونى « تدافعون » مما تمنعون منه نساءكم وأبناءكم » وأخذ العهود عليهم كما اخذوا كلمته حينما سالوه : « هل عسيت يارسول الله ان اظفرك الله على قومك ، أن ترجع اليهم وتدعنا ؟ » قال : « انا منكم وانتم منى أحارب من حاربتم وأسالم من سالمتم ، المحيا محياكم ، والممات مماتكم » .

ثم انه بدأ يرتب لاصحابه طريق الخروج فمنهم من خرج جهارا ومنهم من خرج سرا ، فقد أحب أن يطمئن على هجرة أصحابه قبله الى ذلك الموطن الجديد . وهنا ايضا تكونت ركيزة للاسلام فى المدينة قبل ان يذهب اليها الرسول ، بل انه رتب نشر الدعوة هناك فاختار شابا مؤمنا صالحا أوفده مع الانصار هو مصعب بن عمير يعلم الناس دينهم ويدعو الى الإسلام حتى لقد اصبح فى كل بيت قلب مؤمن بالله ورسوله .

ثلاث نواح اذن رتبها الرسول : علاقة مع الانصار ، هجرة المهاجرين ، داعية مؤمن .

يأتى بعد ذلك ترتيب خروجه من مكة على أساس علمى سليم ».

يقول الدكتور عبد العزيز كامل : لقد كان الطبيعي ان يتجه الى الشمال ناحيه المدينة ، او يتجه الىالساحل ناحية الغرب ، أو يأخذ طريق نجد الى الناحيه الشرقية ولكن النبي اختار مكان غار ثور الى الجنوب الشرقي من مكة اي في أبعد مكان يمكن أن يتصور الانسان ان يذهب اليه مهاجر الى المدينه شمالا .

نقطة ثانية في اختيار الغار هي ان مكانه كان وعرا ، حتى ان النبى لم يصل اليه الا بعد أن دميت منه الاقدام ، وتصوروا ان اسماء بنت أبي بكر كانت تذهب كل يوم الى ذلك المكان ، وان أخاها عبد الله كان يذهب كذلك يوميا .

***

وثالى ناحية ثالثة ، تتعلق بتوقيت الخروج ، ومن تمام الاخذ بالاسباب الا يترك شيئا للصدفة او الاحتمالات وانما يأخذ لكل شيء عدته على أساس علمى سليم ، فليترك عليا في فراشه حتى اذا أصبح الصباح يكتشف القوم الذين حاصروا بيته ، وقد بيتوا النيه على قتله ، انه ليس فيه رسول الله ، والى جانب روعة فدائية على ، نلحظ ان اختيار شخص آخر لهذا العمل لم يكن ليكون الاختيار الاوفق ، لان تردد على ووجوده في بيت النبوة أمر طبيعي بحكم النشأة والصلة والقرابة ولا يلفت النظر ، وكانعليه أيضا أن يرد الودائع بتكليف من رسول الله الى أصحابها ، كان النبى مطاردا ورغم انهم أحلوا دمه ، لم يكونوا قد وجدوا أحدا في مكة اكثر امانة على ودائعهم منه ، وهو هنا في هذا الموقف يذكر أن القوم ائتمنوه على أماناتهم فينبغى أن يردها وان يقوم اقرب الناس اليه وهو ابن عمه بذلك . يبحثون عنه ليقتلوه وهو يكلف من يبحث عن أصحاب الودائع ليردها ..

ثم ننتقل الى الغار ..
انه يحتاج الى الطعام .. فلتقم بذلك أسماء ..
وانه ليحتاج الى أن يكون على صلة بالاحداث فى مكة .. فليقم بذلك عبد الله بن ابى بكر يبقى نهاره بين القوم يسمع ما يقولون وما يدبرون ثم ياخذ طريقه الى الغار ويقدم تقريره الى رسول الله .
ولابد من تامين حركة أسماء وعبد الله ، وتغطية آثار أقدامهما فى رحلتيهما اليومية وليقم بذلك رجل متخصص .. الراعى عبد الله بن فهيره .. فيمر باغنامه على آثار الاقدام .. الى الغار فتمفى على الآثار ويشرب الرسول وصاحبه من لبنها .

***

ولكى نتصور دقة التخطيط وحسن اختيار الرجل المناسب يمكن أن نتخيل ما كان يحدث لو ان واحدا من هؤلاء قام بعمل شخص آخر ، اذن لكان الامر قد انكشف .
وتاتى بعد ذلك عملية الترتيب لصلة الرسول بالمدينة هو يحتاج الى الرواحل وان تكون معدة ، وهذا عمل يقوم به عبد الله بن اريقط وهو يعلفها ويغذيها منذ وقت طويل ، وينتظر بها على بعد من الغار بحيث ينتظر الاشارة ، ونلاحظ انه لم يكن على دين محمد ، ولكنه كان محل ثقة أبى بكر واستحق ثقة رسول الله وكان مؤتمنا على أخطر مهمة فى تاريخ الدعوة ، وبحكم كونه راعيا فان وجوده فى تلك المنطقة لم يكن يستلفت النظر لشىء غير عادى .
واذن فالطريق الى مكة مفتوح .. والطريق الى المدينة مفتوح ..
بعد كل هذا الاعداد نجد ما تذكره كتب السيرة عن العنكبوت والحمامة والغصن المتدلى على فم الغار ونجد

كلمة أبى بكر : لو نظر احدهم الى موضع قدميه لرآنا.
لقد بذل النبى أقصى الجهد وبذل أبو بكر أقصى الجهد فاستحقوا نصر الله وتأييده واصبحت تلك الاشياء البسيطة تمثل حصونا قوية تحتمى وراءها النبوة والرسالة ويحتمى مجد الانسانية ، كيف ؟ لان وراءها قوة الله .. ومن قبل، ذلك الجهد المنظم الذى بذل فى الترتيب والتنظيم ، وهنا نفهم قول الرسول فى القرآن « لا تحزن ان الله معنا » .

***

نقطة اخيرة يضيفها الدكتور عبد العزيز كامل هى ان الرسول عندما بدأ التحرك من الغار اتجه الى الساحل غربا ، ثم الى الشمال على طريق الساحل ، وقريبا من بدر الحالية اتجه الى ناحية الجبال ولم يسلك الطريق المألوفة وكانوا يسيرون فى الليل غالبا ويستريحون نهارا فى وقت قائظ الحرارة وطريق وعر المسالك والشعاب ، وكان عمر رسول الله صلى الله عليه وسلم فى ذلك الوقت ثلاثة وخمسين عاما .

هذه صورة للعمل العلمى المنظم الدقيق فى حدث الهجرة النبوية الشريفة . .

د: محمد محمد ابو شهبة
د. الحسيني عبدالمجيد هاشم

دراسة في السنة النبوية

السنة ، هي المصدر الثاني للتشريع بعد القرآن الكريم ، وعندما انهارت الدولة الاسلامية قديما فى عصور المد الاستعماري وتبددت قواها الحربية ، بقي القرآن وبقيت السنة عاصما لشعوب الامة الاسلامية من الانهيار . وتكفل الله بحفظ القرآن وبذلت الامة وعلماؤها ـ على وجه الخصوص ـ جهودا مخلصة ورائعة حتى حفظت السنة وهذبتها ونفت عنها كل زيف او تحريف حاول اعداء الاسلام ان يشوهوا به وجهها المشرق حتى وصلتنا مبرأة من كل شائبة . ولاتزال جهود علماء الاسلام قائمة الى يومنا هذا على خدمة السنة وتبسيطها ونشرها وتعميم الانتفاع بها ..

حديث عن رسول الله :

بيدأ فضيلة الدكتور محمد محمد أبو شهبة عميد كلية أصول الدين بأسيوط كلامه بحديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول فيه : « الا انني أوتيت الكتاب ومثله معه ، ألا يوشك رجل شبعان متكىء على أريكته يقول : عليكم بهذا القرآن ، فما وجدتم فيه من حلال فأحلوه ، وما وجدتم فيه من حرام فحرموه ، الا ان ما حرم رسول الله ، مثل ما حرم الله » فالحديث وضع لنا أساس الشريعة فى قوله : « الا انني أوتيت الكتاب ومثله معه » .. والكتاب هو القرآن ، وهو الكلام المنزل على سيدنا محمد المعجز بلفظه المتعبد بتلاوته المنقول بالتواتر المفيد للقطع واليقين المكتوب فى المصاحف من أول سورة الفاتحة الى آخر سورة الناس . الاصل الثانى هو السنة ، فما معنى السنة ؟ اى نبى أو رسول قائم بشريعة لابد أن يكون له كلام ، لابد وهو يرى وينصح الناس ويرشدهم أن يكون له كلام وأن يكون قدوة فى العمل ، وكان الرسول يحرص دائما على أن يقرن العلم بالعمل. ولذلك كثيرا ما كان يقول : « صلوا كما رايتمونى أصلى » وفى حجة الوداع المشهورة التى اجتمع فيها مائة الف صحابى أو يريدون

قال : « يا أيها الناس خذوا عني مناسككم فلعلي لا القاكم بعد عامي هذا » كذلك كل نبي له آداب وأخلاق . مجموعه هذه الاشياء ، الاقوال والافعال والاخلاق والاداب والسلوك وكونه يوافق بعض الصحابة فى بعض الاشياء أو لايوافقهم ، كل هذا يعرف بالسنة ، والسنه فى اللغة هى الطريقة ، حسنة كانت أو سيئة ، لكن اذا أطلقت على سنة النبى لا تنصرف الا الى السنة الحسنة والنبى يقول : من سن سنة حسنة فله ثوابها وثواب من عمل بها الى يوم القيامة ومن سن سنة سيئة فعليه وزرها ووزر من عمل بها الى يوم القيامة .

والسنة عند علماء الحديث معناها أقوال النبى وأفعاله وتقريراته ، وصفاته الخلقية والخلقية ، والاقوال ، كقوله مثلا . « المسلم اخو المسلم لا يظلمه ولا يخذله ولايحقره» والافعال نقلها لنا الصحابة فمثلا روى سيدنا على وسيدنا عثمان وغيرهما عن النبى عليه الصلاة والسلام انه توضأ فغسل يديه ثلاثا ثم تمضمض ثلاثا ثم استنشق ثلاثا ثم غسل وجهه ثلاثا ثم غسل يديه الى المرفقين ثلاثا ثم مسح راسه ثلاثا ثم غسل رجليه ثلاثا ، فهذا منقول عن النبى نقلا صحيحا ، أما التقريرات فهى ان يفعل أحد من الصحابة أو يقول شيئا يقره عليه النبى بالقول أو يسكت فيعتبر هذا تقريرا لانه يستحيل ان يرى النبى امرا حراما او منكرا ثم يسكت عليه .

جاء رجل الى الرسول أوفده قومه لكى يسأله فقال له : « لقد جاءنا رسولك — وكان النبى قد أوفد لهم رسولا — فزعم انك تزعم ان الله ارسلك الى الخلق كافة ، فأجابه النبى بانه صادق فيما قال لهم ، فهذا تقرير بالقول ، وأما التقرير بالسكوت فمثله ما رواه ابن عمر قال : كنا على عهد رسول الله صلى الله عليه

وسلم نقول أفضل الأمة بعد نبيها أبو بكر وعمر ، ثم عثمان .. والنبى صلى الله عليه وسلم يسمع ولا ينكر ذلك .

أما الصفات الخلقية فتتمثل فى انه كان أبيض اللون مشربا بحمرة ، مفتول الاعضاء ، قوى البنية ، اذا مشى فكأنما يأتى من مكان عال ، وكان لا يمشى مشية التمايل . أما الفضائل الخلقية فما أكثرها ، الشجاعة والعفة والامانة والصبر والجود .. فقد كان قدوة فى كل الصفات الحميدة . ونحن عندما نتحدث عن الفضيلة نذكر ما جاء عنها فى القرآن ثم نذكر ما جاء من النبى ونضرب الامثال

وقد نقل الينا الصحابة ومن جاء بعدهم هذه السنة نقلا مستفيضا ، فما معنى الحديث ؟ الحديث فى اللغة ضد القديم ويطلق فى اللغة أيضا على قليل الكلام وكثيره ومنه قول الله : « فليأتوا بحديث مثله » فالله سبحانه أمر النبى أن يتحدى الناس اذا كانوا ينكرون معجزته بان يأتوا بحديث مثله .. أقل حديث ، أما العلماء المحدثون فقالوا ان الحديث هو كما قلنا عن السنة سواء بسواء . وهذا ما أجمع عليه أكثر العلماء . وبعض العلماء يجعل السنة كعمل ويأخذ الحديث على أنه للأقوال فقط ، .والحديث لا يطلق أبدا على غير كلام النبى ، لكن السنة يجوز أن تطلق أو تنسب لغير النبى ولكن بالتقييد فيقول بعض العلماء : «سنة العمرين» أى أبو بكر وعمر ، وقد قال النبى عليه الصلاة والسلام « عليكم بسنتى وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدى ، عضوا عليها بالنواجذ » أى تمسكوا بها كثيرا لانها سبب الفلاح فى الدنيا وفى الآخرة ، واياكم ومحدثات الامور فان كل محدث بدعة ، وكل بدعة ضلالة .

بقى أن نشرح « الاثر » . لقد قلنا ان الحديث خاص بكلام

النبي ولا يتعداه الى غيره اما الاثر فالعلماء فسروه بأنه عبارة عن أقوال الصحابة وأقوال التابعين ولذلك يقولون فى الاثر عن على أو عن عمر .. الخ فاذا قال : وفى الاثر عن النبى فسيكون غرضه انه يريد بذلك الحديث

بقى لفظ آخر يجده الذين يقرأون كتبا كاحياء علوم الدين وغيره فأحيانا يقولون : وفى الخبر عن رسول الله، والخبر يجعله بعض العلماء كالحديث ، ولكن الصحيح ان الخبر أعم من الحديث فهو يشمل كلام النبى وكلام الصحابة وكلام التابعين ومن جاء بعدهم من المؤرخين ، فهى تسمى أخبار ، ولذلك فالمحدثون ينظرون للمحدث نظرة أكبر من نظرتهم الى الرجل صاحب الاخبار اذ ان الاخير ليس مدققا ولا محققا . أما المحدث فهو من أهل التحقيق لان الحديث يتناول الحلال والحرام ، لكن الاخبار فى التاريخ فاذا زاد فيها أو نقص فليس فى ذلك حرمة تأتى على الدين أو تنقضه مثل الحلال والحرام لانهما من الخطورة بمكان وهذا هو السر فى ان الصحابة ومن جاء بعدهم كانوا يدققون أكثر الدقة فى الحديث .

ما هى مكانة السنة من الدين ؟ :

يجيب على هذا السؤال فضيلة د . الحسينى عبد المجيد هاشم فيقول : ان القرآن قد حدد هذه المكانة حيث يقول الله تعالى : « يا أيها النبى انا أرسلناك شاهدا ومبشرا ونذيرا وداعيا الى الله باذنه وسراجا منيرا » وأنزل الله وحيه وقرآنه على النبى عليه الصلاة والسلام ببيانه .. « وأنزلنا اليك الذكر لتبين للناس ما نزل اليهم » فكان على رسول الله ان يبين للناس معنى القرآن الكريم وذلك ان القرآن جاء ليكون دستورا محفوظا فى الصدور .. « انا نحن نزلنا الذكر وانا له لحافظون » .. فلا يتسع للتفصيلات الفرعية ، فجاء بأمور

جاءت بها السنة كما جاء بها القرآن . مثال ذلك قول الله : « وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة » فجاء فى الحديث حينما عرف النبى أركان الاسلام بأنها : أن تشهد الا اله الا الله وان محمدا رسول الله ، وأن تقيم الصلاة وتؤتى الزكاة .. فهذا مثال لما وافق فيه الحديث النبوى القرآن الكريم .

وقد يأتى القرآن الكريم بأمر مجمل لابد من تفصيله وبيانه بالسنة النبوية كما يحدثنا الامام الشافعى رضى الله عنه فيقول : « يقول الله تعالى ان الصلاة كانت على المؤمنين كتابا موقوتا » ويقول الله تعالى : « واتموا الحج والعمرة لله » ولكن القرآن الكريم لم يبين كيفية الصلاة وعدد ركعاتها وهيآتها ، فمن الذى يبينها ما هى الصلاة وما طريقتها وما شروطها ؟ كل ذلك يبينه الرسول الداعى الى الله باذنه ويبين بأقواله التى ينقلها عنه صحابته ويبين بأعماله فيصلى ويرونه ويقول صلوا كما رأيتمونى أصلى ، اذن لابد للقرآن الكريم من تفصيل بوحى من الله وهذا هو ما اصطلح العلماء عليه بأنه السنة النبوية .

كذلك تأتى السنة النبوية بما ليس فى القرآن الكريم ومثال ذلك ان ميراث الجدة لم يرد فى القرآن وفعلا بعد موت الرسول جاءت الجدة الى سيدنا أبى بكر الصديق تطلب نصيبها فى الميراث فقال لها : لا اجد لك فى كتاب الله نصيبا ، ولم يكن قد اطلع على الحديث ، فجاء صحابى واخبره بفعل النبى عليه الصلاة والسلام وانه جعل لها السدس فاقر ذلك أبو بكر ونفذه ، وكذلك القاتل حينما يقتل قريبا له فجزاء الاسلام ان حرمه من التركة ، لم يرد ذلك فى القرآن الكريم ولكنه جاء فى السنة . تقديم الدين الذى على الانسان على الوصية

لم يكن فى القرآن ، ولـكنه جاء فى السـنة .

وهناك آيات فعلا يستعصى على الانسان فهمها ولا يمكن أن يفهمها الا بالسنة ، ولذا كانت أهمية السـنة فى تفسير القرآن الـكريم ، مثلا فى البخارى يقول : « باب ، ان الصفا والمروة من شعائر الله » يأتى بالحديث فيقول ان عروة روى عن أبيه عن عائشة رضى الله عنها انه سألها عن معنى هذه الآية ، ما معنى « ان الصـفا والمروة من شعائر الله فمن حج البيت أو اعتمر فلا جناح عليه أن يطوف بهما » ان الانسان يفهم من الآية ان الله رفع الجناح والاثم على من لم يسع بين الصفا والمروة .

وهذا فهم يتبادر الى كل ذهن ، ولكن السنة هى التى حددت المعنى ومنهـا يمكن معرفة أسـباب النزول ، فالسيدة عائشة آستطاعت ان تشرح الآية وتفهمها فقالت: ليس الامر كذلك ، لو كان الامر كذلك لقال الله : لا جناح عليه الا يطـوف . وسبب نزول الآية ان فى أيام الجاهلية كان الناس يطوفون حول الاصنـام فى هـذه الامكنة فجاء الاسلام وحطم الاصنام وطهر القلوب وجعل العبادة لله وحده ، فتحرج الصـحابة أن يطوفوا أو يسعوا فى أماكن كانوا يطوفون فيها بالاصـنام ، فجاء القرآن لرفع هذا الحرج من نفوسهم ويقول لهم : ليس عليكم جناح : « ان الصفا والمروة من شعائر الله ، فمن حج البيت أو اعتمر فلا جناح عليه » أى لا اثم عليه « أن يطوف بهما » . واتضح للسائل المعنى كما اتضح لنا نحن ، وكذلك يعرب الامام البخارى فى كتاب التفسـير بقوله ، قال الله تعالى : « الذين آمنـوا ولم يلبسـوا ايمانهم بظلم » سأل الصحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم وقالوا له : « أينا لم يظلم يارسول الله ؟ » فانزل الله سبحانه وتعالى قوله : « ان الشرك لظلم عظيم »

فالذى يعلم الحديث يعلم ان الشرك ظلم عظيم ، والذى يعلم الحديث يعرف مواقع القرآن الكريم ويعرف أسباب النزول فيفهم معنى الآيات • واختصاص السنة بالتشريع أمر أقره الرسول بل أمر دعى اليه ونفذه فعلا

ولا يمكن أبدا للقرآن أن يفسر بدون السنة • حينما أرسل رسول الله صلى الله عليه وسلم معاذ بن جبل الى اليمن قال له : يا معاذ اذا عرض لك قضاء فبماذا تقضي؟ قال : « بكتاب الله » فقال له الرسول عليه الصلاة والسلام : « فان لم تجد فى كتاب الله — أى ما يحل هذه القضية التى عرضت لك ؟ » قال : « أقضي بسنة رسول الله » قال : « وان لم تجد ؟ » قال : « اجتهد رأيى ولا آلو » • فمعنى ذلك ان الانسان قد يجد الحل فى كتاب الله مفصلا وقد لا يجده فى كتاب الله فييمم وجهه شطر السنة النبوية يسألها فيجد الحل الذى لم يرد فى القرآن الكريم ، فاذا عرضت مسألة ولم يجدها فى كتاب الله ولا سنة رسول الله ، يجتهد فى الجو الاسلامى وفى حدود ما أمر الله به أو نهى عنه ، بالقياس على مسائل مماثلة عرضت فى كتاب الله أو فى السنة قدر الاستطاعة .

متى بدأ تدوين السنة ؟

يجيب فضيلة الشيخ محمد محمد أبو شهبة عميد كلية أصول الدين باسيوط فيقول ابتداء ، ان القرآن كان يدون جميعه عند نزوله وكان الرسول عليه الصلاة والسلام يدعو أحد كتاب الوحى فيكتب الآية بين يديه • وكان الصحابة يكتبون ويحفظون وكانت النسخة الرسمية التى تكتب بين يدى الرسول محفوظة فى بيته فلما توفى الرسول بدأ سيدنا أبو بكر بمشورة من عمر فى جمع المفرق فى صحف على التفصيل المعروف فى جمع القرآن.

اما السنه فقدرأى النبيأنتكليف الصحابةبكتابة القرآن والسنه فى آن واحد ، وفيهم أمية،أمر يشق عليهم •واكتفي بحثهم على حفظها،حتى ان هناكحديثا رواه أبو سعيدالخدرى عن النبي عليه الصلاة والسلام ، قال فيه « لا تكتبوا عنى غير القرآن ومن كتب عنى غير القرآن فليمحه » واخذ بهذا كثير من الصحابة • ولكن بعضهم- ممن كان كاتبا قارئا مثل عبد الله بن عمرو بن العاص استأذن النبى فأذن له بالكتابة •وبعض الصحابة اشتكوا الى الرسولانهم ينسون فأذن لهم وكان الصحابة يدركون ان السنة هى الاصل الثانى للتشريع والمصدر الثانى للحلال والحرام فكانوا يعنون بها غاية العناية وكان الرسول يشحذ الهمم لحفظها فيقول لهم مثلا •• « نضر الله آمرءا سمع مقالتى فحفظها ووعاها وأداها كما سمعها فرب مبلغ أوعى من سامع »

ومرة اخرى يقول لهم •• اللهم ارحم خلفائى •• فيقولون ومن خلفاؤك يا رسول الله فيقول هم الـــذين يروون احاديثى ويحفظونها ويعلمونها الناس •• فبعض الصحابة اذن كان يكتب السنة وكان ابو هريرة يقول : ما من أحد من اصحاب رسول الله كان اكثر حديثا منى الا ما كان من عبد الله بن عمرو بن العاص فانه كان يكتب وأنا لا اكتب • وقد يبدو هناك نوع من التعارض بين النهىعن كتابة الحديث والاذن به او التشجيع عليه • وقد رأى كثير من العلماء ان النهى كان فى أول الدعوة ثم أباح النبى ذلك فيما بعد ، وقد توفر العلم بالقراءة والكتابة وأصبح الناس يميزون بين القرآن والسنة • ولابد انيكون الامر بالكتابة ناسخا للنهى عنها ولو نظرنا فى نصوص الاحاديث نجد ان ابا هريرة اسلم فى السنة الســـابعة لكن ابا سعيد الخدرى اسلم فى أوائل الهجرة فبينهما حوالى سبع سنوات ، ثانيا نذكر ان الرسول عندما دخل

فاتحا ومنتصراً القى خطبة على المسلمين فوقف رجل اسمه ابو شاة من اليمن ، فقال يا رسول الله اكتب لى ، أى ائذن لى ان اكتب او تكتب لى هذه الخطبة فقال رسول الله : اكتبوا لابى شاة • وفتح مكة كان فى السنة الثامنة فبينها وبين اسلام أو حديث ابى سعيد الخدرى بالنهى عن الكتابة ثمانى سنوات • فهذه الامور تدل على ان النهى لم يستمر بل نسخ •

***

واصبح الصحابة بعد وفاة الرسول يحرصون على كتابة ما حفظوه من السنة • وكانوا يرتحلون ويسافرون المسافات الطويلة من أجل ان واحدا من الصحابة قد سمع حديثا من رسول الله فيحرص الراوية على ان يسمعه بنفسه منه •

وكان على رأس الصحابة جابر بن عبد الله وعبد الله ابن عباس وقد بلغ الامر من ابن عباس انه كان يذهب فى يوم الريح العاصف الى بيت احد الصحابة فلا يريد ان يطرق بابه فينام به حتى الصباح ، فاذا خرج الصحابى ووجده قال يابن عم رسول الله لم لم ترسل لى وانا آتيك فيقول انا أعلم ذلك ، ولكننى أنا الذى اسعى اليه لانى أريد أن أحمل عنك حديث رسول الله • وقد كون الصحابة مدارس للحديث لها شيوخها ولها طلبتها •

وبعد عصر الصحابة جاء عصر التابعين الذين أقبلوا على دراسة الحديث وحفظه وكتابته أكثر من ذى قبل • وكان هناك سعيد بن المسيب ، وعروة بن الزبير ، وأبو يعلى وبن شهاب الزهرى وغيرهم حتى وصلنا الى نهاية القرن الاول فرأى خامس الراشدين عمر بن عبد العزيز أن الظروف تدعو الى تدوين السنة تدوينا عاما ، فكتب الى علماء الامصار بأن يجمعوا السنة « انظروا الى ما كان من

حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم فاجمعوه فانى خفت دروس العلم وذهاب العلماء ولتجلسوا للناس حتى يعلم من لا يعلم ، ولتفشوا العلم فان العلم لا يهلك حتى يكو سرا » • فاقبل العلماء على ذلك ، فالسنة اذن بدأ تدوينها فى عهد الرسول ثم زاد فى عهد الصحابة ثم زاد فى عهد التابعين لا كما زعم المستشرقون انها تأخرت الى القرن الثالث •

***

المرحلة التالية فى التدوين

وينتقل الحديث الى فضيلة الشيخ الدكتور الحسينى عبد المجيد هاشم ليتحدث عن المرحلة التالية فى التدوين فيقول ان السنة جمعت ودونت بعد أن استقر الاسلوب القرآنى •• دونها عبد الله بن عمرو بن العاص وجابر ابن عبد الله • ولما جاء القرن الثانى كان طابع التدوين رسميا اى كان يأمر الحاكم فيجمع ما جمعه الافراد •ومن الطبيعى ان افراد المجتمع الاسلامى يمكنهم ان يدونوا ما قاله فرد واحد هو النبى يرون فيه سعادة دنيـــا• وآخرتهم،كما أنه من السهولة أن يحفظوا هذا التراث مفرقا ومجتمعا • ولذلك فان مشكلة حفظ السنة مشكلة وهمية اخترعها اعداء الاسلام ليشككوا فى صحتها ، فالسنة جمعت فى القرن الاول بأمر عمر بن عبد العزيز فى كراريس جمعها العالم الجليل بن شهاب الزهرى واعطاها الى الخليفـــة الذى وزعها الى الامصار ليرجعوا اليها. ومن الطريف ان يرسل الخليفة الى واليه على المدينة ابن حزم ليكتب له ما عند « عمرة بنت عبد الرحمن الانصارى » وهذا يدل على مكانة المرأة فى الحضارة الاسلامية ، وكيف كان الناس يتعلمون منهن السنة فالكل سواء فى ميدان العلم •

وامر عمر بن عبد العزيز واليه على حمص ان يؤسس جاء اسلامية تخصصية فقال له اجعل للعلماء اجرا ليتفرغوا لكتاب الله والحفاظ على السنة ـ لا ليتكلوا او ليستريحوا ـ لكن ليعملوا وليدونوا أحاديث رسول الله وليحافظوا على الثروة التى انطلق نورها فى المشرق والمغرب ٠

وكان طابع التأليف جمع كل الاحاديث من غير تبويب، فحديث الصلاة قد يكون الى جانب حديث الصيام او الطلاق ، المهم ان يذكر راوى الحديث كل ما يعرف عنه حتى يرجع اليه فيما بعد فى فترة تمحيصية ، وقد كان ذلك ٠ وجاء الجيل الثانى الذى فيه الامام الجليل مالك امام دار الهجرة التقى الورع ـ الذى كان يأبى من صلاحه وورعه أن يركب فى المدينة لانها ضمت رفات رسول الله ـ فجمع كتابه وبوبه ٠

وكان اول كتاب مبوب على ابواب الفقه ٠٠ باب الطهارة ٠٠ باب الصلاة ٠٠ باب الصيام ، الى آخره غير ان كتابه لا يسمى جامعا لانه لم يجمع كل ابواب السنة ولكن له فضل السبق على البخارى ومسلم فعلمهما كيف يدونون ، وجاءا بعده فتمما ما بداه من جوامع جمعت كل الابواب

يقول الامام الدهلوى ، وكتب الحديث من حيث الشهرة الطبقة الاولى ثلاثة كتب ، موطأ الامام مالك وصحيح الامام البخارى وصحيح مسلم بن الحجاج » ومنهج الامام مالك فى التأليف ان يأتى بالاحاديث المرفوعة الى الرسول ثم يأتى باقوال الصحابة ثم يأتى باقوال التابعين

***

طابع التدوين فى القرن الثالث

يقول الدكتور محمد ابو شهبه : الحقيقة ان القرن الثانى كان غنيا بالتأليف لكن المؤسف انه لم يصلنا الا كتاب الموطأ

وضاعت كتب كثيرة فيما اصاب المسلمين أيام التتار . في آخر القرن الثانى اتجه العلماء اتجاها آخر فالفوا شيئا اسمه المسانيد ، ومنها مسند الامام احمد وكانوا يجمعون الاحاديث بحسب الصحابة فتجمع احاديث ابو بكر ثم عمر ثم عثمان وهكذا بعد ان ينتهوا من العشرة المبشرين بالجنة

***

يأتى من يليهم فى الفضل. جمع الامام احمد مايزيد على خمسين الف حديث فى كتاب يعتبر من كنوز السنه حققه المرحوم العلامة الشيخ احمد محمد شاكر وهذبه وجعل له فهارس وطبع منه بضعة عشر جزءا . بعد ذلك جاء القرن الثالث الذهبى وظهر فيه كبار العلماء وكان لهم منهجان : المنهج الاول الا يذكر فى الكتب الا الاحـــاديث الصحيحة فقط وأول من بدع هذه البدعة الحسنة هو الامام البخارى وتلاه تلميذه وصاحبه مسلم وهذان الكتابان هما للاحاديث الصحيحة فقط . أما ما عداهما مثل سنن أبى داود وسنن النسائى وسنن الترمذى وسنن ابن ماجه فانها جمعت بين الصحيح والحسن والضعيف وهذه هى الكتب الستة المشهورة : البخارى ١٩٤ ـ ٢٥٦ هـ مسلم ٢٠٥ ـ ٢٦١ هـ أبـو داود ٢٠٢ ـ ٢٧٥ هـ الترمـــذى ٢٠٩ ـ ٢٧٩ هـ النسائى ٢١٥ ـ ٣٠٣ هـ بن ماجه ٢٠٩ ـ ٢٦٣ هـ ..

هؤلاء هم أصحاب الكتب الستة .. بعض المحـــدثين يحذف ابن ماجه ويضع بدلا منه موطأ الامام مالك لان كتابه من الجلالة بمكان وهو فى درجة الصحيحين على الاقل . ولكن العلماء الذين جعلوا ابن ماجـــه بين الســـتة لان الاحاديث الزائدة فيه عن الكتب الاخرى اكثر من الاحاديث التى انفرد بها الموطأ عن الكتب الستة . وعلى هذا فان ٩٥٪ من السنة قد فرغ من تدوينها فى القرن الثـــالث

وبقى ٥٪ إستدركها اهل القرن الرابع وألقرن الخامس وما تلاهما .

ماذا تم فى القرنين الرابع والخامس ؟

يقول الدكتور الحسينى هاشم : بعد ان استقر تدوين السنه بالاصول الستة ، ماذا يفعل المؤلفون من مزيد من خدمة السنه .. بدأوا يضمون كتابا الى كتاب او يجمعون بعض الاحاديث المتجانسة الى بعض . وقد جمعت السنة جمعا دقيقا ومنهجيا وفريدا . لابد ان بعض العلماء نظر فى شروط صاحبى الصحيحين : البخارى ومسلم ، فوجد انهما اشترطا فى الراوى ان يكون عدلا نقيا ضابطا ولابد أن يقابل الراوى المروى عنه ليأخذ عنه مشــافهة ، ولا يكون الحديث مخالفا لاى حديث اخر ولا عيب فيه . وبـ

النظر فى هذه الشروط القديمة وجد ان هناك بعضا منها . تتوافر له هذه الشروط فأراد ان يجمعها وان يستدرك بـ على الصحيح ولذا جمعها فى كتاب سمى المستدرك . ولا يعاب ذلك على البخارى او مسلم لان كلا منهما لم يدع أنه جمع فى كتابه كل صحيح بل ان دعواهما انهمـــا لم يجمعا فى كتابيهما الا كل صحيح . فجـاء ابو عبد الله الحاكم النيسابورى وجمع المستدرك الـــذى يلتحق فى شروطه الامام البخارى ومسلم . ومعنى الشروط انهـا المقاييس التى وضعاها لمن يروى الحديث. يعنى لايسمعون الحديث الا من اشخاص معينين تتوافر فيهم مثل دقة الحفظ والتقوى وما الى ذلك .

ووجدت هناك تآليف اخرى لا تأتى بجديد ، ولـــكن بمنهج اخر من التأليف ، فمثلا يأتى على كتاب مثل البخارى فى حديث رواه البخارى فى السند المتصل عن أبى هريرة فيأتى هو لهذا الحديث بالذات بطريق اخر يعنى برجال

أخرين يوصلونه الى ابى هريرة فيروى هذا الحديث بنفسه يستخرجه لنفسه . وسمى ذلك التأليف « مستخرج » وفائدته انه يقوى الحديث لانه يأتى به من آكثر من طريق بما يدل على أن الحديث صحيح .

ووجدت هناك مناهج اخرى هى مثلا جمع احاديث الاحكام ، أو شرح للنصوص ، كل ذلك فى محاولات لخدمة السنة ، حتى عصرنا هذا وجد فيه منا من سابق المستشرقين فى خدمة السنة فجعل لها فهارس تعين على كشفها كالمرحوم الباحث المحقق محمد فؤاد عبد الباقى الذى خدم فهارس القرآن والسنة فسهل على الباحثين الرجوع الى الاحاديث فى مصادرها مثل كتاب مفتاح كنوز السنة، وترجمة كتاب فنسنك . ولا نستطيع فى الواقع أن نحبط بكل الجهود التى بذلت لخدمة السنة ولكنها جهود بذلها علماء مخلصون جعلوا كتبها فى متناول ايدى المثقف العادي الذى يريد أن يتعرف على السنة النبوية المطهرة .

• أحمد فراج

لمحة من اليرموك

هذه السطور من تاريخ البطولات الاسلامية نقدمها هدية الى الاخوة الرابضين على خط النار فى كل جبهة عربية يترقبون ساعة الصفر فى صبر وثقة ، وهم يقومون بين اليوم والاخر بأعمال بطولية مجيدة ، هى وسام شرف لا على صدورهم وحدهم وانما على كل صدر عربى • وليس القصد من هذه السطور أن تكون عملية اجترار للماضى بامجاده وانتصاراته ، وانما ليوقنوا أن عملهم اليوم ، وعملهم فى الغد القريب ، انما هو سطور تضاف الى تاريخ حافل لامتنا ، كتبه ابناؤها عبر الاجيال بالجهاد والصبر والتضحية ، ورويته دماء المؤمنين الاطهار ، فمنهم من قضى نحبه •• ومنهم من ينتظر ••

« سر حتى تاتى جموع المسلمين باليرموك ، وهنيئا لك ابا سليمان النية والحظـوة ، فاتمم يتمم الله لك ولا يدخلنك عجب فتخسر وتذل ، واياك أن تدل بعملك ؛ فان الله عز وجل له المن وهو ولى الجزاء »

قرا خالد بن الوليد هذه الكلمات من رسالة أبى بكر الصديق والتى امره فيها بأن ياخذ نصف الجيش الاسلامى فى العراق ويتجه به الى الشام مددا للجيش هنـاك ، فاستخلف خالد على النصف الاخر المثنى بن حارثة وبدأ مسيرته الى الشام وكان معه نحو عشرة آلاف جندى .

أراد خالد ان يختار طريقا ينتهى به الى مفاجأة الجيش البيزنطى ويحفظ به أمن وسرية تحركاته فلم يدلوه الا على طريق يشق على الجيش ويحمله ما لا يطيق من المشقة والهول بل قيل له اياك ان تغرر بالمسلمين . وقام خـالد ليقول لمن معه « لا يختلفن هديكم ولايضعفن يقينكم واعلموا أن المعونة تأتى على قدر النية ، والاجر على قدرالحسبة ، وان المسلم لاينبغى أن يكترث بشىء يقع فيه مع معونة الله له » . وكان الراكب المنفرد يخشى على نفسه ذلك الطريق ، ولا يسلكه الا مخاطر ، فما بالك باخطار لتهدد جيشا باكمله .

واتخذ القائد العبقري احتياطاته للمسيرة الرهيبة فعطش الابل ثم سقاها وشد أفواهها حتى لاتجتر ، وحمل عليها ماء وكلما قطع مرحلة من الطريق ذبح بعض الابل فشربت الخيل ما فى بطونها وشرب الناس ما على ظهورها وقطع صحراء العراق وبادية الشام - وهى جزء من الطريق يزيد على ٩٥٠ كيلومترا - فى اشد الظروف قسوة وحرارة . ونتجاوز الطريق سريعا الى اليرموك حيث اكتمل الجيش الاسلامى .

وتراوحت تقديرات الرواة لعدد الجيش الاسلامى ما بين ٣٦ الفا و ٤٠ الفا كان فيهم الف صحابى ، منهم مائة يحملون وسام « بدر » بينما كان جيش الروم ٢٤٠ الفا

واذا طرحت هذه النسبة على اى اكاديمية عسكرية واضيف اليها نوع التسليح فى كلا الجانبين لتبين دون عناء أن الجيش الاول الى فناء وابادة فالنسبة - حتى لو أخذنا بالتقدير الثانى لجيش المسلمين وهو ٤٠ الفا - تصبح ١ الى ٦ وهذا اختلال لصالح الروم، فضلا عن عدد الفرسان فى جيشهم الذى بلغ ثمانين الفا ، أى أن القوة الضارية ذات التأثير الحاكم فى ذلك الوقت ، وكانت وحدها ضعف جيش خالد، فاذا أضفنا الى ذلك ان جيش خالد هو المهاجم فان المفروض - عسكريا - أن يكون لديه ثلاثة مهاجمين لكل مدافع وبمعنى آخر وبالحساب العسكرى كان مفروضا أن يكون جيش خالد ٧٢٠ الفا وليس أربعين الفا . والخلاصة ان النسبة الحقيقية كانت ١ الى ١٨ باعتبار خالد مهاجما . وليس الامر فى حاجة الى اكاديمية عسكرية بعد ذلك فان اى حساب مادى بسيط يستطيع ان يتنبأ بسهولة بنتيجة المعركة التى لايمكن عقلا او ماديا أن تكون فى صالح المسلمين .

كان الخليفة الراشد ابوبكر الصديق قد عين لكل أمير

من امراء جيوشه الى الشام منطقة يكون واليا أو حاكما لها فجعل حمص لابى عبيدة الجراح ، وجعل دمشق ليزيد بن ابى سفيان ، والاردن لشرحبيل بن حسنة وفلسطين لعمرو بن العاص وعلقمة . وكان كل واحد منهم يقوم بعملياته العسكرية فى منطقة ، فاذا احتاج احدهم الى مساعدة سارع احد الامراء الى نجدته واذا ووجهوا بتجمع العدو اجتمعوا جميعا ، حتى وصل خالد اميرا من قبل الخليفة ورأى ان تكتيك الجيش البيزنطى لايصلح معه هذا الاسلوب الذى اتبعه امراء الجيوش الاسلامية فرأى أن حشد قواته كلها هو الاسلوب الامثل ومضى يشرح وجهة نظره :- ان هذا يوم من أيام الله لاينبغى فيه الفخر ولا البغى ، اخلصوا جهادكم واريدوا الله بعملكم فان هذا يوم له مابعده ولا تقاتلوا قوما على نظام وتعبئة وأنتم على تساند وانتشار فان ذلك لايحل ولا ينبغى .

ولعل خالدا قد رأى أن تولية الامراء على مناطق محددة تكون لهم بعد انتهاء الحرب ، أمر ربما يكون له اثر نفسى على القادة فضلا عن الجنود . والقادة هنا هم الصفوة من الرعيل الاول الذين تخرجوا فى مدرسة النبوة ، ومع ذلك فهو يذكر من معه بما هو أسمى وأبقى، فهو يذكرهم ويحذرهم من أن يكون للدنيا اثر فيما يتطلعون اليه لان ما عند الله خير وأبقى فيقول : ان الذى أنتم فيه أشد على المسلمين مما قد غشيهم وانفع للمشركين من أمدادهم ، وقد علمت ان الدنيا فرقت بينكم فالله الله ، فقد افرد كل رجل منكم ببلد من البلدان ، ان تأمير بعضكم لاينفعكم عند الله ولا عند خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، هلموا فان هؤلاء قد تهيئوا وهذا يوم له مابعده ، ان رددناهم اليوم

لم نزل نردهم ، وان هزمونا لم نفلح بعدها .
ويعرض القائد العبقرى ان يتولى كل امير قيادة الجيش يوما ويقترح ان تكون القيادة له فى اليوم الاول وكانوا يظنون أن المعركة ستكون طويلة وكان هو يرجو ان ينتهى منها فى أول يوم .
ونظم خالد جيشه على اساس وجود قوى رئيسية على شكل كراديس أو صفوف فقد اعتقد انها تظهر امكانيات اكبر فى نظر العدو ، وجعل أبا عبيدة على رأس منطقة القلب وعمرو بن العاص وشرحبيل فى الميمنة ويزيد على الميسرة .
وكانت الجيوش الاسلامية تعنى بالروح المعنوية وكانت هناك وظيفة « القاص » أو الخطيب الذى يقرأ القرآن على الناس ويذكرهم بالله ويحثهم على الجهاد وبذل الارواح فى سبيل الله . وقد تولاها يومذاك ، أبو سفيان بن حرب ، وذلك يشبهه مانلمسه اليوم من عناية قواتنا المسلحة بهذا الجانب ومايقوم به الوعاظ ورجال الدين من مشاركة ايجابية فى صفوف الجيش وبين وحداته .
لم يكن للمسلمين عهد بمثل ذلك الجيش الوفير العدد والعدة وما عهد العرب أن يواجهوا قوة كتلك القوة الهائلة لدولة كبرى كانت احدى أكبر قوتين فى العالم فى ذلك الوقت الروم والفرس .
ولقد أراد القائد « ماهان » أن يشن حربا نفسية على خالد وكانت لديه الامكانيات الظاهرة التى تبرر تلك الحرب ، فطلب مقابلة خالد فى عدد متماثل من أركان حربه وبعث اليه :
ان رأيت أن تخرج الى فى فرسان وأخرج اليك بمثلهم اذكرك أمورا لنا ولكم فيه صلاح وخير . واستجاب خالد ، فلما التقيا قال ماهان :

ـ قد علمت أنه ما اخرجكم من بلادكم الا غلاء السعر وضيق الامر بكم

ـ واني قد رأيت ان اعطي كل رجل منكم عشرة دنانير وراحلة تحمل حملها من الطعام والكسوة فترجعون الى بلادكم وتعيشون بين أهاليكم ، ونحن نقدم لكم هذا فى هذه المرة . فاذا كان العام القادم بعثتم الينا فبعثنا اليكم بمثله .

ـ فانا قد جئناكم ومعنا من الجيوش والعدد مالاقبل لكم به .

وهذه الكلمات من قائد الروم تبرز محاور أساسية ثلاثة استهدفها :

الاول : التشكيك فى الاوضاع الاقتصادية الداخلية فى الدولة الاسلامية ، وهو ينطوى ضمنا على التشكيك فى الهدف كما ينطوى على عدم ادراك الغاية التى استهدفها الجيش الاسلامى .

الثاني : محاولة اغراء هـــذا الجيش « الفقير » او رشوته بمبلغ ٤٠٠ الف دينار واربعين الف بعير محملة بالطعام والكساء . مع ملاحظة أنه فى حالة القبول سيتكرر هذا العطاء فى كل عام !! ومع ملاحظة أخرى هامة أنه لاداعى لان يتجشموا مشقة الحضور فى العام التالى لان تلك « العطية » ستصلهم الى بلادهم فيما بعد.

ولاشك أن مظهر المقاتل المسلم كان مسرفا فى التواضع ولاشك أن مظهر سلاح الفرسان لديهم لم يكن من شأنه أن يثير الخوف ، ويكفى هنا أن نشير الى وصف خالد بن الوليد لفرسه قبل المعركة عندما قال : والله لوددت أن الاشقر « فرسه » براء من توجيه « أى شفى من مرضه وتعبه وكان فرسه قد حفى فى مسيره الطويل » . لاشك فى بساطة مظهر الجيش الإسلامي ولكننا نعتقد أن سمعته

مع ذلك قد طبقت الافاق ولهـذا فان كلام قائد الروم ينطوى هنا أيضا على معنى السخرية والاستهانة .

الثالث : أنه مع التشكيك والاستهانة والسـخرية يأتى التهديد بالقوة و « بالجيوش والعدد التى لا قبل لكم بها » ولعله صدق فى جزء من هذه الناحية فالحق ان الجيوش والعدد التى كانت تواجه خالدا لم يكن للمسلمين بها عهد ولم يواجهوا مثلها قط .

***

هنالك لحظات حرجة تمر بحياة كل انسان ، ويختلف الناس فى قدرتهم على مواجهة تلك اللحظات ، فأكثرهم براعة وذكاء وسعة حيلة ، أقدرهم على التخلص من تلك اللحظات الحرجة . ولكن قلة نادرة تتميز فوق البراعة والذكاء وسعة الحيلة ، بطاقة من الايمـان ودرجة من اليقين فى الله ، تجعل الشجاعة والثبات والثقة بديهة فى وجدان المؤمن ليصدر عنها فى كل شأن من شـئونه فتفقد تلك اللحظات صفة « الحروجة » وتتجرد المواقف الصعبة من صفة الصعوبة أمام السليقة التى لاتعرف شيئا أكبر من الله .

ومن تلك القلة التى يندر تكرارها كان طراز خالد .

كيف كان رده على ماسمع . اننا نلمح فى اجابته محاور ثلاثة رئيسية تكاد نجد فيها مقابلة تامة حاسمة وفورية لما طرحه قائد الروم فيقول فى رده :

ـ ما أخرجنا من بلادنا جوع ولا ضيق أمر

ـ ولكنا معشر العرب نشرب الدماء وقيل لنا انه ليس أطيب من دمكم فاقبلنا لنهريق دماءكم ونشربها .

ـ لقد جئتك بقوم يحبون الموت كما تحبون الحياة ويرغبون فى الاخرة كما ترغبون فى الدنيا ..

ونلحظ بوضوح :

١ ـ هناك حسم فى القضية الاولى ..

٢ ـ وفى مواجهة التشكيك والاستهانة والسخرية يلقى خالد بقنبلته التى ستحدث انفجارا نفسيا ويشيع بها الرعب فى قلب القائد وأركان حربه ، وبديهى أن العرب لم تكن تشرب الدماء ولكن الاثر النفسى تحقق على الفور فى قلوب أركان الحرب فقد مال بعضهم على بعض وقالوا ، هذا ماكنا نسمع به عن العرب من شربها الدماء

٣ ـ لم يستطع خالد أن ينكر الامكانيات البشرية والمادية الهائلة التى كانت لجيش ماهان ولكنه ركز مباشرة على اعتبار له القيمة الحاسمة من وجهة نظره فى مصير المعركة • انه يتحدث عن العقيدة التى يحارب بها المقاتل ، ونوعية ذلك المقاتل . ولا شك أن لكل مقاتل عقيدة حتى لو كانت باطلة ، فالجندى الاسرائيلى مثلا يحارب بعقيدة ، والجندى العربي يقاتل بعقيدة ، وينبغى أن يكون ايمان الجندى العربى بالحق الذى هو عليه ،أقوى من ايمان الجندى الاسرائيلى بالباطل الذى هو عليه .

***

من هنا نفهم لماذا تجاوز خالد بن الوليد الحديث عن العدد والعدة الى الحديث عن المقاتل .والعقيدة ، وهو يبين أن الذى يحارب ويريد أن يعيش انسان يختلف تماما عن الجندى الذى يحارب وهو يتحرق شوقا الى لقاء الله ، انه لايتعلق بشىء مما فى هذه الدنيا لان مافيها ينفد « ماعندكم ينفد وما عند الله باق » وهذه «العندية» الالهية هى هدف الجندى الذى يبذل روحه رخيصة فى سبيل الله ، ولهذا جاء قوله « جئتك بقوم يحبون الموت كما تحبون الحياة ويرغبون فى الاخرة كما ترغبون فى الدنيا » .

طريق المجاهدين :

ولسنا نحرص على سرد المعركة وفصولها ، ولكننا نحرص اشد الحرص أن نبرز القيم والمعانى الكبار التى فجرت طاقة الاستبسال فى قلوب المجاهدين فى كلمات ومضت فى سماء المعركة على السنة قادة الجيش الاسلامى .

ولنستمع الى أبى عبيدة بن الجراح يقول « عباد الله ، انصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم ، ياعباد الله » . ولاحظ التأكيد على معنى العبودية والخضوع لله • اصبروا فان الصبر منجاة من الكفر ومرضاة للرب ... الزموا الصمت الا من ذكر الله عز وجل فى انفسكم ..

وننتقل الى ميمنة الجيش الاسلامى لنستمع الى معاذ بن جبل الصحابى الجليل : يا أهل القرآن يامستحفظى الكتاب وأنصار الحق والهدى والرحمة ، أن رحمة الله لاتنال وجنته لاتدخل بالامانى .. واستحيوا رحمكم الله من ربكم أن يراكم فارين من عدوكم وأنتم فى قبضته . ليس لكم من دونه ملتحد « ملجأ » ولا عز بغيره .

ويطوف عمرو بن العاص على مجموعته فيقول .. لايهولنكم جموعهم ولا عددهم فانكم لو صدقتموهم الحملة تطايروا تطايرا .

وقائد التوجيه المعنوى أبوسفيان يخطب بين صفوف المسلمين ويقول : قد والله أصبحتم بازاء عدو كثير عدده شديد عليكم حنقه والله لاينجيكم من هؤلاء القوم اليوم ، ولا تبلغوا رضوان الله غدا الا بصدق اللقاء والصبر فى المواطن المكروهة ، الا انها سنة لازمة .

وهذه الكلمة الاخيرة لابى سفيان بن حرب توضح مايستشعره المؤمنون دائما من أن للنصر سننا وقوانين

لابد من التزامها وبها وحدها يتحقق النصر . فلابد من الثبات ، ولابد من ذكر الله ، ولابد من الوحدة والتلاحم فلا تكون فرقة أو خلاف ، ولابد فوق ذلك من الصبر ، كل أولئك مرشحات النصر والغلبة « اذا لقيتم فئة فاثبتوا ، واذكروا الله كثيرا لعلكم تفلحون ، ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم ، واصبروا ان الله مع الصابرين»

هل خرجت كلمات القادة ابتداء من القائد الاعلى خالد ابن الوليد ، الى ابى عبيدة ، وعمرو ، ومعاذ ، وابى سفيان وغيرهم ، عن معانى تلك الاية الكريمة التى تبين عوامل النصر ودستوره ؟

وتبدأ المعركة ثم تدور سجالا بين الفريقين ، يكر هؤلاء حينا وأولئك حينا آخر وتشتد ضراوة المعركة معساعاتها الاولى ويسقط القتلى والشهداء بالمئات والالوف .

***

دور المرأة

وتلعب المرأة دورها فى المعركة ، كان كثير من المهاجرات قد حضرن مع أزواجهن وأبنائهن واجلسهن أبو سفيان خلف صفوف المسلمين وامر بالحجارة فالقيت بين أيديهن ، وكان عليهن القيام بواجبهن الاول وهو مداواة الجرحى وتزويدهم بالماء والثانى هو رد الهاربين اذا حدث أن فر أحد من المعركة « لايرجع اليكن أحد من المسلمين الا رميتموه بهذه الحجارة وقلن له : من يرجوكم بعد الفرار عن الاسلام واهله وعن النساء » بل ان القائد الاعلى نفسه يقطع الصفوف ويصل الى النساء ومعهن أبو سفيان فيلقى بتعليمات واضحة « يانساء المسلمين ايما رجل أقبل اليكن منهزما فاقتلنه » ولقد حدث فعلا أن حملّ الروم على ميمنة الجيش الاسلامى حملة عنيفة حتى انكشفت طائفة من الناس .

يقول ابن كثير « ثم ركبهم من الروم امثال الجبال فزال المسلمون من الميمنة الى ناحية القلب وانكشف طائفة من الناس الى العسكر وثبت صور من المسلمين عظيم يقاتلون تحت راياتهم وانكشف زبيد ثم تنادوا فتراجعوا وحملوا على الروم واشغلوهم عن اتباع من انكشف من الناس واستقبل النساء من انهزم من سرعان الناس يضربنهم بالخشب والحجارة . قال : فتراجع الناس الى مواقفهم » . (١)

لقد دارت فى اليرموك رحى معركة ضارية قاتل فيها الطرفان قتالا رهيبا وقدم المسلمون صورا من الايمان تفوق الحصر هنا وتفوق الوصف وكان من نداء بعضهم لبعض يومها « اين الذين يبيعون انفسهم لله ابتغاء مرضاة الله . وأين المشتاقون الى جوار الله فى داره » . ولقد انتهت المعركة بانتصار المسلمين رغم الفوارق المادية الهائلة .

وعلى نفس الارض اليوم ومن حولها ، فوق المرتفعات وعلى السهول والوديان والاغوار وعلى ارض مصر الصامدة يقف أبناء الامة العربية استعدادا لمعركة المصير ودفاعا عن أرضهم ومقدساتهم ومستقبلهم أمام عدوان عنصرى استعمارى استهدف الارض والعرض ، والمسجد والكنيسة ، والحاضر والحضارة . ومع الضربات التى يوجهونها للعدو الصهيونى تأتى ارهاصات النصر وتلوح بشائره « ولينصرن الله من ينصره ان الله لقوى عزيز »

---

(١) البداية والنهاية لابن كثير ـ الجزء السابع ص ١١



اللواء الركن محمود شيت خطاب

عوامل النصر في الإسلام

« المباغتة من أهم مبادىء الحرب ، والكتمان وسيلة من أهم وسائل المباغتة ، لان العدو الذى يكشف نيات من يحاربه فى وقت مبكر لابد أن يعمل بكل طاقاته لاحباط خططه . وقد كان الكتمان ولايزال وسيبقى من سجايا العربى القدير ، وفوق ذلك فهو عند المسلم الحق دين واجب الاداء »

يقول اللواء الركن محمود شيت خطـاب ان عـوامل النصر فى الاسلام ترتكز على دعامتين اساسـيتين : اولا العقيدة ، وثانيا : الاعداد المادى . وان الاعداد المادى تنظيما وتسليحا وتجهيزا وتدريبا وقيادة لايكفى وحـــده للنصر مالم تصاحبه العقيدة ، والاسلحة بجميع انواعها قديما وحديثا ماهى الا كتل من حديد ، والعامل المسيطر عليها لاستخدامها هو البشر ، والبشر بدون عقيدة لايحقق شيئا . لقد كان تاريخ الفتح الاسلامى العظيم خير شاهد على ذلك ، لقد قادتهم العقيدة قرونا طويلة الى النصر فلما ضعف المسلمون صانتهم هذه العقيدة من الانهيار .

● احمد فراج : لابد للعقيدة من قوة ولابد للقوة من عقيدة ، واذا كانت القوة المادية تعنى الاستعداد المـــادى بكل صوره فان هناك عنصرا هاما نحتاج الىالتاكيد عليه ـ وكان يمثل فىالتاريخ الاسلامى اخطر واهم قاعدة فى الاستعداد ـ وهذا العنصر هـــو « الكتمان والسرية » فما هو المقصود به وهل تعرض القران لهذا العنصر ؟

● يجيب اللواء الركن محمود شيت خطاب فيقول أن الكتمان فى المصطلحات العسكرية الحديثة معناه اخفـــاء المعلومات العسكرية الخاصة بقواتنا واسلحتها وتنظيمها

وتجهيزها وقيادتها وتحركاتها ، عن العدو والصديق معا ، وعدم افشاء الاسرار العسكرية ، مهمة كانت أو غير مهمة ، كبيرة كانت او صغيرة ، لكل انسان سواء اكان هذا الانسان صديقا أم عدوا · وكتمان المعلومات العسكرية عن العدو معروف ولكن الكتمان عن الصديق يحتاج الى توضيح . فالصديق نوعان ، احدهما له علاقه بالقضايا العسكرية فهذا يجب ان يزود بالمعلومات العسكرية بالمقدار الذي يخص واجبه فقط لا زيادة ولا نقصان . ثم هناك صديق لا علاقة له بالقضايا العسكرية وهذا يجب أن نكتم عنه القضايا العسكرية حتى لو كان هذا الصديق هو العائلة التى يعيش معها الرجل العسكرى أو غير العسكرى ·· زوجته ·· أولاده ·· اهله الاقربون·

كل هؤلاء يجب ان يكتم عنهم · وتاريخ الحروب يحدثنا ان العدو يستطيع الحصول على معلومات خطيرة من عائلات العسكريين أو الذين يمتلكون الاسرار العسكرية . وهذا هو اول الاشياء التى طبقها الرسول عليه الصلاة والسلام فى حياته . والصديق قد لا يحكم الكتمان بالنسبة للخبر الذى سمعه ، وقد يكون غير مقدر لاهمية ما اطلع عليه وقد يكون محبا للتظاهر بانه عليم ببواطن الامور فيتحدث يمينا وشمالا وهذا الصديق قد يفشى الاسرار العسكرية بدون قصد متعمد . والاسرار العسكرية يجب أن تحظى بالكتمان الشديد ولا تعطى لمن يذيعها بحجة أو باخرى للعدو أو للصديق على السواء .

ان من يطلع على الاسرار العسكرية بدون قصد أو حتى عن طريق الخطأ يجب أن يصونها بالكتمان لا فرق فى ذلك بين المدنيين والعسكريين ، والدرس الكبير الذى يجب أن يتعلمه العرب من النكسة هو أن يصونوا معلوماتهم العسكرية ويتحلوا باقصى درجات الكتمان .

واذكر انني كنت فى احدى البلاد العربية وكنت فى سيارة تنهب الارض نهبا فسمعت السائق يقول لمن فى السيارة : هنا مطار سرى . والناس لا يستنكرون هذا . وهذه الثرثرة تضر بأمن الجيش الذى هو من صميم الشعب العربى . ان قضايا الكتمان لها نتائج حاسمة على النصر أو الاندحار والامة التى لاتتحلى بالكتمان الشديد لاتنتصر .

من المعلوم ان المباغتة من اهم مبادىء الحرب ، والكتمان هو وسيلة من اهم وسائل المباغتة ، لان العدو الذى يكشف نيات من يحاربه قبل وقت مبكر لابد أن يعمل بكل طاقاته لاحباط خططه وقد كان الكتمان ولايزال وسيبقى من سجايا العربى القدير وفوق ذلك فهو عند المسلم الحق دين واجب الاداء . فمن أمثال العرب : أياك وأن يغلب لسانك عنقك . ومن أمثالهم أن للحيطان آذانا ومنها : صدرك أوسع لسرك .

***

وينبه القرآن الى هذه القضية بطريقة أشمل واكمل فيقول الله « واذا جاءهم امر من الامن أو الخوف أذاعوا به ، ولو ردوه الى الرسول ، والى أولى الامر منهم ، لعلمه الذين يستنبطونه منهم ، ولولا فضل الله عليكم ورحمته لاتبعتم الشيطان الا قليلا » وهذا الامر الالهى يرشد المسلمين ليس الى اهمية الكتمان فحسب بل الى وجوب اخبار المسئولين عن كل أمر يؤثر فى المعنويات تأثيرا على غير اساس أو تأثيرا سيئا ، ليبدوا فيه رأيهم ، ولتقوم أجهزة خاصة بتحليله ودراسته « لعلمه الذين يستنبطونه منهم » فيضعوا حدا لانتشاره واشاعته حتى لايتفاقم ضرره ويتوصل الذين أذاعوه الى أهدافهم من اذاعته بسهولة ويسر . ولذلك يجب أن نخبر المسئولين

بالقضايا المصيرية فورا ، ولكن ليس معنى هذا ازعاج السلطات بالقضايا الشخصية ايضا . وقد حذر الاسلام من أذاعة الاسرار العسكرية وجعل اذاعتها من شأن المنافقين وطلب الرجوع بها الى القيادة العامة كما طلب من المسلمين أن يتثبتوا من الانباء قبل الركون اليها والعمل بها ويقول الله فى كتابه العزيز « يا أيها الذين آمنوا ان جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا .. »

والواقع أن الدروس العملية التى يستطيع المسلمون ان يتعلموها من الرسول القائد عليه الصلاة والسلام فى الكتمان أكثر من أن تعد أو تحصى . وسأقتصر على ذكر نماذج قليلة من الدروس العملية المستنبطة من غزوات الرسول حتى يعرف العسكريون والمدنيون على السواء، ان ألنبى كان يعتمد أقصى درجات الكتمان فى أعماله العسكرية .

فقد بعث النبى عليه الصلاة والسلام سرية من المهاجرين قوامها اثنا عشر رجلا بقيادة عبد الله بن جحش الاسدى للقيام بواجبات استطلاعية وليس للقتال . وتوجهت تلك السرية نحو هدفها فى رجب بعد سبعة عشر شهرا من الهجرة وكان مع قائدها رسالة مكتومة أى مغلقة .. حتى القائد لايعرف ماذا فى الرسالة . وأمره الرسول صلى الله عليه وسلم الا يفتحها الا بعد يومين من مسيرة ... أعطاه اتجاها معينا ورسالة أمره الا يفتحها قبل يومين ، فاذا فتحها وفهم مافيها سارع فى تنفيذها .

● احمد فراج : المرتم الى ان الصديق من العسكريين لا يعرف الا بالقدر الذى يتفق مع واجبه لا اكثر ولا اقل ، وهنا نلاحظ أن

القائد نفسه لا يعرف مضمون الرسالة وهو خارج الى هذه المهمة الاستطلاعية .. فهل هذا مبالغة ؟

● اللواء الركن محمود شيت خطاب :

ـ ليس هنا مبالغة ، ولكن الرسول أعطاه كافة المعلومات فى الرسالة وان لم يفصح عنها لان الموقف فى المدينة يومذاك كان عسيرا .. كان هناك منافقون وكان هناك يهود .. لذلك حرص الرسول الا يعرف أحد على الاطلاق شيئا من مضمون الرسالة ، واراد أن يستوثق من عدم تسرب أى شىء عن فحواها . ثم كان مضمون الرسالة هو « اذا نظرت فى كتابى هذا فامض الى نخلة ـ بين مكة والطائف ـ فترصد بها قريشا وتعرف لنا على أخبارها » وبعد اليومين قرأ عبد الله بن جحش الرسالة واطلع رجاله عليها وأخبرهم أن الرسول أمره الا يستكره أحدا منهم على مرافقته فقالوا لانتخلف عنك ، سمعا وطاعة لرسول الله .

***

نجد هنا أن الرسول ابتكر أسلوب الرسائل المكتومة للمحافظة على الاسرار العسكرية ولحرمان أعداء المسلمين من الحصول على المعلومات التى تفيدهم عن تحركات المسلمين وأهدافهم ، وبذلك أخفى نياتهم عن العدو والصديق . ولقد سبق المسلمون غيرهم فى ابتكار هذا الاسلوب الدقيق فى الكتمان قبل أن يستعمله الالمان فى الحرب العالمية الثانية . وربما يكون للالمان العذر فى ادعاء ابتكارهم للرسائل المكتومة لسبب أو لآخر ، ولكن ماعذرنا فى مشايعة الالمان فى ادعائهم هذا وزعمهم بانهم أول من ابتكروه . اننا نعتقد أن هذا اثر من الاستعمار الفكرى .

ـ نموذج آخر : بلغ النبى صلى الله عليه وسلم بعد شهرين من غزوة أحد أن طليحة وسلمة بن خويلد يحرضان قومهما بنى أسد على غزو المدينة المنورة ونهب أموال المسلمين . وقرر الرسول ارسال دورية قتال بقوة مائة وخمسين من المهاجرين والانصار للقضاء على تلك المحاولة وكان عدد عدوهم بالالوف ، وأمر الرسول صحابته أن يسيروا ليلا ويستخفوا نهارا وأمرهم أن يسيروا فى طريق غير مطروق حتى لايطلع أحد على أخبارهم وبهذا الاسلوب باغتوا بنى أسد فى وقت لا يتوقعونه فحاصروهم فجأة ولم يستطع المشركون الثبات ثم ولوا الادبار تاركين أموالهم وبيوتهم وهربوا وارسل أبوسلمة قائد المسلمين مجموعتين من قوته لمطاردتهم فعادتا بالغنائم . فلو كان بنو أسد قد عرفوا بحركة مائة وخمسين مسلما لكان من السهل عليهم مواجهتهم وربما القضاء عليهم .

الدكتور عبد العزيز كامل

المجتمع المثالي في الإسلام

« ان صورة المجتمع المثالى الذى يرسمه
الاسلام ليست صورة تحوى نفرا من البأذلين
الذين يتصدقون علي نفر من العـــاجزين ٠
ولكنها صورة مجتمع يوفر لابنـــائه فرص
العمل ويدعوهم اليها ما وسعتهم الطاقة ٠٠
ويخطط لهذا الانتاج حتي تســتطيع النفس
الانسانية أن تحقق خير ما فيها ٠٠ »

الاسلام والفقر :

يقول الله تعالى فى كتابه العزيز : « يا أيها النـاس أنتم الفقراء الى الله ، والله هو الغنى الحميد » فوصف الناس جميعا بأنهم فقراء اليه مهما كانت درجة غناهم.

ووصف الانسان بالطغيان فى حالة معينة نستطيـع ان نقرأها فى الآية الـكريمة : « ان الانسان ليطغى ان رآه استغنى » .

واستعاذ النبى عليه الصلاة والسـلام من الفقر ، وجعله قرين الـكفر فى دعائه : « اللهم انى أعوذ بك من الـكفر والفقر ، وأعوذ بك من عذاب القبر ، لا اله الا أنت » .

كما استعاذ من مظاهر الضعف على تنوعها ، الضعف النفسى ، والاجتماعى ، والاقتصادى فى دعائه : « اللهم انى أعوذ بك من الهم والحزن ، وأعوذ بك من العجز والـكسل ، وأعوذ بك من الجبن والبخل ، وأعوذ بك من غلبة الدين وقهر الرجال » .

فكيف نستطيع أن نجمع بين معانى الآية والحديث : « الفقر ــ الذى هو صفة لازمة للبشر ــ فى الآية الاولى والفقر الذى استعاذ منه النبى صلى الله عليه وسـلم وجعله قرين الـكفر فى دعائه ؟

يعود بنا هـذا الجمع الى تصوير الاسـلام لموقف الانسان من هذا الـكون الذى يحيا فيه .

فالله سبحانه وتعالى جعل الانسان خليفته فى أرضه وخلق له السماوات والارض ، وفى هذا يقول : « هو الذى خلق لـكم ما فى الارض جميعا ثم اسـتوى الى السماء فسواهن سبع سـماوات وهو الذى أنشـأكم. وجعل لـكم السمع والابصار والافئدة قليلا ماتشكرون»

وهذه القوى اعتبرها أمانات أو ودائع يسـتخدمها الانسان فى الخير وينفق منها فى الصالح « وإنفقوا مما جعلـكم مستخلفين فيه » .

ـ والانسان مسئول عن عمله هذا : « فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره ، ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره » .

ويستطيع الانسان أن ينمى هذه القوى التى منحها له خالقه ، ويستطيع أيضا أن يسىء اسـتخدامها : « قد أفلح من زكاها وقد خاب من دساها » .

فهناك اذن أمران واضحان : أفراد منحهم الله فيضا من هذه القوى ، وافراد كان نصيبهم منها محدودا . وكل من هؤلاء وهؤلاء يستطيع أن يستفيد من هذه المنح الالهية على تنوعها .

فهل يكون ثمرة ما يحصل عليه الفرد الذى منحه الله فيضا من نعمه ، مقصورة على هذا الفرد وحده ؟ وهل يمكن اعتبار هذه الثمرات ـ فعلا ـ ملـكا خاصا له ؟

من الممكن اعتبارها ملـكا خالصا اذا كانت الادوات والقوى التى استخدمها ملـكا خالصا . ولـكننا رأينا انها عطايا الله ومنحه ، وعن طـريق هـذا المنح الالهى استطاع الفرد أن يعمل وأن ينتج الانتاج الوافر. ومن هنا يبدو حق الله فى مال الفرد ، ويبدو افتقار الفرد الى الله . انه افتقـار المخلوقات جميعـا الى خالقهـا

وموجدها ، وبه يتضح المقصــود من قوله تعــالى : « يا أيها الناس أنتم الفقراء الى الله ، والله هو الغنى الحميد » .

فاذا ظن الانسان فى نفسه القدرة على الاستغناء عن الله كان طاغيا يدخل فيمن عنــاهم الله بقوله : « ان الانسان ليطغى أن رآه استغنى » . ولم يقل الله تعالى « ان استغنى » فالطغيــان هنا حالة نفسية لا حالة اقتصادية وكذلك الفقر الى الله تعالى ، ومن الممكن أن يكون الانسان على قدر كبير من الغنى، ومع هذا يحس الافتقار الدائم الى الله تعالى ، لا يطغيــه المــال ، ولا تضطرب عيناه أمام زهرة الحياة الدنيا ، يملك المــال ولا يملــكه المال ، هذا هو الغنى الفقير ، الغنى بما عنده الفقير دائما الى ربه ، المؤمن ان هذا كله ــ فىحقيقته ــ ملك الله تعالى .

وقد يكون الانسان محدود المال ، ولــكن يظن فى نفسه الغنى، ويتخذ منهذا المال ــ رغم قلته ــ وسيلة للتجبر والسيطرة ، فهذا هو الطغيان المذموم الذى نهانا عنه الله سبحانه وتعالى .

نستطيع أن نخرج من هــذا بأن المقصــود من الآية الــكريمة : « يا أيها الناس أنتم الفقراء الى الله » حالة نفسية خاصة يؤمن فيها الفرد بافتقاره الدائم الى ربه وحاجته اليه ، وان الطغيان المذموم حالة نفسية أخرى يظن فيها الفرد انه يستطيع بماله أن يسيطر ويتجبر ويستغنى .

صور من الماضى :

ولقــد كان أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم على هذا الاحساس الكريم بالافتقار الى الله ، وأورثهم هذا زهدا فى المال وهو فى أيديهم ، وفضلوا أن يعينوا به

محتاجا أو يطعموا به جائعا أو ينفقوه فى سبيل الله ، ونشر كلمته ، على أن يتمتعوا هم به متعة مادية فانية. كانت متعتهم الحقيقية أن يسعد الناس وأن يستظلوا بالظل الوارف ، كان مالهم وعلمهم كضوء الشمس لا يبخلون به على محتاج .

على هذا فضلوا المعيشة الخشنة ، وهم يمتلكون المال ، وآثروا غيرهم بما عندهم ، رغبة فيما عند الله وحبا لعباده .

١ ـ ومازلنا نذكر أبا بكرالصديق وقد حضرته الوفاة والى جواره عائشة أم المؤمنين رضي‌الله‌عنهما ، والخليفة الصالح يجيل عينيه فيما حوله ويذكر أمر الخلافة وما قام به مخلصا من أجل الدين ، ويخاطب ابنته قائلا :

يا بنية : انا ولينا أمر المسلمين فلم نأخذ لهم دينارا ولا درهما ، ولكنا أكلنا من جريش طعامهم فى بطوننا ، ولبسنا من خشن ثيابهم على ظهورنا ، وانه لم يبق عندنا من فىء المسلمين قليل ولا كثير ، الا هذا العبد الحبشى وهذا البعير الناضح ، وجرد هذه القطيفة ، فاذا مت فابعثى بهن الى عمر .

ولما انتقل أبو بكر الى جوار ربه ، ذهب رسول من بيته الى عمر يقود البعير ويصحب العبد ويحمل القطيفة فبكى عمر حتى سالت دموعه على الارض ، وقال رحم الله أبا بكر لقد أتعب من بعده ، ارفعهن يا غلام .

٢ ـ على هذا الاساس كانوا ينظرون الى الدنيا ويؤدون حقوق الله وحقوق العباد ، ويروى مالك بن أوس أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، كان يحلف على ايمان ثلاثة ، يقول : « والله ما أحد أحق بهذا المال من أحد ، وما أنا أحق به من أحد ، والله ما من المسلمين من أحد الا وله فى هذا المال نصيب الا عبدا

مملوكا ، ولكنا كنا على منازلنا من كتاب الله عز وجل وقسمنا من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فالرجل وبلاؤه فى الاسلام ، والرجل وقدمه فى الاسلام ، والرجل وغناؤه فى الاسلام ، والرجل وحاجته ، والله لو بقيت لهم ليأتين الراعى بجبل صنعاء حظه من هذا المال وهو يرعى فى مكانه » .

٣ ــ وكان عمر يقول : « انى انزلت نفسى من هذا المال بمنزلة ولى اليتيم ، ان استغنيت استعففت ، وان احتجت استقرضت فان أيسرت قضيت » .

٤ ــ ورأى احد أصحابه تضييقه على نفسه فقال له : « لو وسعت على نفسك فى النفقة من مال الله تعالى » فقال عمر : « مثلى ومثل هؤلاء كمثل قوم كانوا فى سفر ، فجمعوا منهم مالا فسلموه الى واحد ينفقه عليهم ، فهل يحل لذلك الرجل أن يستأثر عنهم من أموالهم ؟ .

اسرة كبيرة :

بهذه الروح السمحة يتحقق فى المجتمع معنى الاسرة الكبيرة الواحدة المتكافلة .

وبين على بن ابى طالب رضى الله عنه هذه العلاقة فى خطاب وجهه الى الاشتر النخعى واليه على مصر : « وأشعر قلبك الرحمة للرعية والمحبة لهم واللطف بهم ولا تكونن عليهم سبعا ضاريا تغتنم أكلهم ، فانهم صنفان : اما أخ لك فى الدين أو نظير لك فى الخلق ، يفرط منهم الزلل وتعرض لهم العلل » .

١ ــ ويتابع على رضى الله عنه توجيه واليه فيقول : « الناس كلهم عيال على الخراج وأهله ، وليكن نظرك فى عمارة الارض أبلغ من نظرك فى استجلاب الخراج ، لان ذلك لا يدرك الا بالعمارة ومن طلب الخراج بغير

عمارة اخرب البلاد واهلك العباد ولم يستقم أمره الا قليلا » .

وبهذا وضع على رضى الله عنه ثلاثة مبادىء للحكم الصالح وهى : التنمية الاقتصادية ، ثم العدالة فى التوزيع والاخاء الانسانى . وعبر عن الاولى ، التنمية الاقتصادية ، بعمارة الارض ، وعن الثانية بأن الناس جميعا غيال على الخراج واهله ، وأكد الاخوة الانسانية العامة فى قوله عن الناس : « أخ فى الدين أو نظير فى الخلق » .

٢ ـ ويصور النبى صلى الله عليه وسلم هذا التكافل بين افراد المجتمع الكبير بقوله : « انا أولى بكل مؤمن من نفسه ، ومن ترك مالا فلأهله ، ومن ترك دينا أو ضياعا فالى وعلى » .

٣ ـ ويؤكد عليه الصلاة والسلام ، الروابط القوية بين افراد الاسرة الصغيرة ، وحقوق الجيران ، وحقوق الاهل ، كما يؤكد حق المجتمع الكبير كله ، فيجعل الترابط قويا ، فى كل هذه المستويات ، من مستوى الاسرة الصغيرة الى مستوى المجتمع كله ، والاحاديث فى هذا كثيرة يكفى أن نذكر منها دعوته العامة الى التراحم : « ارحموا من فى الارض يرحمكم من فى السماء » .

دعوة الى الانتاج :

١ ـ ويبين النبى صلى الله عليه وسلم ان اليد العليا خير من اليد السفلى ، وفى هذا حث واضح على العمل والكسب .

٢ ـ ومن قبل هذا ذكر الله تعالى قصة آل داود فى كتابه ومدح فيها العمل بقوله : « اعملوا آل داود شكرا ، وقليل من عبادى الشكور » وامتن على داود بقوله : « والنا له الحديد » .

٣ ـ فاذا كانت الارض ميدان العمل ، لتحقيق

وجودنا فيها يقتضي منا الانتاج الذى لا يعرف التوقف والجهد المتصل فى عمارتها والرقى بها • ويأتى هـذا بطريقين واضحين :

أ ـ أن يبذل القادر ما يستطيع من جهد ثم يعود بفضل الجهد على المجتمع .

ب ـ أن يرعى المجتمع أفراده باتاحة فرصة العمل للقادر من ناحية والاخذ بيد الضعيف من ناحية اخرى على أساس من التكافل الذى يعتبر المواطنين جميعا أبناء أسرة واحدة كبيرة .

فكيف يحرر الاسلام الفرد من مظاهر الضعف ويدفع به الى العمل والانتاج ؟

التحرر من الضعف :

أشرت فى صدر هذه الكلمة الى استعاذة النبى صلى الله عليه وسلم من مظهرين كبيرين من مظاهر الضعف : الكفر والفقر ، خلو القلب من الايمان ، وخلو الجيب من المال .

واستعاذ أيضا من ثمانية مظاهر للضعف جمعها الحديث الثانى : « اللهم انى أعوذ بك من الهم والحزن وأعوذ بك من العجز والكسل ، وأعوذ بك من الجبن والبخل ، وأعوذ بك من غلبة الدين وقهر الرجال » .

ويحسن أن نقف قليلا عند هذا الحديث متأملين ما فيه من دعوة قوية الى تحرير النفس من كل مظاهر الضعف .

هذا الحديث قصة متكاملة الحلقات تبدأ من الفكرة وتنتهى الى ما بعد العمل وتهيىء النفس لتقبل نتائجه والاستعداد لتبعاته .

يبدأ الحديث بالاستعاذة من الهم والحزن ..
والحزن يكون على شىء مضى ، والهم لشىء مستقبل .

والاستعاذة هنا تحرير النفس من أن يتوزعها أسى على شيء مضى أو اضطراب امام خوف مجهول مستقبل ، ونفس هذا التدعيم النفسي نستطيع أن نقرأه في قوله تعالى : « ان الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا تتنزل عليهم الملائكة ألا تخافوا ولا تحزنوا » الا تخافوا من أمر مقبل ولا تحزنوا على شيء مضى .

بهذا يجمع هذا الدعاء نفس الانسان ويوجهها الى مغالبة الواقع الذى تحيا فيه وبناء المستقبل الذى تعمل من أجله مستفيدة ـ دون انطواء ـ من الماضي الذى كانت فيه .

فاذا ما تحررت النفس من الهم والحزن ورغبت في العمل ، فقد يقعد بها الكسل مع القدرة ، أو العجز ، وهو انتفاء القدرة ، ومع ان نتيجة الامرين واحدة ـ وهى عدم الانتاج ـ الا أن السبب مختلف .. يضطرب بين الكسل والعجز ، من أجل هذا يستعيذ النبى صلى الله عليه وسلم منهما .

فلننظر الى هذه النفس وقد تحررت من الهم والحزن والعجز والكسل وأقدمت على العمل ، ما العقبات التى بقيت فى الطريق ؟

هذه العقبات قد تكون اقتصادية وقد تكون اجتماعية .. قد تكون جبنا عن مواجهة المسئولية أو بخلا بالمال فى سبيل القضية التى يؤمن بها الانسان ، الاول مظهر ضعف اجتماعى ، والثانى مظهر ضعف اقتصادى ، والاثنان يعوقان العمل ـ اى عمل .

فاذا تحرر الانسان من هذين المظهرين من مظاهر الضعف وخاطر فى العمل فهو أحد رجلين : اما منتصر يذكر فضل الله عليه ويحس افتقاره الدائم اليه ، دون طغيان .. واما أن تخونه التجربة فيضعف اقتصاديا

او اجتماعيا .. وعبر الحديث عن الاولى بقوله : «غلبة الدين » وعن الثانيه بقوله : « قهر الرجال » والمسلم يستعيذ من هذين المظهرين من مظاهر الضعف ويعاود التجربة من جديد دون هم أو حزن ، ولا عجز أوكسل .

وبهذا يعطيه الحديث الشريف زادا نفسيا قويا فى كل مراحل السير ، ويعطيه الزاد فى كل تجربة جديده فاذا انتصر ذكر ربه وفضله ، واحس حق الله وحق الناس فى ثمار عمله ، وعاد الى مجتمعه يبادله الخير ويتعاون مع افراده على أساس من الاخاء الكريم .

التكامل العضوى فى بناء المجتمع :

يبدو من هذا ان الجانب الاقتصادى فى الاسلام لا يمكن فصله – بحال من الاحوال – من بقية جوانب الحياة الاسلامية ، فبين هذه الجوانب تكامل عضوى كأنها الجسد الواحد ، وفى هذا يمتاز الاسلام بأنظمته من كافة الانظمة الاخرى .

الاقتصاد فى الاسلام ليس صناعة مال ، وعملياته فى الاسلام ليست مجرد تنمية دخل واعادة توزيعه – انها شىء أبعد من هذا واعمق واوسع ، انها جزء من نظام اجتماعى متكامل لا يفرق بين الصلاة والزكاة ولا بين الاخلاق والاقتصاد ، الافراد فيه ليسوا آلات صماء تنتج وتعمل ويوفر لها الطعام كأنه زيت آلة ، والخدمات الطبية كأنها أعمال صيانة .

الانسان فى ظل الاسلام كائن لروحه حقوق ، ولبدنه حقوق ، ولأسرته حقوق ، ولعمله حقوق . وعليه واجبات حيال هذا كله .

كائن يتعاون مع مجتمعه دون فناء ولا قضاء على المسئولية الفردية ، ودون تضييع لحق المجتمع فى نفس الوقت .

ولننظر الى هذا التكامل فى أمر المال ، وأقصد هنا كيف يعبر الجانب الاقتصادى فى الاسلام تعبيرا صادقا عن روحه العامة ونظريته الكلية .

يقول الله تعالى : « خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها وصل عليهم ان صلاتك سكن لهم » .

فأخذ المال هنا ـ وهو حق الله ـ عملية مادية خالصة ـ فى مظهرها ـ ولكن الآية الكريمة تربط بين هذا الاعطاء المادى البحت وبين الاساس الروحى الذى يرتكز عليه وتعتبر البذل تطهيرا للنفس وتزكية

ودعاء النبى صلى الله عليه وسلم للمؤمنين تثبيت لهم ، والدعاء أمر روحى ولكن التثبيت له نتائجه العملية التى تبدو فى تصرفات الانسان .

من اجل هذا يربط الله تعالى بين العمل وصورته ودوافعه فيقول : « قول معروف ومغفرة خير من صدقة يتبعها أذى والله واسع عليم » .

فاذا كان الانسان لا يملك المال فليقل الكلمة الطيبة ، وهى فى ذاتها صدقة ، كما قال النبى عليه الصلاة والسلام ، واعتبرت الآية الكريمة هذا أفضل من صدقة مادية يتبعها أذى .

بل ان الاسلام ليربط بين هذا البذل المادى والجزاء الاخروى .. بين الغيب والشهادة .. بين الدنيا والآخرة ويجعل من هذا كله بنيانا فكريا متكاملا له أبعاده المادية والروحية ، وتستطيع ان تقرأ هذا فى صدر كتاب الله : « آلم ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين ، الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون والذين يؤمنون بما انزل اليك وما انزل من قبلك وبالآخرة هم يوقنون ، أولئك على هدى من ربهم وأولئك هم المفلحون » .

فجمع فى هذه الآيات بين الصلاة وانفاق المال ، وبين الايمان بالغيب والعمل فى الدنيا ، ووسع دائرة الايمان فشملت النبوات جميعا ، وحدد وضع المؤمن فى الكون والمجتمع .

ورحمتى وسعت كل شىء :

ومن هذه العقيدة الكلية تنبثق العلاقات الاجتماعية الكريمة مهما كانت أسماؤها .

ولنحاول دائما أن نحدد نسبتها إلى العقيدة الكبيرة ، وهى عقيدة ليست من صنع بشر ، ولكنها هدية الله لخلقه ، يهديهم بها سبيلهم ، وتعطيهم مجالا واسعا فى العمل والانتاج : « هو الذى جعل لكم الارض ذلولا فامشوا فى مناكبها وكلوا من رزقه واليه النشور » ، وتدعم العلاقات بينهم على أساس من الرحمة والمحبة والايثار .

وقد مدح الله تعالى الانصار بقوله : « ويؤثرون على انفسهم ولو كان بهم خصاصة ، ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون » .

وجعل التراحم غير قاصر على البشر وحدهم ، وانما يمتد فيشمل المخلوقات جميعا ، والنبى عليه الصلاة والسلام يقول : « ان لكم فى كل ذات كبد رطبة اجر »

مجتمع منتج :

ان صورة المجتمع المثالى الذى يرسمه الاسلام ليست صورة تحولى نفرا من الباذلين الذين يتصدقون على نفر من العاجزين ، ولكنها صورة مجتمع يوفر لابنائه فرص العمل ويدعوهم اليها ما وسعتهم الطاقة ، ويخطط لهذا الانتاج حتى تستطيع النفس الانسانية أن تحقق خير ما فيها .. فاذا عجز انسان ـ وهو فى طريق الانتاج ـ كان على المجتمع أن يحمله ويرعاه ،

دون أن يحطمه ركب الحياة المتدافع ، ويوفر له من الخدمات ما يعينه على أن يسير أول أمره ، ويتابع سيره اذا احتاج الى عون بعد ذلك ، ومن هنا يأتى وضع قطاعين رئيسيين من قطاعات الحياة فى المجتمع المثالى : الاول قطاع الخدمات ، والثانى قطاع الانتاج ، وينظمهما معا تخطيط دقيق مبنى على أساس علمى يحصر القوى ويفتح لها المجال .

والفرد فى عمله هذا كله مؤمن بفضل الله عليه واطلاعه على عمله ، وان امر المسئولية لا يقتصر على مكافأة المجتمع أو عقوبته وانما يمتد الى جزاء اخروى : « ونضع الموازين القسط ليوم القيامة فلا تظلم نفس شيئا ، وان كان مثقال حبة من خردل أتينا بها ، وكفى بنا حاسبين » .

وميزة هذا الايمان انه يطلق النفس الى العمل والانتاج ، ويضع فيها الرقيب العلوى الذى لا تستطيع قوة فى الارض أن تحل محله ، يمنحه الراحة الى عدل لا يخطىء ورحمة لا تزول ، ومراجعة دقيقة لكل صغيرة وكبيرة : « وان الى ربك المنتهى » ، « وان الى ربك الرجعى » .

وبعد : فهذه معالم سبيل ننظر الى مراحله ، ونحقق منها ما نستطيع ، يدعونا اليها ايمان بأنفسنا ، وبمجتمعنا وبالاخاء الانسانى — وايمان بواهب هذا كله — : « ان هذه تذكرة ، فمن شاء اتخذ الى ربه سبيلا » .

احمد فراج

الموت .. والحياة

« ان الله عز وجـــل لينعى رسوله عليه الصلاة والسلام وهو حى ، ويقرأ محمد نعى ربه له على المسلمين ويؤمهم به فى الصـلاة فى قرآن تلاه ومن معه ، ولانزال نتلوه ولن نزال الى يوم الدين ، وذلك حيث يقول الله تعالى « انك ميت وانهم ميتون ، ثم انكم يوم القيامة عند ربكم تختصمون » .

لكل لفظ يتردد على السنتنا ولكل كلمة ، مدلول يعبر عن معنى أو حقيقة ، وكلما ارتقى وعى الانسان واستعلن الايمان فى وجدانه ، اصبح للكلمات المعنى الذى تدل عليه بلا زيادة أو نقصان ، والحقيقة التى تمثلها ، بلا خداع للنفس عنها أو غفلة تفسدها .. وما أحوجنا — فى كل الظروف — الى أن نربى انفسنا على قيمة الكلمة ، اى كلمة ، حتى لاتجرى الكلمات على السنة الناس فاقدة الحس والمعنى ، أو مجردة عن الحقيقة والواقع .

وكلمة « الموت » من بين تلك الكلمات ، نسمعها ونرددها ، وكلما اقترنت ببعيد ، لم يكن لها فى النفس وقع ، فاذا اقترنت بقريب زاد أثرها ووقعها .. وهكذا .. كلما اشتدت قربا ، حتى ليتجاوز هذا الاثر فى النفس احيانا حدود العقل ، فلا يصدق الانسان الحقيقة ، أو يتجاوز حدود الشعور .. فيفقد الاتزان .

واقرب شيء يدلنا على ذلك صفحة الوفيات كل يوم نقرؤها ، اذا خلت ممن نعرف .. فان كلمة الموت أو قل صفحة الموت ، لاتعدو أن تكون أخبارا غير ذات قيمة ، فاذا اقترنت بمن نعرف عزيناه ، أو قريب نحزن من أجله وهكذا .. أما الموت نفسه فلا يكون له المعنى ولا يعبر

* نشرت فى ٣ اكتوبر ١٩٥٠

عن الحقيقة التى قال رسول الله صلى الله عليه وسلم عنها « كفى بالموت واعظا » .

ومن عجب ان المسلم حين يقرأ القرآن ، يجد فيه الحياة والموت ، يرد ذكرهما كثيرا متجاورين ، كلفظتين تدل كل منهما على معنى وحقيقة من أكبر حقائق الوجود ، وأكثر العجب أن تستغرق الانسان حقيقة واحدة منهما هى الحياة ، وينسى ـ أو يكاد ـ الموت مع أن الله خلقهما معا ليختبر عمل الانسان . او لعله قد ركب فى طبيعته البشرية ما يجعله لا يرتاح الى الانشغال بتلك الحقيقة .

لقد ذهبت احصى فى القرآن الكريم مادة « موت » فوجدت أن كلمة الموت واشتقاقاتها وردت فيه مائة وخمسة وستين مرة ، وكلمة « الموت » وحدها خمسا وثلاثين مرة ، وهى تأتى فى اطار الحديث عن تلك الحقيقة الكبرى ، التى تظهر قدرة الله ، وخالقيته ، ووحدانيته ، وتفرده بالبقاء ، وترتبط بالبعث والحساب ومعان اخرى كثيرة ..

الذى خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملا (٢ ـ الملك)

والله يحيى ويميت والله بما تعملون بصير (١٥٦ ـ آل عمران)

لا اله الا هو يحيى ويميت (١٥٨ ـ آل عمران)

كل نفس ذائقة الموت ونبلوكم بالشر والخير فتنة (٣٥ ـ الانبياء)

أينما تكونوا يدرككم الموت ولو كنتم فى بروج مشيدة (٧٨ ـ النساء)

وهى كلمة على لسان كل نبى ، حتى ان عيسى عليه الصلاة والسلام عندما انطقه الله فى المهد صبيا ، اجراها

على لسانه حجة وبيانا « والسلام على يوم ولدت ويوم أموت ويوم أبعث حيا » (٧٣ ـ مريم) . وهذا محمد عليه الصلاة والسلام يقرأ على الدنيا قرآن ربه ـ وهو نفسه مقصود به « وماجعلنا لبشر من قبلك الخلد أفان مت فهم الخالدون » (٣٤ ـ الانبياء)

بل ان الله عز وجل لينعى رسوله عليه الصلاة والسلام وهو حى ، ويقرأ محمد نعى ربه له على المسلمين ويؤمهم به فى الصلاة فى قرآن تلاه ومن معه ، ولا نزال نتلوه ولن نزال الى يوم الدين وذلك حيث يقول الله تعالى « انك ميت وانهم ميتون ، ثم انكم يوم القيامة عند ربكم تختصمون » (٣٠ ـ ٣١ الزمر)

***

ولنرجع الى سيد الاولين والاخرين واحب خلق الله على الله ـ عليه الصلاة والسلام ـ عندما أمره ربه ان ينذر عشيرته الاقربين فى أول أمر الدعوة الاسلامية ، أنه يجمع قومه ، ليلقى فيهم اول خطبة له سجلها التاريخ فماذا يقول ، انه يتحدث أيضا عن الحقيقة الكبرى وبأوضح صورة لها « ... والله لتموتن كما تنامون ، ولتبعثن كما تستيقظون ، ولتحاسبن بما كنتم تعملون ، ولتجزون بالاحسان احسانا ، وبالسوء سوءا ، وانها لجنة ابدا أو نار أبدا » .. هكذا ومنذ اللحظة الاولى . ثم يمضى بينهم ثلاثة عشر عاما داعيا الى الله لايكل ولا تفتر همته ، ويرفض الاغراء والتهديد والوعيد ويتحمل الابتلاء بشتى صوره وأقساها ، ويدفع عنه أبوبكر مرة عندما هموا به وهو يقول : أتقتلون رجلا أن يقول ربى الله ؟ ثم يدبرون محاولة لاغتياله عندما ايسوا من أمره ، بعد أن فكروا فى تثبيته فى الحديد .. « واذ يمكر بك الذين كفروا ليثبتوك او يقتلوك أو

يخرجوك » ولكن الله ينجيه من غدرهم بعد اذ ظنوا أنهم قاتلوه ومفرقو دمه فى القبائل على أيدى فتيان من كل قبائلهم وبيوتهم . ثم يستهل رسول الله صلى الله عليه وسلم حياته الجديدة فى المدينة المنـــــورة بعد مهاجره اليها ليبدأ مرحلة جديدة من الجهاد المرير لبناء المجتمع الاسلامى ، ولحماية هذا المجتمع ، ولرفع الظلم والعدوان الذى وقع به وبالمسلمين بعد أن اذن الله له بذلك

ثم تكون سرايا وغزوات ، وتكون غزوة بدر الكبرى وانتصار المسلمين فيها ، ويبيت المشركون للثأر ويعودون فى العام التالى لمعركة أحد ، وليس هنا مجال الحديث عن المعركة .. ولكننا نريد أن نقف عند حدث سبق أن ألمحنا اليه ، عندما دارت الدائرة على المسلمين بعـــد انتصارهم أول الأمر لخروج بعض المســـلمين عن طاعة الرسول القائد عليه الصلاة والسلام ، لقد أشيع بين المسلمين ان رسول الله قتل فانصرف بعضهم عن المعركة .

ولم تترك السماء هذا الموقف دون ان تسجله فى درس وبيان وهدى للناس الى يوم الدين وذلك حيث يقـــول الله تعالى « وما محمـــد الا رســـول قد خلت من قبله الرسل ، أفإن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شـــيئا وسيجزى الله الشاكرين » (١٤٤ ـ آل عمران) وارجو أن أنقل هنـــا بتصرف يسير عن تفسير الامام الطبرى من تحقيق العالمين الجليلين المرحوم الشيخ احمد محمد شاكر والاســـتاذ محمود محمد شاكر حفظه الله ، يقول الامام ابو جعفر الطبرى فى تفسير الآية ، وما محمد الا رسول كبعض رسل الله الذين أرسلهم الى خلقه ، داعيا الى الله والى طاعته ، الذين حين انقضت آجالهم ماتوا وقبضهم الله اليه ، فمحمد انما هو كسائر رســـله الى خلقه الذين

مضوا قبله وماتوا عند انقضـــاء مدة آجالهم . ثم قال لاصحاب محمد ، معاتبا لهم على ماكان منهم من الهلع والجزع حين قيل لهم بأحد « أن محمدا قتل » ومقبحا اليهم انصراف من انصرف منهم عن عدوهم وانهــزامه عنهم : افان مات محمد ، أيها القوم ، لانقضـــــاء مدة أجله ، أو قتله عدو انقلبتم على أعقابكم » يعنى : ارتددتم عن دينكم الذى بعث الله محمداً بالدعاء اليـــه ورجعتم عنه كفاراً بالله بعد الايمان به ، وبعد ما قد وضحت لكم صحة مادعاكم محمد اليه ، وحقيقة ماجاءكم به من عند ربه « ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئا » لن يوهن ذلك عزة الله ولا سلطانه ولا يدخل بذلك نقص فى ملكه ، بل هو يضر نفسه بردته ، وبنقص حظ نفسه بكفره « وسيجزى الله الشاكرين » وسيثيب الله من شكره على توفيقه وهدايته اياه لدينه ، بثبوته على ماجاء به محمد صلى الله عليه وسلم ان هو مات أو قتل ، واستقامته على منهاجه وتمسكه بدينه وملته بعده . »

ذلك أنهم يوم أحد حين أصابهم القرح والقتل تناقلوا نبأ نعى رسول الله فقال أناس « لو كان نبيا ما قتل » وقال آخرون من علية الصحابة « قاتلوا على ما قاتل عليه محمد نبيكم حتى يفتح الله لكم أو تلحقوا به » .

***

ذلك اختصار شديد لكثير مما قيل فى الآية الكريمة « وما محمد الا رسول قد خلت من قبله الرسل » وهى عنـــاية واضحة بتسجيل وقائع بعض النفوس وما صدر منها اثر تلك الاشاعة ، ثم انتقال الى افتراض آخر هو انه حتى لو كانت حقيقة ، فما ينبغى أن تصرف المسلمين عن مواصلة الجهاد فى سبيل ما آمنوا به وما دعاهم محمد اليه .

أن الحياة لا تتوقف بموت انسان كائنا من كان حتى لو

كان هذا الانسان هو محمد عليه الصلاة والسلام ، انه لم يخترع الايمان والكرامة والحق والشرف والعدل وسائر المثل العليا .. ولكنه يهديهم باذن ربه اليهـا جميعـا ، وهو لا يهدى أحدا بنفسه « انك لا تهدى من أحببت . ولكن الله يهدى من يشاء » وهو مكلف بالتبليغ فحسب « ان عليك الا البلاغ » وهو لا يملك من أمر نفسه شيئا ، ولا يعلم شيئا من غيب الله « ولو كنت أعلم الغيب لاستكثرت من الخير وما مسنى السوء » وحتى أجله لا يعرف شيئا عنه وما تدرى نفس بأى أرض تموت .

***

ومرض رسول الله صلى الله عليه وسلم مرض الوفاة ، وخرج على المسلمين لينعى نفسه اليهم بنفسه . يقول ابن اسحق: حدثنى ايوب بن بشير ان رسول الله صلى الله عليه وسلم ـ فى مرضه ذلك ـ خرج عاصبا رأسه حتى جلس على المنبر ، ثم كان أول ما تكلم به انه صلى على أصحاب أحد ، واستغفر لهم ، فأكثر الصلاة عليهم ، ثم قال : « ان عبدا من عباد الله خيره الله بين الدنيا وما عنده ، فاختار ما عند الله » فكان أبو بكر الصديق هو الذى فهمها وعرف أن الرسول يقصد نفسه ، فبكى وقال : « بل نحن نفديك بانفسنا وأبنائنا » فقال : على رسلك يا أبا بكر . وروى أن الرسول قال يومها فى كلامه « لو كنت متخذا من العباد خليلا لاتخذت أبا بكر خليلا ، ولكن صحبة واخاء ايمان ، حتى يجمع الله بيننا عنده » .

وعن عائشة رضى الله عنها قالت : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم كثيرا ما اسمعه يقول : ان الله لم يقبض نبيا حتى يخيره . قالت : فلما حضر رسول الله صلى الله عليه وسلم كان آخر كلمة سمعتها وهو يقول : بل الرفيق الاعلى من الجنة ، بل الرفيق الأعلى من الجنة .

ولا يستطيع الانسان أن يتخيل وقع الخبر على المسلمين، هنا فحسب ، تقصر الكلمات عن بلوغ المعنى وتصوير الحقيقة ، لقد كان عليه الصلاة والسلام أحب اليهم من انفسهم ، آمنوا به وتحملوا معه ، وجاهدوا وراءه وتأدبوا بأدبه .. وقد تكفى هنا شهادة عروة بن مسعود ، عندما شاهد الرسول وسط صحابته وهو يفاوضه مندوبا عن مشركي قريش عام الحديبية فقد رجع اليهم يقول : يا معشر قريش ، انى قد جئت كسرى فى ملكه وقيصر فى ملكه والنجاشي فى ملكه ، وانى والله ما رأيت ملكا فى قوم قط مثل محمد فى أصحابه ، ولقد رأيت قوما لا يسلمونه لشيء أبدا .

***

ويشتهر فى الناس قول عمر بن الخطاب لما توفى رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ان رجالا من المنافقين يزعمون ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قد توفى ، وان رسول الله صلى الله عليه وسلم ما مات ، ولكنه ذهب الى ربه كما ذهب موسى بن عمران ، فقد غاب عن قومه اربعين ليلة ثم رجع اليهم بعد أن قيل قد مات ، ووالله ليرجعن رسول الله صلى الله عليه وسلم كما رجع موسى ، فليقطعن أيدى رجال وأرجلهم زعموا ان رسول الله صلى الله عليه وسلم مات » .

وكلنا يعرف ما قاله أبو بكر ، بعد وفاة الرسول وبعد أن دخل الى بيت عائشة والقى نظرة الوداع على الجثمان الطاهر لرسول الله ثم اقبل عليه فقبله ثم قال : بأبى أنت وامى ، أما الموتة التى كتب الله عليك فقد ذقتها ، ثم لن تصيبك بعدها موتة أبدا » ثم خرج للناس فحمد الله واثنى عليه ثم قال قولته المشهورة « ايها الناس انه من كان يعبد محمداً فان محمدا قد مات ومن كان يعبد الله فان الله حى

لا يموت » ثم تلا الآية « وما محمد الا رسول قد خلت من قبله الرسل .. »

هل توقفت الحياة ؟ ان رسول الله قد مات لا مراء فى ذلك ، والناس كأنهم لم يعلموا أن هذه الاية نزلت حتى تلاها أبو بكر يومئذ. انجيش اسامة كان يستعد للتحرك شمالا الى حدود الروم ، والقبائل العربية التى دخلت الاسلام حديثا قد ارتد أكثرها واشتعلت نار الفتنـــة ، والعدو هناك فى الشمال يترصد فرصة كهذه لينقض على هذه الدعوة التى ملأت الجزيرة العربية وهى فى طريقها الى العالم أجمع والتى توشك فى نفس الوقت أن تواجه تمزقا داخليا رهيبا هو فى ذاته الفرصة المواتية للانقضاض .

***

هل تتوقف الحياة ؟ ان أبا بكر الخليفة الاول يأمر بانفاذ بعث اسامة كما أوصى رسول الله ، ويقف أمام اتجاهات متعددة بين الصحابة الذين رأوا عدم خروج اسامة خوفا من الخطر الذى يتهدد قاعدة الاسلام ذاتها فى المدينة . ويخرج الجيش بداية للاستمرار العظيم ويحقق اهدافه ثم يعود لتبدأ حروب الردة التى عصمت الاسلام وابقت شعلته مضيئة عبر الزمان ، وحمل المسلمون لواء رسول الله من بعده وقد ترك فيهم العقيدة والمبدأ « تركت فيكم ما أن تمسكتم به لن تضلوا بعدى أبدا ، كتاب الله » .

د . محمد عبد الرحمن بيصار

الوقت في حساب الإسلام

« الوقت جزء من معركتنا ضد التخلف ..
أقول انه جزء من المعركة ، وأنا أعتقد أن إيقاظ
الاحساس بالوقت في وجودنا .. معركة قائمة
بذاتها .. وما أحوجنا الى أن نلهب احساسنا
بقيمة الوقت وأهميته ، فالشعوب المتقدمة تقطع
مراحل من التطور في كل ساعة .. بل في
كل دقيقة .. !

كثير من المشكلات التى يعانى منها المجتمع ، ترجع فى التحليل النهائى لها الى اسباب اخلاقية ، فكلما اتجه المرء لبحث جذور هذه المشكلات سواء ما كان منها فى الناحية الاقتصادية أو الاجتماعية أو غيرها ، يجد أنها تضرب فى الارض فى تربة غير صحية لا توفر شروط الانبات السليم ومن ثم لا تكون الشجرة كما نرجو لها « أصلها ثابت وفرعها فى السماء » وانما تكون « كشجرة خبيثة أجتثت من فوق الارض مالها من قرار » . والحق انه لو كان الرصيد الذى نصدر عنه فى كافة تصرفاتنا يرتكز على مقومات أخلاقية كافية ، وملتزمة ، لانتفى كثير من اسباب الشكوى فى جوانب مختلفـــة من انشطة الحياة ، ولانتفت محاولات التفسير والتبرير لما نقع فيه من اخطاء حيث تبدأ المفاهيم والقيم العامة للمجتمع وللفرد تخضع بدورها للتفسيرات والتبريرات الملتوية فنجد « التوكل » مثلا يأخذ شكل « التواكل » و « العمل » ياخذ طابع « الفهلوة » ويلتبس « الصدق » بغلالة من « الرياء » وهكذا .

ولذلك فان تصحيح المفاهيم ، والالتزام الدقيق بأبعادها وحدودها الموضوعية ، يأتى فى مقدمة الشروط لنهضـــة سليمة ، بل يكاد يكون ضرورة حياتية لمجتمع نام لا تزيغ فيه

العقول وانما تستقيم على نظرة واعية ومستوعبة لحقائق الاشياء والقيم .

ومن اهم القيم التى يجب أن يتشبث بها مجتمعنا بل وكل المجتمعات النامية قيمة «الوقت». لقدقيل ان الوقت من ذهب ، وهو تقويم للوقت بمعيـــار مادى ذى قيمة واضحة وثمينة ، فهل يأخذ الوقت فى مفهوم الاسلام نفس القيمة أم ان النظرة اليه تعتمد معيارا آخر .

***

● يقول الدكتور محمد عبد الرحمن بيصار : ان الوقت فى جملته وفى النظرة العـــامة اليه يعتبر وعاء للنشاط الانسانى وندرك جميعا انه لا يمكن انفصال اى عمل من اعمال الانسان عن اعتبار الوقت أو الزمن ، ولا يمكن ان نقيس أى واجهة من واجهات الوجود دون أن يكون لاعتبار الوقت دخل فى هذا المقياس . ولقد قيل ان الوقت كالسيف ان لم تقطعه قطعك اى اننا يجب أن نستغل أوقاتنا وأن نقدر كل لحظة فى كل وجه من أوجه نشاطنا فلا نضيعه ولا نستهين أو نستخف به ولا نفرط فى جزء من أجزائه. دون أن ننتج او نبدل او ننجز شيئا لانفسنا او لمجتمعنا او لغيرنا من الناس ، عندئذ نشعر أن وجودنا قد اكتمــل وان الاطار العام لوجودنا وهو الزمن قد استغل على خير وجه وأكمله لصالح الانسانية . فاذا ما جئنا من وجهة النظر الاسلامية وموقف الاســـلام من الوقت نجد أول ما يواجهنا فى القرآن الكريم كقاعدة عامة قول الله تعالى « يسالونك عن الاهلة قل هى مواقيت للناس والحج » فالمبدأ العام فى الاهلة ان تكون للتوقيت ، أن نعرف الوقت ونصنفه ونقسمه وننظمه ، ان نعرف مبدأ اى أمر ونهايته. متى يجب علينا ان نفعل كذا او نقوم بفرض من الفرائض او نكف عن كذا . اى أن الزمن لا يمكن أن يرسل هكذا دون

تصنيف ووضعه فى وحدات اعوام ، واشهر وأيام وساعات ودقائق وثوان لنستطيع ان نقيس بها اعمالنا ، فاذا ما أتينا الى الناحية التطبيقية نرى ان الاسلام قد اعتبر هذا الوقت فى كل عباداته .. فى الصلاة « ان الصلاة كانت على المؤمنين كتابا موقوتا » صلوات الصبح ، والظهر والعصر وهكذا ، حتى النوافل كصلاة الضحى ، قدرت لهـا أوقات معينة ارتبطت بها العبادة لحكمة أرادها الله . ولو نظرنا الى هذه الاوقات نجد أن هناك رباطا بين هذا الوقت وبين المقصود من هذه العبادة ، ففى الفجر متلا نجد ان هناك فارقا بين الظلام والنور وهو مبدأ خروج النور وظهوره ومبدأ الحياة اليومية للانسان وجاء فى الاثر « ما من يوم ينشق فجره الا وينادى ، يابن آدم انا خلق جديد وعلى عملك شهيد فتزود منى فانى لا اعود الى يوم القيامة » ولا شك أن خير الزاد التقوى .

وكذلك فى سائر الاوقات .. وقتت اوقات معينـــــة ودخل الوقت كعنصر فى ادائها بحيث لو أديت خــــارج هذا الوقت لما كانت على الوجه الاكمـــــل ولذلك اعتبروا الصلاة التى تؤدى فى وقتها أداء ، والتى تكون خارج وقتها قضاء وتسمو الاوقات الى وقت فضيلة ووقت اختيار ، ووقت جواز بكراهة ، ووقت جواز بلا كراهة ، ووقت حرمة وما الى ذلك بمعنى أن الذى ينحرف بالصلاة عن هذا الوقت المعين لا تكون صلاته على الوجه الاكمل المرموق .

هذا من ناحية الصلاة

***

ولقد حبب الرسول عليه الصـــلاة والسـلام فى الصلاة فى أوقات معينة فقال لن يجد النار أحد صلى قبل طلوع الشمس وقبل غروبها والقرآن الكريم نفسه ينص

على الذكر فى أوقات معينة « واذكر ربك فى نفسك تضرعا وخيفة ودون الجهر من القول بالغدو والاصال ـ وسبح بحمد ربك قبـل طلوع الشمس وقبل غروبهـا ـ وسبح بحمد ربك بالعشي والابكار ـ أقم الصلاة طرفى النهار وزلفا من الليل » .. كل هذه الآيات تعطينا فكرة واضحة هى الربط بين العبادة وبين أوقات معينة اختارها الله لها .

واذا انتقلنا الى ناحية أخرى نجد ان الاسلام أعطى تقديرا خاصا للوقت فى الدعاء . روى عن أبى هريرة أن أبا بكر الصديق قال : يا رسول الله ، مرنى بكلمات أقولهن اذا أصبحت أو أمسيت . قال « قل اللهم رب كل شيء ومليكه، أشهد الا اله الا أنت ، أعوذ بك من شر نفسي وشر الشيطان وشركه ، قال قلها اذا أصبحت واذا أمسيت واذا أخذت مضجعك » فقد أمره الرسول أن يقول الدعاء اذن فى ثلاثة أوقات ، اذا أصبح .. لانه يستقبل فترة من فترات حياته الجديدة مليئة بالنشاط والخيرات،فيتجه بالدعاء والضراعة الى الله يرجو منه أن يوفقه فى هذه الفترة المقبلة ، يوفق فى اعماله فيأتى من الخير ما يرضيه ، يوفق فيما يقدم لامته ولمجتمعه من الخدمات ما يجب عليه لها وفى أن يكون مقبلا على الله وأن يكون عمله مثمرا ، كذلك يقولها اذا أمسى لماذا ، لانه يودع فترة ويستقبل اخرى وقـد يهجع فيهـا ويرجع الى الله فيلجأ اليه بالتضرع . واذا ما جاء الى مضجعه وتهيأ له أن ينفصل حسيا من هذا الوجود بالنوم يقول هـذا الدعاء مرة أخرى .. لانه لا يدرى ان كان سيقبض الى الرفيق الاعلى وهو نائم او سيرتبط مرة أخرى بهذا الوجود المحسوس ، وعنـدئذ أوصاه الرسول عليـه السلام بأن يقول هذه الكلمات فى هذه الأوقات الثـلاثة اعتبارا لها وارتباطا بزمنها لحـكمة ولغرض معين اراده الرسول عليه الصلاة والسلام .

وعندما أمرنا الاسلام بأن نعمل الخير قال افعلوا الخير .. متى نفعله ؟.. فى أول حياتنا ، فى وسط عمرنا ، فى آخر عمرنا .. هل نفعله فى طفولتنا أو شبابنا أو كهولتنا ؟

لا .. ان هذا الامر المطلق امرنا الله به أن نسارع فى الخيرات ، ادخل عنصر الزمن من جديد فى عمل الخير .. «سارعوا الى مغفرة من ربكم وجنة عرضها السموات والارض» « والسابقون السابقون أولئك المقربون » فهو سباق .. استبقوا .. تعجلوا .. اسرعوا ما أمكن فى عمل الخير ، لا تتباطئوا لان الزمن له حساب فى هذا العمل وله حساب فى جزائكم عليه ولذلك قال « فاستبقوا الخيرات الى الله مرجعكم جميعا فينبئكم بما كنتم تعملون » فليكن أكثركم سرعة فى عمل الخير أقربكم الى الله سبحانه . وقصة زكريا عليه السلام فى القرآن التى روتها الاية الكريمة « وزكريا اذ نادى ربه رب لا تذرنى فردا وانت خير الوارثين ، فاستجبنا له ووهبنا له يحيى وأصلحنا له زوجه » لماذا ؟ « انهم كانوا يسارعون فى الخيرات » اذن فعنصر الوقت له دخل ايضا فى الدعاء . وفى آية أخرى يقول الله عز وجل « ان الذين هم بربهم لا يشركون والذين يؤتون ما أتوا وقلوبهم وجلة انهم الى ربهم راجعون .. أولئك يسارعون فى الخيرات » ليس كذلك فقط ولكن .. « وهم لها سابقون » ..

ففوق انهم يسارعون هم سابقون الى الخيرات . حتى فى حديثنا اليومى فى محاضراتنا .. فى سمرنا .. أمرنا أن نقتصد فى الكلام . لماذا ؟ لنحافظ على وقتنا حتى لا نضيعه هباء . اذا كنت أؤدى غرضى بكلمة لا اتحدث عشر كلمات، اذا كنت أؤديه فى دقيقة لا اتحدث ساعة أو أكثر لانى بذلك أكون أسرفت فى وقتى الثمين وفى مجهودى والاسراف فى الوقت شانه شان الاسراف فى اى شىء حيوى فى حياتنا

كالطعام والاسراف فى المـال والمـاء وكل شيء يكون مقوما ضروريا لحياتنا ، لان الوقت كمـا قلنـا.مرتبط بوجودنا ارتباطا كليا فاذا أسرفنا فيه فقد فرطنا فى وجودنا وحياتنا.

ولذلك أذكر ان أعرابيا تكلم عند رسول الله وأطال فقال الرسول له « كم دون لسانك من حجاب ». فقال الاعرابى: شفتاى وأسنانى ، فقال الرسول « فان الله عز وجل يكره الانبعاث فى الكلام ، فنضر الله وجه امرىء أوجز فى كلامه فاقتصر على حاجته » لماذا الايجاز ؟ ليدخر وقتا يوفره لما هو أنفع ويوفر جهدا بشريا . قال بعض الحكماء « كلام المرء بيان فضله ، وترجمان عقله ، فاقصره على الجميل واقتصر منه على القليل » .

وقال أمير المؤمنين على بن أبى طالب فى حديث له : « رحم الله عبدا لزم الطريقة الغراء واغتنم المهل وبادر الاجل وتزود من العمل » اغتنم المهل أى اغتنم الوقت الذى يمهل فيه ليعمل شيئا ولينجز وينتج ويثمر فلا يتركه هباء ولا يقص قصصا فارغا ، ويقضى وقته فى لعب الطاولة وما أشبه ذلك .

يلحق بهذا الامر المبادرة بالاعمال .. أمرنا أن نبادر كما امرنا أن نسارع ، ولعلى المح من هـذا ان المبـادرة أبلغ من المسارعة فقد أسارع ولكن لا أبادر فيجب أن انتهز أول وقت ممكن لأؤدى فيه العمل ،وفى ذلك يقول الرسول عليه الصلاة والسلام « بادروا بالاعمال الصالحة » ويوضحه فى رواية أخرى من أبى هريرة « بادروا بالاعمال سبعا : هل تنتظرون الا فقرا منسيا ، أو غنى مطغيا ، أو مرضا مفسدا ، أو هرما مفندا (أى مضعفا) أو موتا مجهزا ، أو الدجال ، فشر غائب ينتظر ، أو الساعة فالساعة أدهى وأمر .. يعنى بادروا بالاعمال الصالحة فلماذا أنتم منتظرون ولماذا تتراخون فى الاعمال، اسبقوا اليها وانتهزوا الفرصة

تلو الفرصة لتقوموا بها . ولذلك أيضا كان ادخال عامل الوقت فى الفوز العظيم بالدرجات العلى والنعيم المقيم .

ويروى أيضا أن الرسول صلى بأصحابه وبعد ان فرغ من الصلاة تخطى مسرعا الى احدى حجرات زوجاته ففزع الناس لاسراع الرسول بهذا الوقت وراى الرسول بعد مودته انهم يتعجبون فقال عليه الصلاة والسلام « كنت قد خلفت فى البيت تبرا من الصدقة (ذهبا) فكرهت ان أبيته» أنظر كيف أسرع ، نسى أنه ترك شيئا فى البيت فبعد أن فرغ من الصلاة لم ينتظر حتى يختم صلاته ويقول التسابيح على مهل ، بل ذهب ليوزع الصدقة على الفور ، فبمجرد تذكره اراد أن يسرع ليرد الحق الى اهله حتى لا يكون محاسبا عليه .

***

● هكذا يتضح من تناول الدكتور محمد عبد الرحمن بيصار الامين العام لمجمع البحوث الاسلامية أن الوقت فى نظر الاسلام شيء أثمن من الذهب وانه « الحياة » وهناك الحاح من الاسلام على قيمة الوقت فى حياة المسلم الفرد والمجتمع الاسلامى ، وهو يربى الفرد على الاحساس بهذه القيمة من خلال العبادات كلها ، أوقات الصلاة .. هناك مبتدأ لكل فرض ونهاية له وبينهما وقت يتفاوت الثواب مع التبكير أو التأخير فى أداء العبادة خلاله . الصيام له بداية ونهاية ويبطل الصوم مثلا اذا طعمت بعد الفجر بلحظة ويبطل اذا أكلت قبل الغروب بلحظة اذا تعمدت ذلك والزكاة تجب فيما تجب فيه بمواقيت محددة والحج له أشهر معلومات وهكذا .

وما أحوجنا الى أن نلهب احساسنا بقيمة الوقت وأهميته، فالشعوب المتقدمة تقطع مراحل من التطور فى كل ساعة ودقيقة وتقفز قفزات هائلة فى مضمار التقدم العلمي . وليس

واجبنا فحسب أن نعنى بقيمة الوقت بل ان نعوض ماقاتنا فليس يكفى أن نسير بمعدلات التقدم التقليدية لان مسافة الخلف تحتاج الى تعويض ضخم يحتم علينا أن نسارع وأن نسابق الزمن . لقد ألفنا أن نسمع فى دواوين الحكومة عبارة « فوت بكره » أو « بعد يومين ثلاثة » أو « بعد أسبوع أو عشرة أيام » هكذا ببساطة يتمطى الزمن دون حساب وكل دقيقة لها قيمتها بل وكل ثانية .

***

واذكر اننى ركبت قطارا من فرانكفورت فى ألمانيا الى أوترخت فى هولندا لمسافة يقطعها القطار فى سبع ساعات ونصف ، ووقع نظرى على جدول الوصول والتحرك الى ومن المحطات التى سيمر عليها ولفت نظرى انه لا يصل الى محطة أو يتحرك منها فى أجزاء منتظمة من الساعة كالربع أو الثلث أو النصف ، وانما يصل الساعة كذا والدقيقة ١٣ — ١٦ — ١٩ ويقوم الساعة كذا والدقيقة ١٤ — ١٧ — ٢١ وهكذا .. وظننت ساعتها ان أولئك الناس قد اختلت عقولهم .واحببت ان ألبتلنفسىذلك فتسليت بمتابعة تلك المواعيد ، وأشهد ما وجدتها تخلفت ثانية واحدة فى مسافة الـ ٧ الساعات والنصف ، ثم لاحظت أن كثيرا من المواعيد الرسمية تحدد بطريقة غريبة فيقولون لك مثلا : دقيقة بعد السادسة واقول لنفسى ولماذا لا تكون تمام السادسة . ويخيل الى الآن ان هذا أسلوب فى تربية الاحساس بالزمن وبقيمة الوقت نحن احوج اليه من تلك الشعوب فالوقت جزء من معركتنا ضد التخلف ومن أجل العمل والانتاج وضد عدونا . أقول انه جزء من المعركة ، وأنا أعتقد ان ايقاظ الاحساس بالوقت فى وجودنا .. معركة قائمة بذاتها ..

البهى الخولى

الخالقية

« ان القلب الذى يبدو لنا غامضـــا فى المفهوم له حواس بنص كلام الله تعالى ، بهـا يبصر ويدرك وبهـا يسمع ويفهم الحقائق · واذن يكون للانسان نوعان من الحواس ، الحواس الظاهرة الخمس المعروفة ، وبهـا يواجه حقائق الكون الظـاهرة ، والحواس الباطنة وبهاندرك الحقائق الباطنةفى هذا الكون»

يقول الاستاذ البهى الخولى : اننا نسمع ونقرأ بالفعل عن أصحاب الرسول صلى الله عليه وسلم ، من استجابة لله ولرسوله حققوا فيها مبادىء وقيما وصورا لبذل المال والروح، واستنزلوا انتصارات رائعة،فلايكون مناالاالاعجاب اما تحقيق ما حققوه وما مثلوه فاننا نشاهد ان نصيبنا منه لا يعدو الاستماع بكثير ، ونحن نتساءل عن السبب فى اننا نقصر عن اللحاق بالصحابة فى هـذا المضمار ، ويبدو للاجابة على هذا السؤال اننا محتاجون الى أن نرجع قليلا الى الوراء لنسأل أنفسنا ، ماذا نفعـل فى هـذا الـكون ؟ وما هى وظيفتنا ؟ ولمـاذا جئنـا الى هنا ؟ ويجب الا نتعجل فى الاجابة ، وانما نسأل الذى جاء بنا ، لو سألتنى مثلا عن فعل معين لماذا فعلته ؟.. فسوف أجيب بأننى أريد أن أحقق من المقاصـد كذا وكذا . اما اذا سألتنى تلك الاسئلة السابقة لماذا أنت هنا ، وما مهمتك فى هذه الحياة ، فهذا أمر لا يرجع فيه الى شخصى لاننى لم أصنع نفسى ، وانما يرجع فيه الى الذى خلقنى . والذى خلقنى واوجـدنى هو الذى خلق البشرية فكأننا نسأل فى الواقع ، ماذا تصنع البشرية هنا ؟ الله سبحانه وتعـالى يقول عن هـذه الحقيقة ، ويقرر حكمة ايجاده للخلق فى قوله : « وما

خلقت الجن والانس الا ليعبدون » ، وكثيرا ما نظن ان العبادة هي أداء ركعات الصلاة والصيام وما الى ذلك من أنواع العبادة ، ولكن العبادة التي يريدها الله سبحانه في هذا المقام ، هي أن يحرر الانسان ، ظاهرا وباطنا ، من كل عبودية غير عبوديته لله ، فلا يكون هناك اطلاقا أي سلطان على القلب أو على ظاهر الانسان وأمره وحياته لكائن من كان ، ولا يبقى في الحياة غير سلطان الله ، سلطان الحق والخير والعدل ، أي أن مهمة الانسان ، ومهمة الانسانية التي جاء بها الله الى هذه الارض ، هي أن يقيموا في الارض حضارة مثلى ، وعماد هذه الحضارة اقامة سلطان الله في الارض .ومن اجل هذه المهمة التي القاها الله علينا .. من أجل الحضارة التي كلفنا بها ، لم يخلقنا سدى ، وانما دبر لنا أمورا ثلاثة :

الامر الاول : انه جعل لنا في الارض خيرات وثروات ، لكي تكون عدة للانسان في اقامة هذه الحضارة ولا ينبغي أن نتصور ان تلك الثروات للشهوة أو اللذة ، فالحديد مثلا لم يخلقه الله لنأكله أو نشربه ، وانما لان له دورا في اقامة الحضارة التي أرادها الله

الامر الثاني : أن الانسان لكي يقيم هذه الحضارة فلا بد له من علم يعلمه ، فجعل الله لنا هذا الكون صحيفة .. كتابا مفتوحا نطلع فيه ونقرأ ونعرف ما شاء الله لنا من العلم ومن الحكمة ، التي بها أيضا ندبر ونقدر أمر الحضارة التي أرادها لنا .

الامر الثالث : ان الله جهزنا وأعدنا ، ووهب فينا المواهب والملكات والحواس ، التي نحصل بها العلم ، ونستطيع أن ندبر أمر الحضارة .

وهذه الحواس والمواهب والملكات عبر الله عنها في

القرآن بقوله : « والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئا ، وجعل لكم السمع والابصار والافئدة لعلكم تشكرون » أي أخرجتم من بطون أمهاتكم لا علم لكم ، ولكى يكون لكم علم ، جهزكم بهذه الملكات ، السمع والابصار والافئدة ، فاذا حصلتم من العلم والمعرفة ما تطمئنون اليه ، أحدث ذلك فى نفوسكم شيئا من مشاعر الشكر لله ، ولذلك ختم الله الاية بقوله : «لعلكم تشكرون»

ونريد أن نتوقف عند هذه المواهب حتى نفهم أنفسنا على الاقل . وليس السمع والابصار والافئدة هى مواهب الانسان فقط ، فهناك الحواس الخمس وهى كلها وسيلة من وسائل تحصيل الانسان للعلم . تبقى الافئدة ، والفؤاد هو القلب فلماذا ذكر الله الفؤاد او القلب فى مجال تحصيل العلم ؟ الله تعالى يقول فى آية اخرى : « ولا تقف ما ليس لك به علم ، ان السمع والبصر والفؤاد ، كل أولئك كان عنه مسئولا » اى ان الفؤاد ملكة او حاسة رؤية .

اننا نلاحظ ان الله قرر ان للقلب حواس سمع وبصر ، فالله يقول : « لهم قلوب لا يفقهون بها ولهم آذان لايسمعون بها ولهم أعين لا يبصرون بها» ويقول : « فانها لا تعمى الابصار ولكن تعمى القلوب التى فى الصدور » واذن ، فالقلب الذى يبدو لنا غامضا فى المفهوم له حواس بنص كلام الله تعالى ، بها يبصر ويدرك وبها يسمع ويفهم الحقائق . واذن ، مرة اخرى، وبنص القرآن الكريم يكون للانسان نوعان من الحواس، الحواس الظاهرة الخمس المعروفة ، وبها يواجه حقائق الكون الظاهرة ، والحواس الباطنة وبها ندرك الحقائق الباطنة فى هذا الكون . وبين قوسين نقول ان الفيلسوف الكبير ديكارت يقرر ان للانسان حواسا داخلية أو

باطنة ، وان هذه الحواس الباطنة فى مقابل الحواس الظاهرة ، تدرك الامور المحسة فى الكون والباطنة تدرك الحقائق الخفية فيه ، وهكذا نرى أن ما قرره ديكارت داخل فيما قرره القرآن الكريم منذ ١٤ قرنا ، وهو معنى تطيب له نفوس المؤمنين .

***

ونعود الى الحواس الظاهرة والباطنة وما تبصره من حقائق ظاهرة أو باطنة . ما هى الحقائق الباطنة ؟ واريد ان نقف قليلا حتى نعرف أنفسنا ونعرف ما بالحياة ، فان عدم معرفتنا هو الذى جعلنا متأخرين عن صف الصحابة ولن نسرد الحقائق الباطنة فهى كثيرة جدا ، ولكنا سنكتفى بحقيقة واحدة هى الاولى التى يجب أن يعرفها الانسان أول ما يعرف . نحن نرى الحقائق الظاهرة بالعين فنرى لها ـ مثلا ـ لونا وطولا وعرضا وحجما .. أما الحقائق الباطنة فليس لها لون أو طول أو عرض ، وحين ينظر الانسان الى الكون فى لحظة صمت وخلوة ، ويتفكر ويتأمل ، يجد ان هذا الكون لم يخلق نفسه ، لم يخلق من غير شىء ، هذا الكون لا بد له من خالق خلقه . وهذه الحقيقة السهلة جدا هى أولى الحقائق التى يجب أن نعرفها فى الكون وهى احدى الحقائق الخفية وكذلك كل ما فى الكون من كائنات ، الشمس تجرى مثلا فلا بد من أحد يجريها ، والذى يراد لنا أن نبصره فى هذا الكون من الحقائق الخفية هو هذا النوع من الرؤية .. ان نبصر فى الكون معنى الخالقية وان الكائنات مخلوقة .

***

ونلاحظ أن القرآن الكريم يدربنا على هذه الرؤية العقلية ـ وليست البصرية ـ فمثلا امسك كوبا من

الماء ماذا يقول الله عنه حتى يدربنا على رؤية الحقائق الخفية : « افرأيتم المـاء الذى تشربون ؟ » .. نعم ، انه فى كوب نظيف ، فيه صفاء ، وله حجم و .. قال : لا .. انا لا اريد رؤية البصر ، وانما أريد رؤية أخرى هى : « أانتم انزلتموه من المزن ام نحن المنزلون ؟ » فالله يريد أن نشهد بالحاسة الباطنة معنى الخالقية فى هذا المـاء . اما أن نشرب دون أن نلحظ معنى الخالقية فيه فهذا ما لايريده . لمـاذا أبصرت عيناى حجم المـاء وكميته وصفاءه ، ولماذا لم تبصر الحاسة الباطنة هذه الحقيقة السافرة ..! أانتم انزلتموه .. أم نحن ؟ يريد الله أن يكون لنا نظر الى الـكون من هذا القبيل فيقول فى حالة اخرى : « افرأيتم النار التي توقدون » نعم ، نحن نرأها ، قال : لا ، لا اريد رؤية البصر أيضا وانما اريد معنى الخالقية « أانتم انشأتم شـجرتها ؟ » لا « أم نحن المنشئون ؟ » انت المنشيء ، كذلك قوله : « افرأيتم ما تحرثون ؟ أانتم تزرعونه أم نحن الزارعون» اى انه يريد أن نلحظ الخالقية فى كل شيء ، وهكذا نجد فى القرآن الكريم تربية واعدادا وتوجيها الى مشـــاهدة الحقيقة الاولى فى الـكون وهى الخالقية .والمخلوقية ، فاذا كانت العين تنظر فى الكون فترى كائنات كثيرة لا عدد لها ، فان هذه الـكائنات فى رؤية الحاسة القلبية ليس لها سوى مدلول واحد هو إنها كلها سلب مخلوق لا ايجاب له فى ذاته ، لا يوجـد كائن واحـد قد خلق نفسه او ذرة واحدة من الذرات وانما الخالق للـكل هو الله تبـارك وتعالى .

يفزع الحسيون والملحدون من هذا المنطق ويرفضونه ويقولون ان السببية التى تقولون بها ان هى الا عادة اكتسبها عقل الانسان من تجارب الواقع ، وتجارب

الواقع هى انني اشعر بالعطش فاشرب فيكون الماء سببا فى اذهاب العطش ، تتحرك الاشجار فيكون الريح هو الذى حركها ، فالانسان فى تجاربه يتعود أن يفترن فى ذهنه السبب بالمسبب ، والسببية ليست فطرية فى ضمير الانسان وانما هى حكم عقلى مكتسب .

ونحن نقول تعالوا بنا الى طفل صغير ينظر الى السماء فى ليلة مقمرة ، ثم يفاجىء اباه أو أمه قائلا : من الذى خلق القمر ؟ ونحلل السؤال . عين الطفل أبصرت القمر ، وفى الوقت نفسه أبصرت الحاسة الداخلية فى القمر شيئا آخر ، أبصرت انه لابد لهذا القمر من صانع . كل هذا يدور فى الجهاز الفكرى فى الطفل الذى لا يدرى شيئا ، فى فطرة الله ، وعندما تنطق الفطرة انه لابد من خالق .. اذن من الذى خلقه ؟ وهذا السؤال من الطفل اما أن يكون ناشئا من تجارب ، واما أن يكون ناشئا من فطرة . فهل للطفل تلك التجارب وهو غفل من كل تجربة ، انه يستقبل الحياة وشئونها بصحيفة بيضاء ، ويبقى اذن انه سؤال نازع عن فطرة اصيلة فى ذهن الطفل ، من جهاز فطرى ينظر فى الكون فيرى الخالقية والمخلوقية .

واذا دربنا هذه الحاسة الباطنة فسنرى كل الكائنات موضع صنع الله وتدبيره ، موضع الازالة والمحو والاثبات والاعادة والله هو المتصرف فيها ، فاذا أشرقت هذه الحقيقة فى باطن الانسان حتى صارت بديهية نبصرها كما نبصر ضوء الشمس ، اعتقد انه لا يبقى فى ضمائرنا ووجداننا سوى شيء واحد هو الفاعل فى الوجود ، هو صاحب الايجابية المطلقة التى لها كل شيء من الفعل فى الكون ، وهو الله تبارك وتعالى

***

● ماذا نفعل فى هذا الكون ؟

لماذا جئنا الى هنا ؟
ما هي وظيفتنا التى خلقنا من أجلها ؟

اسئلة يجيب الله عليها فيقول « وما خلقت الجن والانس الا ليعبدون » . هل خلقنا اذن لنصلى ونصوم ونقوم بسائر الشعائر التى امر بها الله . لو كان الامر كذلك لاصبح فهمنا للعبارة فهما محدودا .. ان العبادة فى الاسلام شيء أكبر من ذلك ، فهى تنتظم الحياة كلها ، بمعنى أن الاسلام جعل الحياة محرابا واسعا يتعبد الانسان فيه لله بكل قول وعمل فالعبادة تخرج بهذا المفهوم عن صور العبادة الشرعية الى آفاق أخرى رحبة وفسيحة .. ان العبادة التى يريدها الله هى أن يحرر الانسان نفسه ظاهرا وباطنا من كل عبودية غير عبودية الله حتى لا يبقى على نفسه سلطان غير سلطانه عز وجل. فالانسان هنا اذن يقيم حضارة من نوع فريد ومن أجل تحقيق ذلك أمدنا الله بامور ثلاثة ، خلق لنا الثروات والخيرات ، وجعل لنا الكون صحيفة للعلم والمعرفة ، وامدنا بالملكات والمواهب والحواس التى هى أدوات المعرفة . وفهمنا من القرآن ان لكل انسان نوعين من الحواس ، الاولى ظاهرة ـ كالحواس الخمس ـ والثانية باطنة يبصر بها المرء ما وراء الظاهرات والكائنات فيعرف أن الله هو خالق الظاهرات والكائنات وانه رب كل شيء ومليكه .. وفى كلمة .. يبصر طابع « الخالقية » فى هذا الكون كله .

● يقول الاستاذ البهى الخولى ، عندما يعيش الانسان فى هذا الافق الجليل ، أفق الخالقية ، بعقله وقلبه وفكره .. بالحاسة الباطنة ، فانه يتثقف بثقافة الافق الذى يحيا فيه . نحن الان لسنا فى أفق الحسية ، وانما فى أفق علوى يسوده معنى الخالقية اى انه لا فاعل فى الكون

الا الله أما ونحن فى محيط الحس قبل أن نسمو الى مستوى الخالقية كان كلامنا عن الحس والمادة وهنا اكتسبنا أمرا جديدا باشراق الحاسة الباطنة واكتشاف الافق الجديد . هناك اذن نوعان من الثقافة ، ثقافة الحس وهى عبارة عن أنانية محضة . هى تريد .. تأخذ .. تجمع .. أما الثقافة الروحية التى نحن فى صددها فهى ثقافة ايجابية .. ثقافة منح .. وعطاء وقوة .

وحين يعيش الانسان بوجدانه وذهنه وفكره فلا يُجد فى الكون الا هذه الطاقات الايجابية لله تبارك وتعالى ، تكون أعصابه كلها متأثرة بخالقية الله وطاقاتها ،فلا يكون للانسان تفكير فى هذا الكون الا التفكير المتمشى مع الخالقية، ولا يرى نفسه مفارقا لمشيئة الله « وما تشاءون الا أن يشاء الله » ويصبح الانسان مظهرا لمشيئة الله تبارك وتعالى فى هذا الكون . وحين صار الصحابة رضوان الله عليهم الى هذه الخالقية التى رفعهم اليها ورباهم عليها وفهمهم اياها مولانا رسول الله صلى الله عليه وسلم صاروا مثلا رائعة .. طلب اليهم أن يستجيبوا لله فاستجابوا ، طلب اليهم أن يبذلوا المال ــ والثقافة الروحية ثقافة بذل وليست ثقافة حس تدعو الى الشح والبخل ــ فكانوا أسخياء سمحاء ، طلب اليهم أن يبذلوا أرواحهم ، فبذلوها ، فأنزل الله عليهم من الانتصارات ما نعلم .

لماذا ؟ .. لانهم فى مجال الطاقات العلوية الالهية ، التى تمد أربابها واصحابها بما شاء الله لهم من نصر .. لماذا كان الصحابة كذلك ولماذا لم تكن نحن كذلك .. الصحابة حين رفعهم رسول الله الى مستوى الخالقية وأيقظ لهم حواسهم الباطنة ، أدركوا من حقائق الوجود الحقيقة الاولى وهى الخالقية والمخلوقية فصارت لهم

هذه الطاقات في فعل الخير وفي تحقيق المثل والقيم . اما نحن فما دمنا في حاجز الحس ونقتصر على سماع الموضوعات الدينية والاستمتاع بها فلا نكون في المستوى المطلوب . لقد قال الفيلسوف ديكارت أن الحواس الباطنة هي حقيقة الانسان وهي وجود الانسان . وذلك حق . فاذا لم نثر هذه الحاسة الباطنة التي هي حقيقة الانسان لكي نرى حقائق الوجود الباطنة فنحن محبوسون في حيز لا يشعر بنا أحد .

● **تلك الحواس الباطنة التي يرى بها الانسان معنى الخالقية موجودة في فطرة الانسان بحكم تكوينه ، ومعنى هذا أنها كانت موجودة في الصحابة كما هي موجودة فينا أيضا ، فكيف نبرزها ونروض أنفسنا عليها ونربيها على ايقاظ رنين الحاسة التي نرى بها الخالقية والمخلوقية ؟**

● يقول الاستاذ آلبهي :

نحن مستعدون أن نرى الخالقية ، ولكن كيف .. الواقع أن الطفل الذي ينظر الى الكون .. والى القمر ، فيقول مثلا من الذي خلق القمر .. هذا السؤال يبين أن الحاسة الباطنة عند الطفل سليمة ، وهذا الطفل خال كل الخلو من مشاغل الدنيا ومن مشاغل العلم .. من التطلعات الى جاه الدنيا وزينتها وزخرفها . وهذا الخلو جعل حاسته الباطنة سليمة ليس عليها غشاوات .. ولكن ، اتركه قليلا وانتظر الى أن يقترب من سن المراهقة واجعله يتصل بشئون الحياة ، تجد أن شئون الحس ومشاغل الحياة ظلت تظهر من محيط الحس الى أن تغطى على الحاسة الباطنة ، فاذا به يصبح مثلنا ، لايرى ولا ينظر . اذن ما هي الطريقة التي اتبعها الاسلام لعلاج هذه المشكلة .

هناك طريقتـان ، طريقة عقلية فـكرية .. وطريقة تربوية . أما الطريقة العقلية فهي المنهج الذى يحـرص فيه على ربط الانسان بحقيقة الخالقية فى الكون ويذكره دائما بما وراء الرؤية البصرية للأمور .. فكوب الماء الذى نشربه تشهده العين المجردة ، ولكن الله يريد منا أن نرى فيه شيئا وراء الماء فيقول : «أفرأيتم الماء الذىتشربون؟» فاذا كانت الاجابة نعم قال هـو .. لا .. لا أريدكم أن تبصروا هذا الماء فى ذاته ولكنى اريد أن تبصروا شـيئا آخر وراءه هو « أأنتم انزلتموه من المزن أم نحن المنزلون»

وأريد أن أقول ان الغالبية الساحقة من آيات القرآن الكريم توجه الانســان الى منطق الخالقية والى رؤية الخالقية . وقد جاء الاسلام فوجد القوم مشركين ، ولم يرد أن يدخل معهم فى جدل عميق حتى يبطل الشرك ونحن نعرف أن فى الانسان حاسة فطرية ترى الخالقية فى الكون، فلجأ الى هذه الحاســة يستفتيها ، كان يخـاطب فى صدورهم وفى عقولهم هذه الخاصية الفطرية التى ترى الخالقية فى الكون ، وهناك نماذج كثيرة نعرض منهـا لنموذج واحد فهو يقول لهم « قل أرأيتم ما تدعون من دون الله ، اروني ماذا خلقوا من الارض » لجأ الى سر الخالقية الذى انفرد الله سبحانه وتعالى به ، وتشهد الفطرة وتشهد الحاسة الباطنة انه هو المنفـرد بالخالقية والإيجابية وما عداه فهو سلب « .. اروني ماذا خلقوا من الارض أم لهم شرك فى السموات » سؤال عجيب وبسيط وقوى « .. ائتوني بكتاب من قبل هذا أو اثارة من علم ان كنتم صادقين » « الاحقاف : ٤ » . بدون شك هذا السؤال الذى وجهه اليهم والى فطرتهم لن يجيبوا عليه باى جدل وانما قالوا فى موطن اخر « .. ما نعبدهم الا ليقربونا الى الله زلفى » وهذه الاجابة كانت عبارة عن

التسليم بما يقول القرآن الكريم .. أن هذه الالهة لا اثر لها .

ويقول لهم « يا ايها الناس ضرب مثل فاستمعوا له ، ان الذين تدعون من دون الله » .. وانظروا التحقير .. « لن يخلقوا ذبابا ولو اجتمعوا له وان يسلبهم الذباب شيئا لا يستنقذوه منه ، ضعف الطالب والمطلوب » .

فى هذا المنهج من التوجيه العقلى والفكرى الى الخالقية استطاع الاسلام أن يجعل الوثنية تنهار من اساسها ولا يبقى فى أذهان الناس الا التوحيد . ثم التفت القرآن الى الانسان لانه يريد أن يهذبه فقال « هل اتى على الانسان حين من الدهر لم يكن شيئا مذكورا » ..

أين الخالقية ؟ « انا خلقنا الانسان من نطفة امشاج نبتليه » وفى آية أخرى « أو لا يذكر الانسان انا خلقناه من قبل ولم يك شيئا » وكثير غيرهذا . لذلك أقام القرآن تفكير وضمائر المؤمنين على معنى الخالقية فى المنهج الفكرى .

المنهج التربوى : هناك المنهج الثانى وهو منهج تعليمى .. منهج تربوى .. نفسانى . لقد كنا نتناول منذ قليل مشاغل الانسان ، ان المشاغل الدنيوية والاهواء .. والشهوات ، من شأنها بعد أن كانت ممتنعة عن الصبى وهو طفل ، شبت فى قلبه حتى غطت الحاسة الباطنة فأصبحت لا تبصر . وقد واجه القرآن الكريم هذا المعنى بمنهاج تربوى انسانى ، وهو أن يقى الانسان حاسته الباطنة ، موجات الاهواء وموجات الشهوات ، التى تهب عليها من قبل الحس ومن قبل رغبات الدنيا . وبما أن الحس هو بعض تكوين الانسان فهو موجود على الدوام ، وطالما كان موجودا على الدوام فانه لا يفتأ يصدر الاهواء ويصدر الشهوات. وهذه الاهواء والشهوات تهب كالعواصف والاعاصير ، وتهب كالغمام فتغشى حاسة

الانسان ، فأمر الاسلام الانسان أن يقى حاسته الباطنة موجات هذه الشهوات وهذه الاهواء وهذا هو معنى التقوى .

ذلك ان التقوى هي أن يقى الانسان هذه الحاسة الباطنة ما يجيئها من افق الحس من اهواء ومن شهوات، وبما أنها دائمة ، فان الانسان دائما يكون فى مجاهدة وفى مدافعة لهذه الاهواء والشهوات حتى تكف عن أن تؤذى حاسته الباطنة ، والمواظبة على هذه المجاهدة .. المواظبة على أن يقى الانسان نفسه الاهواء والشهوات .. هى الصبر . اذن لابد أن يقى الانسان نفسه من هذه الموجات، فاذا فعل ذلك جعل هذه الحاسة مشرقة سليمة وبالصبر والتقوى يقى الانسان حاسته الباطنة من هذا الاذى ويحقق وجوده الانساني وتصبح طاقات الخالقية تحت تصرفه ولذلك يقول الله « بلى أن تصبروا وتتقوا ويأتوكم من فورهم هذا يمددكم ربكم بخمسة آلاف من الملائكة.. »

وحينئذ ، بهذا المنهاج الفكرى وهذا المنهاج التربوى النفسانى تصبح هذه العين بصيرة سليمة تبصر من الكون ما تشاء ، واذا كان الاسلام قد اعتمد على هذين المنهجين لايقاظ ما فى الصدور من حاسة باطنة فنحن يلزمنا لكى نكون مثل الصحابة أن نكون على وفق هذا النمط من الاعداد ويجب أن تساعد مناهج الاذاعة والتليفزيون والصحافة ومناهجنا فى المدارس على هذين المعنيين ، المعنى الفكرى الذى يصلنا فى الكون بمعنى الخالقية والمعنى التربوى ، وحينئذ تكون منا النماذج المشابهة للذين خرجهم الاسلام من قبل فكانوا بحق « خير أمة أخرجت للناس »

***

ويمضى الاستاذ البهى الخولى فى حديثه عن الانسان

حين يعيش بامكانيات المادة من حوله ولا يعرف غيرها أو حين يعيش فى أفق الخالقية ويستمد من طاقاتها الضخمة فيقول :

ان أفق الخالقية معناه سيادة مشيئة الله على الكون، ويبدو سلطان الله تبارك وتعالى للانسان فلا يمكن أن يتصور ان هناك مشيئة فى الكون غير هذه المشيئة ، ولنضرب مثلا بأنفسنا حين نحبس انفسنا فى أفق المادة ثم ندعى اننا مؤمنون احسن ايمان • الذى يحدث اننى ارى نفسى آكل من المادة .. التى يمثلها المال ، وغيرى أيضا يعيش على المادة .. التى يمثلها المال ، اذا كانت هناك أزمات فى المعيشة ، مرضية أو بدء العام الدراسى وما يحتاجه من مصاريف أو ما الى ذلك فالذى يحل هذه الازمات هو المال ، فالمعاملات كلها قائمة على المال والناس فى آمالهم وسعيهم وتنافسهم هدفهم .. المال •

فماذا يعمل الفكر ؟ يكون كل منطق الفكر هو المال ، وكذلك منطق القلب ، ويعيش الانسان بفكره وقلبه وأعصابه بمنطق المادة ، وهذا أمر طبيعى عندما يحبس الانسان نفسه فى محيط الحواس الخمس • أما اذا عاش الانسان فى أفق الخالقية فانه سيجد دنيا غير الدنيا وآفاقا أعلى وحقائق خطيرة تمثل قوة الله ومشيئته الساحقة الجارفة التى لا يتصور معها الانسان أى مشيئة أخرى ، ويصبح هذا المعنى هو منطق الانسان فى ظاهره ، واحساسه ، ويتلبس فى وجدانه فلا يحس ان له مشيئة الا وهى نابعة من مشيئة الله : « وما تشاءون الا أن يشاء الله » ويتفاوت الناس فى حظوظهم وفى فنائهم عن أنفسهم وذوبانهم فى مشيئة الله .

ونضرب على ذلك مثلا يبرز هذا التفاوت من خلال شخصيتين عظيمتين : الاولى شخصية سيدنا اسماعيل

والثانية شخصية سيدنا موسى عليهما وعلى نبينا افضل الصلاة والسلام .

حين جاء سيدنا ابراهيم يقول لولده اسماعيل : « يابني اني ارى فى المنام اني اذبحك فانظر ماذا ترى» ماذا كانت اجابته ؟ قال له : « يا أبت افعل ما تؤمر» وربما ظننا انه كان من المنطق أن يقول : يا ابت افعل بي ما تؤمر ، لان الكلام موجه اليه ، ولو انه قال ذلك لكان مثلا طيبا فاضلا فى الفناء عن نفسه فى مشيئة الله تبارك وتعالي مسلما أمره لمشيئة الله ، ولكنه لم يقل افعل بى بل قال : « افعل ما تؤمر » وكأن الامر لايعنيه .. كأن أباه يسأله عن شجرة أمر أن يقطعها أو شاة أمر بذبحها فيجيبه أن افعل ما تريد ، فنفس اسماعيل صارت شيئا لا يهمه وليس لها وجود وحين يقول : « افعل ما تؤمر » فهذا نهاية فى الفناء عن الذات فى مشيئة الله تبارك وتعالى .

ثم يقول بعد ذلك : « ستجدنى ان شاء الله .. من الصابرين » وهذا معنى آخر فى فناء الذبيح اسماعيل عن نفسه ، لقد تصور فضيلة « الصبر » وقد تحلى بها اناس فضلاء آخرون فتمنى أن يكون واحدا من بين أولئك الصابرين .

ثم ننتقل الى سيدنا موسى عليه السلام ، فنجده ـ فى أقل من هذه المحنة ـ يقول لعبد صالح : « هل أتبعك على أن تعلمنى مما علمت منه رشدا » فقال له : انت لا تتحمل هذه المسألة ، فقال له موسى لا : « ستجدنى ان شاء الله صابرا » ، وارجو ان نلاحظ الفرق بين قول سيدنا اسماعيل عليه السلام : « ستجدنى ان شاء الله من الصابرين » وبين قول سيدنا موسى عليه السلام :

« ستجدني ان شاء الله .. صابرا » فاسماعيل رجا ان يكون بين الصابرين ، وموسى لمح نفسه ونظر لنفسه متحليا بفضيلة الصبر . وهذا معنى دقيق جدا ، وليس من العيب أن يقول موسى هكذا وانما على كل حال هو فرق فى المنزلة اما النتيجة فماذا كانت ؟ نقول انه كلما صدق ضمير الانسان ومواهبه وحواسه الباطنة وأفناها فى مشيئة الله تبارك وتعالى ولم يعد له مشيئة أبدا فى نفسه وهو مسترسل مع ارادة الله ، كانت منزلته الى النجاح أقرب . والنتيجة كما قررها القرآن الكريم ان سيدنا موسى عليه السلام تخلف فى المرة الاولى فقال له : « الم أقل انك لن تستطيع معى صبرا » قال : لا تؤاخذنى بما نسيت » وأعطاه فرصة ثانية فكان حظه فيها كسابقتها وطلب فرصة أخرى قائلا : « ان سألتك من شيء بعدها فلا تصاحبنى » ولم ينجح فى الفرصة الاخيرة حتى قال له العبد الصالح : « هذا فراق بينى وبينك » .

أما سيدنا اسماعيل فقد كانت النتيجة : « فلما أسلما » أى ابراهيم وابنه اسماعيل لله : « وتله للجبين وناديناه أن يا ابراهيم قد صدقت الرؤيا انا كذلك نجزى المحسنين ، وفديناه بذبح عظيم .» ونحن لا نريد أن نغض ابدا من قدر سيدنا موسى — فنحن كمسلمين نؤمن بالرسل جميعا ولا نفرق بين أحد منهم — وانما نقرر انحظ الانسان ونجاحه هو فى تحقيق مشيئة الله فى ضميره ، وان منزلة الانسان تكون تابعة لهذا الحظ .

والناس فريقان : فريق يعيش كما عاش الصحابة ، فى نطاق الخالقية وامكانياتها العظيمة الرائعة ، وفريق يعيش فى نطاق الحس بعيدا منالطاقات الفاعلة المساعدة

الميسرة التى تجلب له النصر وتوفر له المعونة فيكون معزولا عن الله ليس فى ضميره غير المال ، واذا انقطعت الصلة بالله نجد انه لا يلحظ فى كل تصرفاته اى وجود لله ، فاذا كان صاحب مال ، فهو لايرى فى المال الا نفسه وذاته ..

أما الله .. فلا يرد فى ذهنه ، واذا كان صاحب موهبة : خطيب ، عالم ، اقتصادى كبير ، طبيب ، مهندس ، الخ .. لايذكر الا مهارته ولا يذكر الا نفسه ، اما ان الله هو خالق هذه المواهب والملكات وهو الذى انشأه كله فلا يرد ذلك على خاطره ، وحين يصل الانسان الى هذا المستوى يكون مخذولا كل الخذلان . والله يضرب لنا مثلا بهؤلاء الاشخاص المحجوبين المعزولين المنقطعين عن الخالقية فيقول فى سورة الكهف : « واضرب لهم مثلا رجلين ، جعلنا لاحدهما جنتين من أعناب وحففناهما بنخل وجعلنا بينهما زرعا ، كلتا الجنتين آتت أكلها ولم تظلم منه شيئا ، وفجرنا خلالهما نهرا ، وكان له ثمر » فهذا الرجل وما يمتلك هو من خلق الله تبارك وتعالى .. ولكن ، هل لاحظ الرجل ذلك ؟

بالتأكيد لا ، ولكنه « قال لصاحبه وهو يحاوره أنا أكثر منك مالا وأعز نفرا » وكلمة « أنا » هى مهوى الانسان الى الخذلان ، اذن هو قال هذه الكلمة وقد نسى ما لله فى هذا المال من أثر وفضل وجود . أما الآخر فماذا كان فى ذهنه ؟ لقد كان فيه معنى الخالقية واضحا ، ومن هذا الوضوح ، يقول لصاحبه : « أكفرت بالذى خلقك من تراب ثم من نطفة ثم سواك رجلا ؟ » أى انه يرتد به الى منطق الخالقية ويقول له : هذا المال الذى فى يدك انما هو من فضل الله عليك وكان من الحق عليك أن تتذكر هذا الفضل ، ليس فضل المال

فحسب وانما فضل الذى أوجدك انت وخلقك : « ولولا اذ دخلت جنتك قلت ما شاء الله لا قوة الا بالله » ويشير سبحانه الى نتيجة تلك الكلمات التى نطقها الرجل وهو فى محيط الخذلان فيقول : « واحيط بثمره ، فاصبح يقلب كفيه على ما انفق فيها وهى خاوية على عروشها ويقول : يا ليتنى لم اشرك بربى احدا » .

هذا مثال لمن غره ماله ولم يشهد فى حاله مشيئة الله وقوته ، ومثال آخر لغرور الموهبة ضربه الله من قارون « ان قارون كان من قوم موسى فبغى عليهم وآتيناه من الكنوز ما ان مفاتحه لتنوء بالعصبة أولى القوة اذ قال له قومه لا تفرح ان الله لا يحب الفرحين» اى لا تغتر ، ثم يقول له المؤمنون : « وابتغ فيما آتاك الله (أى ان المال من ايتاء الله) الدار الآخرة ولا تنس نصيبك من الدنيا .. » (الآية) واذا بقارون يقول ما هذا ، كيف آتانى ومن الذى آتانى ، ان هذا كله من مجهودى ومواهبى وقوتى « .. انما أوتيته على علم عندى» قال هذه الكلمة وهو فى افق الخذلان والخسف الهابط ، ولذلك كانت عاقبته ما أخبر الله عنه «فخسفنا به وبداره الارض فما كان له من فئة ينصرونه من دون الله وما كان من المنتصرين »

وعلى الناحية الاخرى يضرب الله مثلا لرجل كان فى مستوى الخالقية ، انه يوسف الصديق عليه الصلاة والسلام يعترف بالمواهب لله « ودخل معه السجن فتيان قال احدهما انى أرانى أعصر خمرا وقال الآخر انى أرانى أحمل فوق راسى خبزا تأكل الطير منه نبئنا بتأويله انا نراك من المحسنين ، قال لا يأتيكما طعام ترزقانه الا نبأتكما بتأويله قبل ان يأتيكما .. » ولقد مضى الصديق ينتهز الفرصة ليدعو الى الله الواحد الاحد ، حتى وهو

بين جدران السجن ، ويدعو من ؟ اثنــين : أحــدهما سيخرج من السجن ليصلب والآخر سيخرج من السجن ليعود الى عمله يسقى سيده الخمر ، وقبــل ذلك كله يحذرهما من أن يفترا به وبعلمــه ، فهو ان يكن قادرا على تفسير رؤيا كل منهما ، فهو قادر ايضـــا على أن ينبئهما بأى طعام يصل أليهما حتى قبل وصوله ، ولكن شيئا من هذا لا يعود الى عبقريته الفذة ولا الى موهبــة من عنده وانما يقول : « .. ذلــكما مما علمنى ربى »

فماذا كان مصير يوسف فيما بعد ، وهو الذى اعترف لله بالفضل ونســبه اليه وقرره له ، لم تكن عاقبتــه الخسف كما رأينا مع قارون وانما خرج من السجن الى كرسى الوزارة « وقال الملك ائتونى به أستخلصه لنفسى فلما كلمه قال انك اليوم لدينا مكين أمين ، قال اجعلنى على خزائن الارض انى حفيظ عليم ، وكذلك مكنا ليوسف فى الارض يتبوأ منها حيث يشاء ، نصيب برحمتنا من نشاء ولا نضيع أجر المحسنين » .

الدكتور أحمد الشرباصي

فلسفة المال في الإسلام

« انما يريد الاسلام أن يتخذ الانسان بشأن المال طريقا وسطا .. فهو يسعى ويكسبه ، وهو يمتلكه وينفق منه ، وهو يقضى به حقوقا للاهل والله والوطن ، وهو يدخر منه جانبا معقولا لغده أو لحوادث دهره ، ولكنه لا يضيع حقا من حقوقه ، ولا يؤخر واجبا من الواجبات التى تقضى به ، ولا يجمعه ويكنزه فيصير كالعابد له ... »

الاسلام الحنيف العادل يعمل بنصوصه وروحه وتشريعاته على تحقيق فلسفة فى المال انسانية اخلاقية عادلة فاضلة تجمع بين العدالة الاجتماعية والملكية الفردية ؛ وتحفظ حق الفرد .. وفى الوقت نفسه تصون حقوق المجتمع ، ويكفى للتأكد من ذلك أن القرآن الكريم يحدثنا بأن سبب الهلاك للجماعات والأمم هو أن توجد فيها طائفة منعمة مترفة ، تستبد بالخير ، وتستأثر بالمتعة ، فيقول : « واذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها فحق عليها القول فدمرناها تدميرا » .

المال مال الله :

ولكى يؤكد الاسلام فى نفوس ابنائه روح العدالة الاسلامية الفاضلة أخبرهم بأن ما فى الأرض والسموات من مال أو عقار أو طاقات أو ثروة هو فى الحقيقة والواقع ملك لله ، لأنه هو خالقه وموجده ومبدعه ، ولذلك جاء فى القرآن الكريم : « قل اللهم مالك الملك » . « لله ملك السموات والارض » . « لله مافى السموات ومافى الارض » . « بيده ملكوت كل شىء » . وقد أراد القرآن بتكريره هذا المعنى فى مواطن متعددة وصور مختلفة أن يحارب فى الانسان التجبر والتكبر فلا يغتر بما فى يده من مال يملكه سواء أكان منقولا أم عقارا .

ثم أخبرنا القرآن بان الله تعالى ـ المالك الاول والاخير لما في الكون ـ يتفضل على عباده فيهبهم من ملكه ونعمه ما يشاء ، فيقول القرآن : « قل اللهم مالك الملك تؤتى الملك من تشاء ، وتنزع الملك ممن تشاء ، وتعز من تشاء ، وتذل من تشاء ، بيدك الخير انك على كل شيء قدير » ولكنه في الوقت نفسه يخبرنا بأن امتلاك الانسان للمال انما هو امتلاك ظاهر والمال فى يده أشبه بالعارية او القرض الذى يسترد فى يوم من الايام ، وان بعد هذا اليوم أو طال عليه المدى ، والانسان خليفة عن الله فى هذا المال ، أو وكيل عنه فى تصريفه ، والوكيل يجب عليه أن يراعى فى التصرف ارادة المالك الاصلى الحقيقى ، وينفذ أوامره ، والا لم يصلح للخلافة أو الوكالة ، ولذلك يقول القرآن : « انفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه » ويقول : « وآتوهم من مال الله الذى آتاكم » والنبى صلى الله عليه وسلم يقول : « المال مال الله وأنا عبده » .

والقرآن يخبر الناس بأن ما خلقه الله فى الكون من نعم وخيرات ، ليس وقفا على طائفة دون طائفة ، وليس مقصورا على جماعة دون جماعة ، بل الخلق كلهم عيال الله وعباده ، والله قد خلق لهم ما فى الارض جميعا ، ولذلك يقول القرآن : « هو الذى خلق لكم ما فى الارض جميعا » ويقول : « وسخر لكم ما فى السموات وما فى الارض جميعا منه » ويقول : « ولا تؤتوا السفهاء أموالكم التى جعل الله لكم قياما » والاموال هنا هى أموال السفهاء ، ولكن الله عبر عنها بقوله : « أموالكم » للاشارة الى أن للجماعة ولاية على هذا المال تصونه بها اذا كان فى يد سفيه

وتقرير هذه الحقيقة وتأكيدها فى أكثر من موطن يجعلان الناس يعلمون أن الانتفاع بهذه النعم والخيرات

مفتح الابواب لهم جميعا ، وفيهما أيضا تحريض على السعى ودفع الى استخدام المستطاع من خيرات الارض والسماء .

والاسلام يقر الملكية ويحترمها ، ويدعو اليها ويحرض عليها ، فالقرآن يقول : « فاذا قضيت الصلاة فانتشروا في الارض وابتغوا من فضل الله واذكروا الله كثيرا لعلكم تفلحون » وابتغاء المستطاع من فضل الله يتضمن الكسب والتملك ، والحديث النبوى الشريف يؤكد حرمة الملكية الصحيحة السليمة عند المسلم ، فيقول : « كل المسلم على المسلم حرام : دمه وماله وعرضه » .

العمل وسيلة كسب الملكية :

ونفهم من تعاليم الاسلام انه يجعل الوسيلة الاصلية الموصولة للتملك هى العمل . لان الانسان يستطيع أن يملك بطريق الارث أو الهبة أو الوصية أو العمل ، والطرق الثلاث الاولى وهى الارث والوصية والهبة هى صور للعمل المدخر أو الذى يتصرف فيه صاحبه ، ويبقى بعد ذلك العمل ، وهو الوسيلة المتكررة المألوفة فى الاكتساب والتملك .

والاسلام يحرض على السعى والعمل للكسب والانتاج والتملك فنرى الدعوة الى العمل قد تكررت وتعددت مواطن ذكرها فى الكتاب المجيد وهو القائل : « هو الذى جعل لكم الارض ذلولا فامشوا فى مناكبها وكلوا من رزقه واليه النشور » ويقول « ليس للانسان الا ما سعى »

ويأتى الرسول فيرشدنا أن الاكتساب عن طريق العمل هو أشرف وسائل الاكتساب والتملك فيقول « أطيب الكسب عمل الرجل بيده » ويقول « ما أكل أحد طعاما قط خيرا من أن يأكل من عمل يده وان نبى الله داود كان يأكل من عمل يده » وذكر عمل داود فيه اشارة

الى أن العمل كان من صفة الانبياء وهم النماذج العليا للبشر ، والمؤيدون من الله بعنايته ورعايته ، فداود كان يعمل فى صناعة الدروع ويأكل من عمل يده ، وموسى عمل لشعيب ثمانى سنوات فى مقابل زواجه من ابنتــه ومحمد خاتم المرسلين عمل راعيا ، وعمل تاجرا . وكان الرسول يقول لابنته الحبيبة الغالية « يا فاطمة بنت محمد ، اعملى فانى لا اغنى عنك من الله شيئا » . وقال « من أمسى كالا من عمل يده امسى مغفورا له » .

ولقد رأى النبى يد رجل قد تعبت من العمل ، وظهر بها أثر التعب فقال النبى « هذه يد يحبها الله ورسوله » وفى الحديث أيضا : « ان الله يحب العبد المحترف » ، وعمر يقول انى لأرى الرجل فيعجبنى شكله فاذا قيل : لا عمل له : سقط من عينى .

العمل الطيب أساس الكسب الطيب :

ولكن الاسلام يضع قواعد للتملك الصحيح الســليم الذى لا غبار عليه ، فيوجب على الانسان أن يكون الطريق الذى يكسب به ما يملكه طريقا مباحا مشروعا ، لا حرمة فيه ولا شبهة ، ولذلك حرم الاسلام السرقة والغش والغصب ، والربا ، والاحتــــكار ، والفحش فى الربح ، والمقامرة ، وسوء الاستغلال .

ويوجب الاسلام على المسلم أن يكون ما يكسبه مباحا حلالا طيبا ، ولذلك يحرم امتلاك الخمر والمخدر والخنزير والدم المسفوح ونحوه ، والقرآن الكريم يبيح التمتع ، ولكنه يجعله فى دائرة الحلال الطيب ولذلك يقول القرآن: « قل من حرم زينة الله التى أخرج لعباده والطيبات من الرزق » ويقول « يا أيها الرسل كلوا من الطيبات واعملوا صالحا انى بما تعملون عليم » .

ونلاحظ هنا أن القرآن الكريم قد عبر عن المال بكلمة

« الخير » أكثر من مرة ، فقال عن الانسان : « وانه لحب الخير لشديد » أى لحب المال ، وقال : « كتب عليكم اذا حضر احدكم الموت ، ان ترك خيرا الوصية للوالدين والأقربين بالمعروف » اى أن ترك مالا .

والتعبير عن المال بكلمة « الخير » كأنه اشارة الى ما ينبغى أن يكون عليه المال من حل وطيب ، لانه لو كان خبيثا لكان شرا ولما كان خيرا . والرسول عليه الصلاة والسلام يقول : «نعم المال الصالح للرجل الصالح » .

واذا كسب الانسان مالا حلالا وامتلكه كان عليه أن ينفق منه بلا سفه أو تبذير ، وبلا بخل أو شح ، بل ينفق بتوسط واعتدال ، لان الله يقول : « والذين اذا انفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواما » ، ويقول : « ولا تجعل يدك مغلولة الى عنقك ولا تبسطها كل البسط فتقعد ملوما محسورا » .

فلو أساء الانسان الانفاق فبذر وأسرف ، وظهرت عليه علامات السفه فى التصرف والحمق فى الانفاق ، كان من واجب ولى الامر أن « يحجر » عليه ، وأن يقيم له « وصيا » يتصرف وكيلا عنه فى ماله بالحسنى والتصرف الحميد .

الالتزامات فى المال :

ومن الواجب على صاحب المال بعد هذا أن يؤدى حق الله وحق الأمة فى هذا المال ، وحق الله بعضه مفروض لازم لا مفر منه ، وهو الزكاة : « والذين فى أموالهم حق معلوم للسائل والمحروم » . وبعضه اختيارى كالصدقة والبر والاحسان ، وأما حق الأمة فهو ما يعينه ولى الأمر الشرعى من حقوق فى المال تسمى بلغة عصرنا «الضرائب» وهذه الضرائب يأخذها ولى الأمر من المالك القادر ، لينفقها فى وجوه المصلحة العامة اللازمة للأمة .

وعلى صاحب المال بعد ذلك الا يستخدم هذا المال او جزءا منه فى الاضرار بالغير ، او فيما حرم الله ومنـــع فاذا فعل المالك شيئا من هذه الموبقات كان على ولى الأمر أن يضرب على يده ، وأن يقيمه على سواء السبيل رغبا او رهبا .

وهنا نستطيع أن نقول ان هذه الامور السابقة اذا نفذها صاحب المال كما أراد الاسـلام ، كانت ملكيته الفردية محل صيانة واحترام ، كما نستطيع ان نقول انه لا يمكن أبدا أن توجد عند تنفيذ هذه المبادىء باخلاص ملكيات ضخمة مخيفة لا تحتاج الى تحديد أو مقاومة ، وبخاصة اذا تذكرنا أن هناك مجـــال تفتيت للثروة فى الاسلام باستمرار فالنفقة والزكاة والضريبة والاسهام فى وجوه الخير ، ثم الميراث ، هذه كلها وغيرها عوامل تتوالى أو تتجمع فتقوم بعملية التفتيت للثروة من حـــين الى آخر .

ويجب ان نتذكر هنا أن الاسلام المصلح قد جعل الزكاة ركنا أساسيا من أركانه ، يكفر جاحده ويفسق مهمله ، فقال القرآن : « وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة » وأمـــر الاسلام بالمحاربة على منعهـــا ، ولذلك حارب أبو بكر الصديق رضى الله عنه من منعوا الزكاة بعد وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم ، وقال كلمته المشهورة : « والله لو منعونى عقالا كانوا يؤدونه الى رسول الله صلى الله عليه وسلم لقاتلتهم عليه حتى يؤدوه » .

وقد جعل القرآن الزكاة من صفات المؤمنين الأصيلة فقال عنهم : « والذين هم للزكاة فاعلون » وجعل منعها من صفات المشركين فقال : « وويل للمشركين الذين لا يؤتون الزكاة وهم بالآخرة هم كافرون » . وهذه الزكاة فريضة واجبة مكتوبة لازمة ، وليست بأمر اختيارى ،

ولذلك يقول عنها القرآن : « والذين فى أموالهم حق معلوم للسائل والمحروم » . فهى قدر معين تجمعه الدولة الاسلامية ، وتنفقه على مصارفها التى حددها القرآن ، فليست الزكاة منة ولا شيئا مذلا لكرامة الانسان .

ومما هو جدير بالملاحظة أن من بين مصارف الزكاة مصرفا عبر عنه القرآن بقوله : « سبيل الله » ، وسبيل الله عريضة واسعة متعددة الاغراض كثيرة الاهداف ، فهى كما يقول بعض الفقهاء لا يخرج عن معناها أى نوع من أنواع البر الخاصة والعامة ، فالمصالح العامة والمشروعات الجماعية والمصانع الحربية والمستشفيات العلاجية والمعاهد العلمية .. وما الى ذلك مما يحقق للمجتمع حاجته فى حفظ كيانه وصحته وعقله وثقافته ، كل هذه الاغراض تشملها — كما يقرر هذا البعض — كلمة « سبيل الله » !

***

وفريق من الناس يجهل حين يظن أن الزكاة تحرض على الفقر والكسل ، وهذا غير صحيح ، لان الاسلام يكره الفقر وينفر منه ، وفى الحديث : كاد الفقر أن يكون كفرا » وفيه : « اللهم انى أعوذ بك من الفقر » وفيه : « اللهم انى أسألك الهدى والتقى ، والعفاف والغنى » وانما تعطى الزكاة للمحتاج المحروم الذى لا يجد سعة من ذات يده ، ولا يجد فرصة للعمل أمامه .

واذا كان الاسلام يكره الفقر ويحاربه ، فانه فى الوقت نفسه يكره كنز المال بلا موجب ، ونحن نقرأ فى القرآن الكريم هذا الوعيد الأليم : « والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها فى سبيل الله فبشرهم بعذاب اليم يوم يحمى عليها فى نار جهنم فتكوى بها جباههم وجنوبهم

وظهورهم هــذا ما كنزتم لأنفســكم فذوقوا ما كنتم تكنزون » .

وانما يريد الاسلام أن يتخذ الانسان بشأن المال طريقا وسطا ، فهو يسعى ويكسبه ، وهو يمتلكه وينفق منه ، وهو يقضى به حقوقا للأهل والله والوطن ، وهو يدخر منه جانبا معقولا لغده أو لحوادث دهره ، ولكنه لايضيع حقا من حقوقه ، ولا يؤخر واجبا من الواجبات التى تقضي به ، ولا يجمعه ويكنزه فيصير كالعابد له ، ولكنه يعتدل ويتوسط ، والرسول يقول : « ما أحسن القصد (أي الاعتدال) فى الغنى ، وما أحسن القصد فى الفقر ، وما أحسن القصد فى العبادة » .

واقد رأى النبى رجلا مترفا متخما ، قد امتد بطنه أمامه من ترفه وجشعه فأشار النبى الى بطن هذا الرجل وقال له « لو كان هذا فى غير هذا المكان لكان خيرا لك » . وهذا تعريض نبوى عميق الدلالة . وكأنه يريد أن يقول له : لقد أسرفت على نفسك ، حتى جاوزت حدك ، ولو أن ما جاوز الحد أعطيته لمحتاج اليه محروم منه لكان ذلك العمل خيرا لك فى عاجلك وآجلك .

وفى الحديث ان النبى قال أيضا : « ليؤتين يوم القيامة بالعظيم الأكول الشروب فلا يزن عند الله جناح بعوضة » والمراد بهذا طبعا من يسرف ويتخم ، ويترك اخاه فى حاجة الى الضرورى من القوت .

والمال عند صــاحبه له حق الانتفاع به فى الوجوه المشروعة ، ولكن الاســلام لا يبيح له الاسراف فيه ، ولذلك يقول القــرآن « وكلوا واشربوا ولا تسرفوا انه لا يحب المسرفين » ويقول : « ولا تبذر تبذيرا ، ان المبذرين كانوا اخوان الشياطين وكان الشــيطان لربه كفورا » .

ونلاحظ أن النبى صلى الله عليه وسلم بدأ فى تكوين مجتمعه المثالى الفاضل ، وذلك عندما رأى أن المهاجرين قد تركوا خلفهم أوطانهم وديارهم وعقارهم وممتلكاتهم ، وأخرجوا بغير حق الا أن يقولوا ربنا الله ، وانتقلوا الى المدينة لا يملكون من حطام الدنيا شيئا ، بينما اخوتهم الأنصار ـ وهم أهل المدينة ـ كانوا حينئذ مستقرين فى أملاكهم ودورهم وعقارهم ، فاذا برسول الله صلى الله عليه وسلم يشرع فى ايجاد توازن بين الذين لا يملكون والذين يملكون . ويقيم هذا التوازن على أساس «الأخوة الايمانية» أو « الأخوة الدينية » الموجودة بين المهاجرين والانصار ، بمقتضى قول الله تبارك وتعالى : « انما المؤمنون اخوة » وقوله : « واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا ، واذكروا نعمة الله عليكم اذ كنتم أعداء فالف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته اخوانا » وقوله : « وان هذه امتكم امة واحدة وانا ربكم فاتقون » .

وآخى الرسول بين المهاجر والأنصارى ، وصار كل أخوين من هؤلاء المؤمنين يتعاونان ويتناصران ، ويشتركان فى السراء ، ويتضامنان فى البأساء ، واذا مات أحدهما ورثه الاخر ، كأنه اخ له من ابيه وامه . ولم يأخذ الانصار هذا التكييف الاجتماعى على أنه واجب كلفهم الاسلام به ، ولا على أنه أمر من الرسول يخضعون له فحسب ، بل أخذوه على أنه شيء حبيب الى نفوسهم ، يرضى كريم مشاعرهم ونبيل عواطفهم ، فكان الأنصارى يأتى الى اخيه المهاجر ، ويقول له : هذا نصف مالى . وهذا نصف عقارى ، وهذا نصف متاعى ، فناصفني فيما أملك ، بل وصل الأمر ببعضهم أن قال لأخيه المهاجر : لى زوجتان ، وليست لك زوجة . فانا أطلق لك احداهما ، وتنتظر حتى تستوفى عدتها ، ثم تتزوجها بعد ذلك :

فشكر له أخوه المهاجر هذا السخاء ، وفضل على ذلك ان يذهب الى السوق ليتاجر فيكسب فينفق مما آتاه الله .

***

ومعنى هذا أن المهاجرين لم ينتهزوها فرصة للسطو على أموال الانصار ، أو لاستغلال تطوعهم وتبرعهم ، وسخائهم ووفائهم ، بل اكتفوا من اخوتهم الانصار بما يدفع عنهم الاخطار والاضرار ، وانطلقوا فى ميادين السعى والانتاج يعملون ويكسبون ويقتنون ، حتى ساوى الكثير منهم فى ماله وعقاره اخوة له من الانصار ، بل كان من المهاجرين بعض الاغنيـــاء الذين زادوا فى ثروتهم على اخوانهم الانصار . وذلك بفضل الصبر والدأب ومواصلة العمل .

وقد زكى القرآن الكريم هذا الصنيع الكريم الحميد من الانصار الذين آووا ونصروا ، وســـــاعدوا وآزروا ، وأدوا حقوق الأخوة الاسلامية كأحسن ما يكون الأداء ، فقال : « والذين تبوأوا الدار والايمان من قبلهم يحبون من هاجر اليهم ، ولا يجدون فى صدورهم حاجة مما أوتوا ويؤثرون على انفسهم ولو كان بهم خصاصة ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون » .

كما ان الرسول صلى الله عليه وسلم لم يكتف من جانبه باقامة هذه « المؤاخاة » بين الانصار والمهاجرين مقام أخوة الصلب والقرابة ، وقد كان يعلم أن بعض مستلزمات هذه الأخوة كالتوارث مثلا ، لا بد أن يرجع الى مجراه الطبيعى . وهو أن يكون الميراث للعصبات والأقارب الحقيقيين وذوى الأرحام ، ولذلك اقدم على اصلاح اسـلامى عادل .. أقام به التـــوازن بين فريق المهاجرين والانصار ، فما أن ساق الله تبارك وتعالى

اليه بعض الغنائم التى جاءت بلا قتال ولا نزال ، حتى وزع هذه الغنائم على المهاجرين الذين لا يملكون ، واشرك معهم رجلين من الأنصار كانا فقيرين ومحتاجين الى المعاونة والمساعدة . وبتوزيع هذه الغنائم على المهاجرين اقتربوا فى مستواهم المادى والاقتصادى من اخوتهم الانصار ، وانطلق الجميع الى رحاب الحياة المكافحة العاملة يبنون مجتمعهم الجديد على دعائم من الأخوة والمساواة والمحبة والتعاون وبذل غاية المجهود .

وقد عبر القرآن الكريم عن الحكمة البليغة الدقيقة العميقة فى اختصاص المهاجرين بهذه الغنائم بقوله فى شأن المال : « كى لا يكون دولة بين الاغنياء منكم » اى كان ذلك الاجراء حتى لا يصبح المال — وهو عصب الحياة — متداولا بين الأغنياء وحدهم . فيؤدى هذا الى تكوين طبقة ممتلئة تمثل « الرأسمالية » بينما يوجد معها آخرون يمثلون « العدمية » .

ولو حدث هذا لتصارع الفريقان ، ولحاول كل منهما أن يعصف بالآخر ، وأما حين يصبح المال متداولا بين أفراد الأمة كلها ، فان هذا يؤدى الى عدالة اجتماعية من جهة ، والى انطلاق فى العمل والانتاج من جهة ثانية ، لأن المال عنصر أساسى فى تهيئة العمل ، والى سيادة المحبة بين الجميع من جهة ثالثة ، ويجب الا ننسى أن الاسلام يحرص دائما على توطيد دعائم هذه المحبة بين اتباعه فى شتى قطاعات المجتمع ومتعدد انحاء الحياة ، وحسبنا هنا قول الرسول عليه الصلاة والسلام « لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه » وقوله : « ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الايمان : أن يكون الله ورسوله أحب اليه مما سواهما ، وأن يحب المرء لا يحبه

الا لله ، وان يكره ان يعود الى الكفر كما يكره ان يقذف فى النار » .

***

وقد جاءت عن النبى صلى الله عليه وسلم طائفة من الاحاديث تلمس فيها فلســـــفة الاسلام الاقتصـــادية الانسانية الأخلاقية المؤمنة واضحة جلية ، ومنها هذه الأحاديث :

« من كان عنده فضل زاد فليعد به على من لا زاد له ، ومن كان عنده فضل ظهر (ما يركب) فليعد به على من لا ظهر له . قال راوى الحديث : « فذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم من أصناف المال ما ذكر ، حتى رأينا انه لا حق لاحد منا فى الفضل » .

« ما آمن بى من بات شـــبعان ، وجاره جائـــع الى جانبه ، وهو يعلم » .

« أيما أهل عرصة (أى حى أو محلة) اصبح فيهم جائع فقد برئت منهم ذمة الله » .

« المسلم أخ المسلم لا يظلمه ولا يسلمه ، ومن تركه يجوع ويعرى ، وهو قادر على اطعامه وكسوته ، فقد أسلمه » .

« المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضا » .

« مثل المؤمنين فى توادهم وتعاطفهم وتراحمهم كمثل الجسد الواحد اذا اشتكى منه عضو تداعى له ســائر الجسد بالحمى والسهر » .

« من كان عنده طعام اثنين فليذهب بثالث ، ومن كان عنده طعام ثلاثة فليذهب برابع » .

« ان الله فرض على أغنياء المسلمين فى أموالهم ، بقدر الذى يسع فقراءهم ، ولن يجهد الفقراء اذا جاعوا الا

بما يصنع أغنياؤهم ، آلا وأن الله يحاسبهم حسابا شديدا ، ويعذبهم عذابا أليما » .

« ان الأشعرين كانوا اذا أرملوا فى غزو (نقص تموينهم) أو قل طعام عيالهم ، جمعوا ما لديهم من طعام فى ثوب واحد ، فاقتسموه فيما بينهم بالسوية فهم منى وأنا منهم » .

وقد صح عن أبى عبيدة بن الجراح وثلاثمائة من الصحابة أن زادهم فنى فامرهم أبو عبيدة فجمعوا ازوادهم فى مزودين ، وجعل يقوتهم اياها على السواء .

وقال الامام على بن أبى طالب : « ان الله سبحانه فرض فى أموال الأغنياء أقوات الفقراء ، فما جاع فقير الا بما متع به غنى ، والله سائلهم عن ذلك » . وفى هذا القول العلوى رمز دقيق واشارة بليغة الى أن الأغنياء يحتالون غالبا لكى يحوزوا أكثر مما يحتاجون أو أكثر مما يستحقون ، ويكون ذلك فى العادة على حساب حاجات الفقراء وحقوقهم . ولقدتحدث المنفلوطى فى بعض فصوله الأدبية عن زيارته لمريض بالتخمة ، وزيارته بعد ذلك رجلا مريضا من الجوع ، فقال لو أن الغنى المتخم اعطى الفقير الجائع ما زاد عن الحاجة لارتفع المرض عنهما معا ، ولانعدمت شكوى الغنى من التخمة وشكوى الفقير من الحرمان ! ..

ويقول الامام ابن حزم : « فرض على الأغنياء فى كل بلد أن يقوموا بفقرائها . ويجبرهم السلطان على ذلك ، ان لم تقم الزكوات بهم ، ولا فى سائر أموال المسلمين ، فيقام لهم بما يأكلون من القوت الذى لا بد منه ، ومن اللباس فى الشتاء والصيف بمثل ذلك ، وبمسكن يكنهم من المطر والصيف والشمس وعيون المارة » .

وهذه العبارة من ابن حزم تشير الى أن المجتمع

الاسلامي عليه أن يضمن للفرد مستوى لائقا من المعيشة لا ينحدر عنه ، فعلى هذا المجتمع أن يضمن لكل فرد ضرورات الطعام والكساء والمسكن . وهذا هو الهدف الأساسى لنظام الضمان الجماعى فى العصور الحديثة ، وبذلك نستطيع أن نقول ان الاسلام كان أسبق من غيره فى تقرير هذا الضمان الجماعى .

والاسلام حين يدعو القادرين الى اعطاء المحروم العاجز ما يحتاج اليه ، يبيح للضيف أن يأخذ حق ضيافته اذا منعه القادرون هذا الحق ، دون أن يسرف أو يزيد على الحق فى هذا الأخذ ، ويستدل الفقهاء على هذا بقول الرسول صلى الله عليه وسلم : « أيما ضيف نزل بقوم فاصبح الضيف محروما فله أن يأخذ بقدر قراه (ضيافته) ولا حرج عليه » .

***

ولو استعرضنا تاريخ الاعلام من أئمة المسلمين وقادتهم لوجدنا روح المثالية الاسلامية واضحة عندهم بارزة فى حياتهم ، فهذا عمر بن الخطاب يقول بنزعته الانسانية البادية : « لو استقبلت من أمرى ما استدبرت لرددت فضول الاغنياء على الفقراء » .

وكان عمر اذا رأى رجلا فى مجزرة اللحم يشترى لحم يومين متتابعين ضربه بدرته وقال له : « هلا طويت بطنك لجارك وابن عمك » ؟ . ولقد رأى عمر جابر بن عبد الله أسرف يوما فى شراء اللحم فأنبه على ذلك .

وهذا عمر بن عبد العزيز يتولى الخلافة فيثور ثورة اقتصادية رائعة ، فهو يتنازل عن املاكه التى ورثها عن أبيه ، ويمزق الوثائق التى تثبت له ملكية هذه الأملاك وهو يسترد كل ما أخذه أفراد أسرته قبل خلافته ، ويمزق وثائقها كذلك ويضم الجميع الى بيت المال ،

ولا يقبل فى ذلك شفاعة قريب او قريبة . ولقد كان عبد الملك بن مروان أهدى الى عبد العزيز بن مروان (والد عمر) أرضا فى بلدة حلوان ، وكانت هذه الارض مأخوذة من رجل مصرى ، فرفع الرجل أمره الى القاضى فحكم برد الارض الى صاحبها ، واراد عمر أن يعجم عود القاضى فطالب بما انفقته أسرته على هذه الارض فرد القاضى قائلا : لقد اكلتم من غلتها بقدر هذا .

فسر عمر من هذا الجواب وقال : وهل القضاء الا هذا ، والله لو حكمت بغير هذا لعزلتك .

***

من هذا العرض السريع نفهم ان فلسفة الاسلام الاقتصادية الهية انسانية اخلاقية ملتزمة لا تشتط ولا تقصر ، بل تقيم الناس على صراط مستقيم ، لأن مصباحها هو القرآن الهادى الى أقوم طريق : « قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين ، يهدى به الله من اتبع رضوانه سبل السلام ويخرجهم من الظلمات الى النور باذنه ، ويهديهم الى صراط مستقيم »

د . محمـــــود قاسم
د . يحيى هــــويدى
د . مصطفى الشكعة
د . عبد الصبور شاهين

المسلمون والحضارة الانسانية

عندما نتحدث عن الحضارة العربيـــة الاسلامية وآثارها على الحضارة العــالمية والاوربية بصفة خاصة فليس القصد أن نخدر أنفسنا برؤيا من رؤى الماضى نستعذب بها الهروب من الواقع المتخلف للعالم الاسلامى اليوم ، وانما الهدف هو مزيد من معرفتنا لانفسنا والثقة بها ، لننطلق بهذا الزاد من المعرفة والثقة فى محاولة لربط الحاضر بالماضى ، وللمضى الى المستقبل بكل اليقين على أننا قادرون من جديد على الاسهام الايجابى والخلاق ، بمعطيات الاســلام السامية فى صنع حضارة جديدة ، لا تقوم عــلى الاستعلاء بالقوة ، أو التمايز بالعنصر ، أو اشــاعة الدمار بالبشرية ، وانما تقوم على التسامح والحب والخير والرحمة للانسان فى كل مكان ومن أى انتماء

يتحدث الدكتور عبد الصبور شاهين عن الحضارات القديمة السابقة على الاسلام ، فيشير اولا الى طبيعتها من حيث النشأة والنمو والازدهار والافـــول وكيف تغرب فى مكان لتشرق فى مكان اخر وكيف بدأت فى الاماكن السهلة ذات الخصب كما اشرقت فى الصين وامتدت الى آسيا الصغرى والى فلسطين ، وكيف نشأت حضارة على ضفاف النيل يمتد تاريخها الى سبعة الاف سنة وحضارة اليونان التى تأثرت بحضارة مصر القديمة ونقلت عنها كما تأثرت بحضارة الاشوريين • ثم تحدث عن حضارة الرومان وحضارة فارس وقال ان تلك الحضارات كانت تقوم على اساس ان هناك مجموعة من القيم وكانوا يحسون انهم لابد ان يعيشوا فى ظل تلك القيم ويتمسكوا بها • وعندما تتحلل الروابط ويحسون اما بالرفاهية الزائدة التى تغنيهم عن القيم واما بالافلاس فى الانتفاع بها تبدأ شمس الحضارة تميل الى الغسق والافول ، ليس من اجل ان تختفى من الارض وانما لتبدأ فى الاشراق فى مكان اخر يكون لديه استعداد أكثر للانتفاع بالضوء والنور ولانتاج وابداع الحضارة على اساس من العلم •

لابد اذن من وجود قوانين نسميها فى المفهوم الاسلامى « سنن » من يتبعها ويسير على أساسها يوفر الشروط التى يمكن ان تقوم على مقتضاها ووفقا لها حضارة من الحضارات

ولعل اقترابا اكثر الى الفترة السابقة على الاسلام مباشرة يعطى صورة اوضح ٠

ويتحدث الدكتور مصطفى الشكعة عن النظم التى كانت سائدة فى أماكن متفرقة قبل ظهور الاسلام فيشير الى ارهاصات تنبىء بأن شريعة سامية تتخذ طريقها الى هذا الكوكب بعد أن طغت عليه المادية ٠ ونحن نعرف أن الدعوة الاسلامية ظهرت فى الجزيرة العربية التى كانت محاطة بحضارتين عريقتين ، الحضارة الفارسية الساسانية التى عمرت فى الارض لاكثر من ثلاثمائة عام ، والحضـــــارة الرومانية التى عمرت لعدة قرون ٠ ولو قد كانت حياة الفرد مصونة وحاجاته متوفرة فى ظلهما لكان الامر يختلف.

فلو نظرنا الى فارس لوجدنا بداية الافول فى الحضارة الساسانية فلم تكن للانسان كرامة وكان الحاكم بأمره شاهنشاه او ملك الملوك يتمتع بما كان يسمى الحق الالهى ٠٠ فلابد ان يتميز على الناس جميعا وكان المجتمع ينقسم الى عدة طبقات : رجال الدين، ورجال الجيش ،والموظفين ـ وهم قلة ـ وهؤلاء هم السادة ٠٠ وبقية الشعب بطوائفه كانوا يسمون بالعوام وكان الانسان لا يأمن على نفسه أو ماله أو عرضه والتحمت الدولة فى حروب متطاولة مع دولة الروم ٠ والحـــروب اذا طالت فانها تثخن الدول بالجراح ويكون من السهل – اذا لم تكن دولة متماسكة يؤمن ابناؤها بها ـ أن يكون مصيرها الى التداعى والزوال وهذا ما حدث بالدولة الساسانية .. فالفرد لم يكن يؤمن بدولة وحقوقه غير مصونة وأمواله غير محافظ عليها ٠٠

وبذلك كان من الممكن ان ينجح الفتح الاسلامى فى اكتساح تلك الدولة الكبيرة فى معركة القادسية ٠ ونفس الشىء حدث فى معركة نهاوند بعد ذلك ببضع سنين ٠ واذا ما انتقلنا الى الحضارة الرومانية نجد ان حالة الانسان كانت

اقل سوءاً ، لانهم كانوا أهل كتاب وكانوا يدينون بدين كريم هو المسيحية ولكن كانت العبودية فى الدولة الرومانية اشد واعتى منها فى دولة الاكاسرة فلم يكن يتولى السيادة غير القلة من القواد ورجال الدين وبقية الشعب كالسائمة ونظام العبيد الذى ابتدعته الدولة الرومانية من ابشع الانظمة التى ابتدعت فى ظل حضارة من الحضارات .. الظلم الاجتماعى الذى كان يقع على رعايا تلك الدولة فى مصر والشام كان من ابشع أنواع الظلم فى مراحل التاريخ المختلفة ولذلك نحن نعرف ان سكان بلاد الشام ومصر ارسلوا الى المسلمين يستنجدون بهم ، واذن كان لابد ان يتقدم الفتح الاسلامى لكى تحل العدالة والمساواة محل الظلم والتمييز .

ثم يشير د . الشكعه الى امارة الغساسنة وامارة المناذرة وما تمثلانه من حائطين بين العرب فى جزيرتهم وبين الاكاسرة والروم، وما كان بين الامارتين من تناطح وحروب

تلك الصورة لتلك المجتمعات التى كان يعيش فيها الفرد حول مقر الدعوة الاسلامية فى قلب الجزيرة العربية كانت لا شك تنبىء بقرب انهيار هاتين الحضارتين العريقتين فى كل من بلاد الاكاسرة وبلاد الروم .

● ما هى المقومات والخصائص التى ميزت الاسلام والمسلمين بحيث اتاحت الفرصة لذلك الانطلاق والانتشار الذى قد يبدو غريبا فى سرعته ؟

الحقيقة كما يقول الدكتور عبد الصبور شاهين ان «مشروع الحضارة» الاسلامية لم يكن مجرد احساس بأن قوما جاء دورهم فى النهضة فيجب أن ينهضوا والزمن كفيل

بذلك • ولكن الاقدار خططت في هذا لتهدى الى الارض نموذجا لصنع الحضارة ولابداعها فى صورة مشروع ، هذا المشروع بدأه الرسول عليه الصلاة والسلام بداية طبيعية • مشروع بناء يريد أن يقوم فماذا يمكن أن يعتمد عليه من عناصر البيئة ؟ الناس •• لا شـــك أنهم قوام المشروع • فالفرد العربى اختاره الله لانه كان يتميز بميزة قد تبدو غريبة ، لقد قيل انالعرب كانوا معزولين ولكن هذه العزلة كانت ميزة حيث صانت لغتهم فلم تختلط بالفاظ كثيرة من اللغات السائدة والمعاصرة فيما عـــدا القليل جدا من الكلمات ، كما انها صانت النفس العربية فلم تفسدها عادات الرفاهية والفساد •

لم يكن العربى قدمرت عليه اطوار الحضارة المستهلكة التى تبتذل شخصيته أوتمتهنها وانما كان فطريا أواقرب مايكون الى الفطرة فى احساسه بفضائله الشخصية ولا يدين الا لما يصدر عن ذاته وينبعث من نفسه ، وكانوا يعيشون كافراد اكثر مما يعيشون جماعة فالعربى كان يتمتـــع بفضائل فردية وليست جماعية ، وحين أتى الاسلام ليبنى على هذه النفس فقد اراد ان يضعها فى الاطار الذى يتناسب مع المشروع الجديد للحضارة الذى يريد أمة انسانية ولا يريد فرداً فلابد ان يكون الفرد ويصاغ على الاستعداد للاندماج فى الامة •

ويتحدث الدكتور عبدالصبور عن قوة الجماعة وتأثيرها فى تعميق هذا الاحساس بالجماعة التى عليها سـيقوم المجتمع ومنه تنبثق الحضارة السماوية المهداة الى الارض ولأبد من قيم تقوم عليها تربية الفرد وأول ما اصطدم به صاحب المشروع هو الشرك وجاءت الوحدانية ولم يكن الاسلام يهدم دون أن يعطى البديل بل ربما كانت عملية البناء قائمة قبل أن يهدم الفرد ما فى نفسه من العقائد

السخيفة التافهة ، ولقد أحس بعظمة التوحيد وما اضفاه عليه من قوة ذاتية •

وحين ربى الفرد على التوحيد وهو آهم ما جاء يدعو اليه الرسول احس انه لا سلطان لاحد عليه من المخلوقات وانه خاضع نقط لله عز وجل فأحس بالعزة بفضل هذه العقيدة الجديدة وهى العقيدة التى جعلت بلالا فى أشد حالات السطوة والسلطان على بدنه المعذب يقول : احد احد فهـــو احساس بالتفوق حتى على العذاب. بل ان الرسول مر على بعض المعذبين واذا باحدهم يقول له يا رسول الله الا تدعو لنا •• الا تستنصر لنا ؟ فما يكون منه الا ان يقول « انه كان من قبلكم يؤتى بالرجل منهم ، فيوضع المنشار على فرق رأسه فيشقها نصفين ، ما يصرفه ذلك عن دينه ، وليظهرن الله هذا الامر ، حتى يسير الراكب من صنعاء الى حضرموت لا يخشى الا الله او الذئب على غنمه ، ولكنكم تستعجلون » أى ان من مقتضيات الايمان بالله الواحد ان تتحمل فى سبيله ما يقع لك •

ثم نجد احساسهم بمعنى الامة ، ان الخطاب لهم دائما: « ان هذه امتكم امة واحدة » •• فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة •• انه يفترض فى وجودهم هذه الصـــــورة الموحدة لكى تعيش الفكرة بهم فى حالة اجتماعهم «واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا »

● كيف انتقلت الحضارة وهل للاديان علاقة بهذه الحضارة ؟

يجيب الدكتور مصطفى الشكعه فيقول، ان الحضارات القديمة فى مجموعها كانت تعتمـــــد على المادية اكثر من اعتمادها على الروحية وهذا هو الفرق الذى كنا سنصل اليه بين الحضارة الاسلامية والحضارات التى انتهت •

والحضارة الاسلامية هى لون جديد وفريد لانها ارتبطت بقيم سماوية عليا ولذلك قدر لها ان تسود لفترة طويلة حتى حينما انحسر المد عن المسلمين لما تركوا دينهم ، هذه الحضارة انطلقت الى اوربا بحيث نستطيع ان نقول ان الحضارة التى يعيشها الاوربيون — أو الغربيـــون — فى مختلف الميادين الفكرية والفلسفية والاجتمــــاعية والفيزيائية والطبية والرياضية ٠٠ كلها حضارة اسلامية فى جذورها ابتكرها علماء مسلمون خلص وعاشـــوا فى ظلالها يبشرون بها ويضيفون اليها الـــكثير ثم ترجمت كتبهم التى تعرف باسمائهم الى اللاتينيـــة وترجمت الى اللغات الانجليزية والفرنسية وغيرها وأريد أن انتهى الى ان الحضارة الاسلامية تمتاز عن غيرها بارتباطها الوثيق بقيم عليا ٠

● **هل كان للحضارات الاخرى تاثير على الحضارة الاسلامية**

٠٠ لقد ذكر بعض المستشرقين أن الحضـــارة الاسلامية تاثرت بحضارات اخرى فهل هذا صحيح ؟ ٠

نحن قوم غير متعصبين ، الدعوة الاســـلامية انتشرت انتشارا ليس له نظير فى التاريخ الحديث او القديم ٠وهذه الرحلة الطويلة دخلت معها اجناس كثيرة فى الاســـلام والناس تختلف حضارتهم وقيمهم ومعلوماتهم ما فى ذلك شك ولقد حدث ، ما يمكن ان نسميه بلغة العصر ، تبادل الخبرات بين الاقوام المتعددين وبين الامم العديدة التى دخلت الاسلام ، وفى عهد المأمون انشىء بيت سمى بيت الحكمة ، وكانت تترجم الاثار الفكرية من كل مكان . وانتفع المسلمون الذين يبحثون عن العلم بالمعرفـــة اينما وجدت ٠ والاسلام يحض على اقتناء المعرفة والبحث عنها ولا يعيب المسلمين أن يتعلموا من غيرهم ٠

ولقد انتفعت الحضارة الاسلامية بخير ما سبقها ولكنها اصبحت حضارة مبتكرة ولا أقول خلاقة لان الخلق لله وحده ، وهى حضارة مبتكرة فى مختلف الميادين ، فى الميدان الادبى اصبح هناك ادب اسلامى واصبحت الامة الاسلامية أمة كاتبة وكان العرب امة غير كاتبة ثم فى ميدان الفكر والفلسفة ظهر عندنا كثير من الفلاسفة العرب مثل الكندى والفلاسفة المسلمين كالفارابى وأضافوا أشياء كثيرة فى الفلسفة ، وفى ميدان الرياضيات ابتكرنا الصفر وهو شىء خطير ان يبتكر المسلمون فى عالم الاعداد ، الصفر الذى قلب الفكر الرياضى رأسا على عقب ،

وابتكروا علما جديدا هو الجبر، وحتى الكلمة نفسها كلمة عربية ، فى الفلك أضافوا سمتا جديدا للشمس والمسلمون هم الذين توصلوا الى هذا السمت على يد العالم الفلكي المسلم الكبير ألبتانى وهو نفس السمت الذى وصل به الامريكيون والروس الى القمر ، والبتانى يعد واحدا من احسن عشرين فلكيا فى تاريخ العالم فى الوقت الحديث

وفى تاريخ الطب نجد نفس الشىء فنجد الرازى لاول مرة يكتب كتابا فى طب الاطفال ، المسلمون هم الذين ابتكروا فكرة المستشفى ،فهى لم تكن معروفة. فالمستشفى بطرازه ووظيفته ونظامه ورعاية المريض كل ذلك نظام أسلامى .اذن الحضارة الاسلامية أستفادت من حضارات اخرى ولكنها اضافت وابتكرت وابدعت ولم تغفل القيم الانسانية ولا القيم الروحية وبذلك ادت النفع الكثير لعالمنا الانسانى قديمه ومعاصره

***

● احمد فراج : كيف كانت ركيزة العرب الى كل التقدم الحضارى الذى احدثه العرب والمسلمون ؟

● يقول الدكتور يحيى هويدى ،ان موضوع دراسة العلم

هو المادة والكون والانسان ، وموضوع دراسة الدين أيضا هو المادة والكون والانسان ، لكن الدين يقوم بدراسة الكون والانسان من حيث دلالتهما على الخالق ، أما العلم فلا يقيد نفسه بهذا الهدف ، لكن ليس فيه وليس فى التجارب التى يقوم بها العلماء ولا النتائج التى وصل اليها العلم ويصل وسيصل ما يتعارض أبدا مع الهدف الذى يهدف اليه الدين . هذا من ناحية ، ومن ناحية ثانية نجد أن دراسة الدين للكون والانسان دراسة كلية ، أما دراسة العلم لهما فهى تتسم بالطابع الجزئى ، العلم يهتم بجزئيات المادة والكون والانسان ، ومن هذه الناحية نستطيع أن نعتبر العلم جزءا من الدين ، وهذه المواءمة بين رسالة العلم ورسالة الدين تمثل أساسا هاما وركيزة جوهرية فى اسس الثقافة الاسلامية بوجه عام .

ولقد وجد المسلمون فى القرآن الكريم ، كثيرا من الشواهد والبينات على هذه المواءمة ، فالوحى كما نعلم بدأ بأمر وجهه الله سبحانه الى النبى عليه الصلاة والسلام بالقراءة : « اقرأ باسم ربك الذى خلق ، خلق الانسان من علق ، اقرأ وربك الاكرم الذى علم بالقلم علم الانسان ما لم يعلم » بل ان الله ليقسم بالقلم : « ن ، والقلم وما يسطرون » بل لقد جعل أولى العلم شهداء على قضية التوحيد والكون معه نفسه : « شهد الله انه لا اله الا هو والملائكة واولو العلم قائما بالقسط » والقرآن زاخر بالآيات التى تمجد العلم والعلماء : « هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون » ، و « قل رب زدنى علما » ، « انما يخشى الله من عباده العلماء » .. والقرآن زاخر أيضا بالآيات التى تحض على النظر والتفكير والتأمل فى آيات الكون : « وفى الارض ايات للموقنين ، وفى انفسكم أفلا تبصرون » .. « سنريهم آياتنا فى الافاق وفى انفسهم

حتى يتبين لهم انه الحق أو لم يكف بربك أنه على كل شيء شهيد » ، وهذه الايات التى تحض على النظــــر والتفكير والتدبر وتحكيم واعمال العقل الانســـانى ، لا تتعارض أبدا مع آيات أخرى تحض على الايمان بالغيب : « وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها الا هو ويعلم ما فى البر والبحر وما تسقط من ورقة الا يعلمها ولا حبة فى ظلمات الارض ولا رطب ولا يابس الا فى كتاب مبين » والغيب هو ما فوق عالم الشهادة والحس ، وقد يدل ذلك أيضا على هذا الجزء من عالم الشهادة الذى لم يصل اليه العلم بعد ، وقد يدل كذلك على هذا الجزء الذى توصل اليه العلم فى صورة ما ، لكن هذا لا يمنع أن يقدم مستقبل العلم صورا أخرى لهذا الجزء .

الغيب مفهوما على هذا النحو لا يتعارض أبدا مع العلم ومع الايمان بالعقل الانسانى ، والاسلام قد حرص كـل الحرص وحرصت الثقافة الاسلامية ايضا على أن تحض على الايمان بهذين معا بالعقل وبالغيب .. لماذا ؟ لتبعث الطمأنينة فى نفس الانسان . الانسان امام ألغاز الـكون ومعمياته قد يصاب بالهلع ويعتقد انه لا قبل له أبدا بحل ألغاز هذا الكون ومن ثم يسلك فى الحياة مسلكا مأسويا ، وهذا ما حاولت الثقافة اليونانية أن تقدمه له فصورته بأنه الشخص المضيع الغريب ــ من الغربة والاغتراب ــ الذى لا قبل له بحل كل تلك الالغـــاز ، ومن ثم فعـليه بالمأساة التى تقدم له الدواء عن ضياعه ولوعته .

والثقافة الاسلامية اذا قورنت بها نجد انها قــــدمت بالفعل أساسا هاما من اسس الحضارة . اعنى قضـــية الايمان بالغيب والعقل معا وعدم تعارضهما والمواءمة بين رسالة الايمان والدين وبين رسالة العقل من ناحية اخرى هذه الاسس هى التى حفزت المسلمين وأبناء الحضـارة

لاسلامية جميعا ، من غير المسلمين أيضا ، لأن الحضارة
لاسلامية قد أظلت بظلها المسلمين والنصارى واليهود
المجوس ، هى التي دفعت ابناء هذه الحضارة الى ان
نهلوا من منهل الثقافات المعروفة فى ذلك الحين وهى
لثقافات اليونانية والفارسية والهندية ــ وعلى رأسها
جميعا الثقافة الهندية ، والثقافة اليونانية كانت هى
لسائدة فى غرب آسيا وفى مصر ، فى دولتين عظيمتين :
لدولة البيزنطية والدولة الفارسية بعد أن غزاها
الاسكندر . واستمرت هذه الثقافة سائدة فى الدولة
الساسانية آخر دولة عظمى حكمت ايران قبل الفتح العربى

ومن هذا يتضح ان الثقافة الإسلامية قدمت أسسا
هامة ساعدت على اكتشاف أبنائها للعلم من كل سبيل
ومن كل بلد دون تفرقة بين حضارة وحضارة ، بين شرق
وغرب ، بين دين ودين ، وكان هدفها فى هذا أن تثرى
ثقافة الامم .

● احمد فراج : فهم المسلمون اذن القرآن ودعوته
للعلم واحترامه للعقل ولم ينشأ ذلك التناقض بين الإيمان
بالغيب والايمان بالعقل وسلطانه والدور الذى يستطيع
أن يستخدمه به الانسان للوصول الى التقدم وسائر
فروع المعرفة وكان ذلك الانفتاح والاقبال على العلم ،
فكيف كانت ملامح ذلك الاهتمام من جانب المسلمين بالعلم
وتحصيله ؟

● يتحدث الدكتور محمود قاسم عن هـذا الجانب
فيؤكد أولا على نقطة جوهرية فى خصائص المسلمين
والعرب فالعلم لا يمكن أن يثمر الا اذا كانت هناك حرية
فكر ، والعرب بطبيعتهم احرار لا تقيدهم قيود بيزنطية
ولا تقاليد دولة الفرس ، والاسلام فى جوهره دعوة الى
الحرية ، لانه يطالب الانسان ان يخلص العبودية لله

وحده، ومتى أخلص العبودية لله وحده فهو حر ، فهذه الحرية فى طباع العرب ، وهذه الدعوة الى حرية الفكر فى الاسلام وضحت فى القرآن منذ اياته الاولى .

وطبق الرسول ذلك عمليا عندما طلب الى اسرى بدر ان يفدوا انفسهم بتعليم كل واحد منهم عشرة من صبيان المسلمين ، ثم هذا الحرص نجده من اول الامر على كتابة القرآن مع بقائه فى الصدور ، ثم ان هذه الامة انطلقت بحريتها وبعبوديتها لله وحده واستطاعت ان تحقق فى فترة قصيرة ما لم تحققه أمة فى التاريخ . وليس من العجيب أن نجد اندفاعا من العرب الى تحصيل العلوم فى جميع مظاهرها ، لقد طلب من المسلمين أن يطلبوا العلم، والامبراطورية الاسلامية ــ اذا جاز هذا التعبير ــ امتدت فى فترة وجيزة من المحيط الى الهند والصين .

وكان من الطبيعى ان يصحب هذا التقدم الاجتماعى تقدم علمي . بعد الفتح الاسلامى وجدنا بلادا غير مدينة الاسكندرية ، تشتغل بالعلم مثل انطاكية حيث كان الامويون يحكمون فى دمشق ، والاسلام لم يعرف التعصب ولا العنصرية ولذلك شجع على الدراسة والعرب لهم ميزة هامة جدا وهى انهم يريدون دراسة الاشياء الواقعية ويريدون ان يطبقوا العلم من اجل العمل اى انهم لا يريدون دراسة العلم من أجل المعرفة ، لان الله كرم الانسان وأراد منه ان يسخر الكون ولا يمكن تسخيره الا عن طريق المعرفة ، فمن الطبيعى ان يسارع الخلفاء الى تشجيع العلم ، فمثلا عمر بن عبد العزيز كان يشجع العلماء ويساعدهم . استمرت مدرسة انطاكية تخدم العلم وخاصة التطبيقى كالطب والفلك .. الخ وكانت تستعين بعلوم اليونان ، ولكن يجب الا ننسى انه ليس هناك علم يسمى يونانى مثلا لأن اليونان قبل ذلك

أخذوا العلم عن المصريين ومن الشرقيين ، أخذوا منهم الرياضة والفلك وبعد ذلك تقدموا بها ولكن المسحة الغالبة عليهم كانت الادب والفن والمأساة ، بعد ذلك أستمرت مدرسة انطاكية مائة وأربعين سنة . عندما أنتقل الملك من بنى أمية الى بنى العباس وجدنا ان العلم يرحل مع الدولة فوجدنا مدينة حران ومدينة جنديسابور التى نجد فيها اختلاطا بين الثقافات الفارسية والهندية واليونانية.

ونجد ان التشجيع يبدأ بطورة واضحة ، بينماحين بدأ العلم العربى يدخل أوربا لا نجد ذلك التشجيع . مثلا الخليفة المنصور وهو ثانى خلفاء بنى العباس طلب الى بعض الاساتذة وعلماء الطب ان ياتوا الى بغداد ومنهم الطبيب « بن بختيوشع » وأسرته نصرانية استطاعت أن تبنى مجدا عظيما فى بغداد لمدة ثلاثمائة عام . طبعا فى ذلك العصر كانت الحرف وقفا على الأبناء وكان فيها اسرارها فكل صاحب مهنة يعلم ابناءه أسرارها ويقال ان بختيوشع هذا وصل دخله فى حياته الى ما يعادل ٣٫٥ مليون جنيه استرلينى ، هذا فى أيام الدولة العباسية ، وعندما جاء هارون الرشيد انشأ مستشفى فى بغداد وشجع الحركة العلمية وحركة الترجمة . ويلاحظ ان المترجمين كانوا من غير المسلمين . ولم يكن لدى المسلمين تعصب لانهم قوم عمليون يريدون أن يطلعوا على الثقافات . وأصبحت الترجمة « موضة » فالخليفة يشجع عليها ويعطى الأموال ويبعث الوكلاء الى بيزنطة عاصمة الروم . ووكلاء الخليفة نفسه يذهبون لشراء المخطوطات واذا بالاعيان والأمراء يحذون حذو الخليفة فيشجعون المترجمين وهكذا .

ثم جاء المأمون الى بغداد بعد أن كان فى خراسان واستخدم بعض المترجمين مثل يحيى بن ماسويه وحنين بن أسحق ، وكانوا يترجمون الطب كما نقلوا الفلك والرياضة عن الهند

وانتشت المدارس الطبية فكان فى بغداد عدة مدارس ومستشفيات وكانت لعلاج جميع المرضى مسلمين أو غير مسلمين ، وكان العلاج بالمجان مع العناية التامة ولكل مستشفى رئيس ، وهكذا .. لقد ارتحل العلم من الاسكندرية الى انطاكية الى حران الى بغداد ، ولقد كان هناك المتخصصون فى الترجمة كما كان هناك المشغولون بالتأليف والابتكار ، كما رأينا بعد ذلك ابن سينا والرازى وعبد اللطيف البغدادى وغيرهم .

● ويطرح موضوع تشجيع العلم والترجمة تساؤلا فى أذهان البعض ، هل كانت الحركة العلمية عند العرب تقوم فحسب على الترجمة والانفتاح على « علوم الأوائل » كما كانت تسمى ، وبمعنى آخر هل كان دور العرب مجرد عملية نقل وترجمة اثار الحضارات القديمة لوضعها بين أيدى اوربا فحسب ، وهل كان المسلمون مجرد « جسر » عبرت عليه الثقافة القديمة ولم يكن لهم قدرة على الابتكار؟

هذا ما يجيب عليه د . يحيى هويدى فيوضح أولا أن نقل ثقافة شعب من الشعوب ليس عيبا وانما العيب هو أن يصد الشعب نفسه عن الانتفاع والافادة من الثقافة أيا كانت لاعتبارات دينية أو عنصرية ، هذا هو العيب الذى سجلته وتسجله الانسانية على حضارات أخرى غير الحضارة الاسلامية . أما الحضارة الاسلامية وأساسها القرآن فقد عارضت تلك الاعتبارات ولم تقم لها وزنا

ويقدم لنا « الكندى » الفيلسوف العربى مثلا فيقول ينبغى الا نستحى من استحسان الحق واقتنائه وان أتى من الاجناس القاصية عنا والامم المباينة لنا ، فانه لا شيء أولى بطلب الحق من الحق .. والثقافة الاسلامية اتجهت منذ نشأتها هذا الاتجاه العالمى وهذا من أهم مميزاتها ، ولكن ليس معنى انفتاحها انها اكتفت بأن كانت همزة

وصل بين الثقافة اليونانية والثقافة الغربية ويهمنى ان اقدم هنا عدة ملاحظات ، فالثقافة العربية الاسلامية قامت على استيعاب الثقافات الاخرى ، ومعنى الاســـتيعاب هو الهضم والتمثيل والاضافة ، فاضافت لها الجديد والامثلة على ذلك كثيرة ، واشير هنا الى قضية الترجمة التى ذكرها الدكتور قاسم، فابن اسحق المترجم كان يعرف السريانية لغة الكنيسة الشرقيةالتى ترجماليها كثيراً من كتب اليونان ولكن ابن اسحق لم يكتف بالنقل بل رجع الى الاصول اليونانية نفسها ولذلك جاءت الكتب العربية اكثر دقة فى الترجمة من اليونانية من الترجمـــات السريانية وشهادة المستشرقين فى هذا لا تقبل الشك فالمستشرق (ادوارد براون) فى كتابه الطب العربى يقول « ان العرب كانوا فى نقل التراث اليونانى الى العربية اكثر دقة من الاوربيين فى نقل التراث العربى الى اللاتينية فى العصور الوسطى» ذلكان الغرب اكتفى بالنقل من العربية الى اللاتينية، ولم يكن الامرعند العرب مجردترجمة بل كان فيه اضافات اصيلة وجوهرية، فاقدم كتاب فى طب العيون هو الذى جمعه والفه حنين بن اسحق وهو عشر مقالات فى العين ولم يكن مجرد ترجمة وانما كان تقديما لطب العين بطريقة خاصة اصبح الكتاب معها يمثل مرجعا هاما من مراجع الطب العربى فى القرن الوسطى .

● **يزعم البعض ممن لم يستطيعوا انكار اثر الحضارة الاسلامية ان الفضل فيها يرجع الى العلماء الذين دخلوا الاسلام ولم يكونوا من العرب الخلص ، متوهمين ان ذلك يجردها من الاصـــالة والذاتية . فما ردنا على هذا الزعم ؟**

● يتحدث الدكتور . محمود قاسم عميد كلية دار العلوم عن هذا الجانب فيقول ان هذه المسالة ترجع الى العصور

الوسطى وعلى التحديد اواخر القرن الحادى عشر واوائل القرن الثانى عشر . ويجب الا ننسى اننا لا يمكن ان نفصل العرب من الاسلام والحضارة الاسلامية ، فهما مزيج متكامل . والجو الحضارى العربى الاسلامى ممتزج كل الامتزاج . ولقد قامت حملة تشويه الحضارة الاسلامية منذ العصور الوسطى وساهم فيها اليهود مساهمة كبيرة جدا اثناء نقل تراث العرب الى اوربا لانهم كانوا تجار علم ومال وكانوا يجيدون العربية لأنهم كانوا يعيشون بين العرب وكانوا كذلك أهل خبث ودهاء ولقد ظل ذلك شأنهم حتى ساءت أحوال العالم الاسلامى فى القرن ١٩ ولذلك نجد من اشهر المستشرقين يهوديا اسمه مون يقول آن العرب شوهوا العلم ولم يأتوا بشيء جديد . وهو يضع العرب والمسلمين فى سلة واحدة . والواقع انه فى القرن ١٧ كان العلم العربى والفكر العربى يغزوان اوربا بشدة ، وكانت أوربا تقاوم على عكس ما رأينا خلفاء المسلمين الذين كانوا يشجعون على معرفة الثقافات الاخرى وهو موقف مختلف تماما . ولقد وضع المسلمون الاسس لحركة علمية شاملة وظلت أوربا من القرن ١٢ الى القرن ١٧ تقاوم العلم العربى والفكر الاسلامى . فاذا رجعنا الى القرن ١٩ نجد مون هذا والمستشرق ارنست رينان ـ وكان الاخير يجيد العربية واللغات السامية ـ نجد رينان مثلا يتهم العرب بأنه ليست لديهم اصالة وأن الشعوب الاخرى هى التى ساهمت فى حضارتهم وهذا غير سليم فنحن نجد ان ابن الهيثم وابن خلدون وعبد اللطيف البغدادى وابن رشد وابن باجر وابن صهيب وابن عربى وهو متصوف وغيرهم كثيرون ، فمثلا نجد ان عند ابن عربى آراء أستطيع أن أقول انها توجد فى الفلسفات الحديثة ولكنه مطموس لا يعرف عنه احد شيئا

فما هى حكاية رينان بالضبط ؟ ..

لقد كان يقول أن العقلية العربية عقلية جامدةوليس لها أى اصالة .. والسبب — فى رأيه — ان العرب يهتمون بالجزئيات وقوم لديهم خيال ، وطبعا هو يريد ان يزكى اليونان لأن اوربا حريصة على أن تنكر فضل العرب لأن واحدا من كبار علمائهم يقول « ان العصور الوسطى هى سبة فى جبين اوربا » والعصور الوسطى بدأت عندهم فى القرن السابع الميلادى » والقرن السابع هو مهبط الاسلام، فهذه السبة يريدون ان يمسحوها بأى طريقة .

اما اليونان فقد قال عنهم رينان انهم عباقرة وعندهم الكليات أى المعانى العامة ولقد رد عليه السيد جمال الدين الافغانى باعث النهضة الاسلامية ، وناقش معه مسألة العقلية السامية والعقلية الالية .

ونحن نعلم من ناحية اخرى أن الاستشراق كان يسير دائما مع الاستعمار بهدف تحطيم معنويات الشعوب الإسلامية والعربية ومحو خصائصها لأنه بذلك يستطيع أن يستغلها الى الابد . ولست أريد انارد على رينان بالقضايا العامة والكليات وانما اتبع معه المنهج العربى وانا أسلم بأن العرب لديهم بالفعل الاهتمام بالجزئيات والاهتمام بالخيال» وعندما ندرس المنهج العلمى — وهو منهج عربى — نجد أنه لا يقوم الا على اساس الاشياء الجزئية والخيال ولذلك نجد مثلا روجر بيكون فى القرن ١٦ أراد ان يحرر اوربا من التفكير اليونانى فأخبرهم عن وجود مناهج وطرق علمية عظيمة جدا :

المنهج الاول هومنهج اليونان اذا كانمطابقاللواقع، وطبعا المنهج اليونانى عبارة عن قضايا فضفاضة وعامة جدا ولكنها غير مطابقة للواقع .

والمنهج الثانى هو راى رجال القانون اذا كان

مطابقا للعقل ، ثم انتقـــل نقلة سريعـــة وقال ، اما المنهج العلمى الصحيح فهو المنهج التجريبى الذى يقوم على ملاحظة الجزئيات واستخدام الرياضة .

فاذا رجعنا الى من كان يستخدم ملاحظة الجزئيـــات والرياضة نجدهم العرب ، فمثلا البغدادى يرفض كل ما يكذبه الحس لانه لا يمكن أن يكون معقولا من ناحية الخيال ، فلاحظ ان اى انسان مخترع لا يمكن ان يخترع من العقل، فلا بد أن تكون هناك مادة أولية وعناصر كثيرة ثم يفكر فى طريقة تركيبها،ولقد ضمت حضارتنا الاسلامية أصحاب الابداع والاختراع.

ولقد قرأت شيئا عجيبا عند ابن عربى ، بحثا عجيبا فى الخيال، ووجدت عنده نصوصا تشبه نصوص نيوتن . يقول ابن عربى : أن الشخص تأتى له الفكرة كلمـــح البصر ، كاشراق ، وهذا يسمى الخيال المجمل ، بعد ذلك تأتى التفاصيل ـ وهى الجزئيات التى يعيبها علينا رينان ـ وكل تفصيل يضع نفسه فى هذه الفكرة الاجمالية . فمـــاذا يقول نيوتن ؟ انه يقول اذا كانت بحوثى قد أدت الى بعض النتائج المفيدة فذلك لاننى أجعل موضوع البحث نصب عينى دائما ، ثم انتظر حتى تسطع الاشعة الاولى التى هى الخيال المجمل ، ثم يزيد الضوء شيئا فشيئا حتى يصبح مفعما كاملا وهى التفاصيل . ونستطيع أن نقارن بين العبارتين .

مثال اخر لابن عربى ايضا يدل على الايمان بفـــكرة القوانين العلمية ، فيقول أن النـــاس تعجب بأعمـــال السحرة والشعوذة مع أن أعظم اعجاب يجب أن يوجه الى القوانين التى وضعها الله فى الكـــون . وانظـــر بعد هذا الى هنرى بوانكاريه يقول هناك شعوب مازالت تعيش فى معجزات مستمرة ، أى الشـــعوب البدائية ،

عندما نحضر لها « فوتوغرافية » مثلاتعتقد أن فيها عفريتا أو شيطانا ، لكن الشـعوب المتحضرة هي التي ترى أن قوانين هذا الكون هي المعجزة الكبرى . ونحن نعرف أن ابن عربي عاش في القرن الثالث عشر، وهنري بوانكارية في القرن العشرين .

والخلاصة ان المنهج التجريبي لم يدخل أوربا الا ابتداء من القرن الثالث عشر بل وحورب كثيرا حتى بدأ يتنفس وعندما عرفوا قيمته أخذوه وخدعنا ـ نحن أصحاب المنهج ـ في منهج ارسطو .

● فما هو اذن هذا المنهج العربي العلمي بشيء من التفصيل ؟

● يجيب د . يحيى هويدي وكيل كلية الاداب بجامعة القاهرة فيقول : المنهج العلمي هو المنهج التجريبي القائم على الملاحظة وعلى التجربة والذي ينتهي من استقراء الظواهر الى استخلاص القانون العلمي العام .. القانون العلمي هو تفسير علمي للظواهر وهذا المنهج عرفه العرب وابتدعوه عن طريق ايمانهم بالحس والمشاهدة وعرفوه ايضا عن طريق الاستعانة بالالات والاجهزة باعتبار انها ادوات مساعدة لتقوية الحواس ففي فن الطب نجـد طبيبا مثل « ابن النفيس » كان يقيم علمه على التشريح .. تشريح الجثة ، وذلك في الوقت الذي كانت فيه أوربا تعتقد ان هذا التشريح رجس من عمل الشيطان ، وانه لا يمكن ان يتفق مع كرامة الجسم الانساني . وثابت أن أول عملية تشريح تمت في أوربا اجريت في باريس سنة ١٤٧٨ بعد وفاة ابن النفيس بمائتي عام تقريبا .

جابر بن حيان مثلا عالم الكيمياء المشهور كان يعتمد في دراسته لعلم الكيمياء على التجربة والملاحظة وكان يعد الاجهزة بنفسه . وكذلك ابن الهيثم في تجاربه على الضوء

وانتشاره وانعكاساته ، كان يصنع الآلات بنفسه ويجهزها ليثبت تجاربه . لقد أصبح علم الكيمياء على يد العلماء العرب علما تجريبيا محضيـــا لا علم أسرار . والعرب بطبيعتهم كانوا يتجهون بتفكيرهم الى التجربة والواقع من الناحية العلمية . وفى الناحية الفقهية كانوا أيضـــا يتجهون الى العمل النافع الذى ينفع المجتمع العصرى.

والعقليات العربية كانت تتجه دائما الى العلم النافع الذى ينفع الانسانية والمجتمع اما الفكرى النظرى فكانوا لا يحفلون به كثيرا . فى الطب مثلا كان الفحص الطبى عند الطبيب المشهور ابن سينا يقوم كما يقوم اليوم على تشخيص المرض فيبدأ بالاستماع الى المريض ولا يكتفى بذلك بل يسأله عن أسرته وعما اذا كان قد أصاب احد افراد الاسرة مرض أم لا ثم يتعقب افراد الاسرة وامراضهم ثم ينتهى بعد ذلك الى تحليل البول وجســـس النبض

ويكفى ان نعلم ان كتاب «القانون» لابن سينا طبع فى الثلاثين سنة الاخيرة من القرن الخامس عشر ، خمس عشرة مرة وطبع فى القرن السادس عشر ، عشرين مرة ، وظل يدرس فى القرن السابع عشر فى جامعات فرنسا وجامعة بوانكاريه بالذات حتى منتصف القرن التاسع عشر تقريبا ، فالعرب اقاموا دراساتهم الطبية على نفس الأسس التى نشاهدها الان. طبيب مثل ابن عباس يقول ان جس النبض هو رسول لا يكذب وله كلمات كثيرة فى دقة التحليل الطبى .. كلمات يأخذها الاطبـــاء الآن على انها قضايا مسلمة . الجراحة وفنها توصل اليها أبو القاسم وتوصل اليها بمعداتها وأجهزتها الكثيرة، وقدم اليونانى كتابه رسومات متعددة لادوات الجراحة يكاد من يطلع عليها ان يعقد مشابهات كثيرة بينها وبين أدوات الجراحة التى نشاهدها الان فى حجرات العمليات .

ووصل العرب فى نظام المستشفيات الى انظمة دقيقة جدا فكان عندهم نوعان من المستشفيات: الثابتة والمتنقلة والاولى عندما كان يدخلها المريض كان لا بد أن يخلع ملابسه ويسلمها ونقـوده الى أمين المستشفى ويلبس ملابس المستشفى ثم يستمر فيها يعالج بالمجان ويقدم له الطعام ثم لا يخرج منها الا معافى ، ودليل العافية أن يأكل دجاجة ورغيفا كما يقول المؤرخون ، وعندما يقوى على أكل الدجاجة والرغيف يغادر المستشفى ويمنح قدرا من المال ليواجه به احتياجاته حتى لا يضطر الى العمل مباشرة • كل هذه الانظمة كانت تتبع فى دقة متناهية فى العصور الوسطى عصر النـور والحضارة الاسلامية ، فى الوقت الذى كانت فيه أوربا غارقة فى الظلام •

صفحة

وكلاء اشتراكات مجلات دار الهلال

انجلترا :

THE ARABIC PUBLICATIONS
DISTRIBUTION BUREAU
7, Biskopsthrope Road
London S.E. 26
ENGLAND.

البرازيل :

Sr. Miguel Maccul Cury.
B. 25 de Maroc, 994
Caixa Postal 7406,
Sao Paulo. BRASIL.



هذا الكتاب

من أجل الخدمات التي تقدمها الاذاعة المرئية ـ في بلادنا الندوات الدينية الشائقة التي يترقبها المشاهدون والمشاهدات أكثر من عشر سنوات ـ بعد ظهر أيام الجمعة من كل أسبوع برنامج « نور على نور » •• اذ يتابعون فيها آراء نخبة من ... العلماء ورجال الفكر الاسلامى البارزين ، فى الموضوعات الهامة ترتبط بحياتهم وحياة أبنائهم وبناتهم • كما يقفون من خلال المنا... التى يعرضها البرنامج على الكثير مما يدق على الفهم ـ أو ... فيه الآراء ـ من خفايا الجوانب الدينية والروحية ••

وقد كان من أهم أسباب نجاح هذا البرنامج ، أن تولى تقـ... والاشراف عليه محدث لبق عامر القلب بالايمان واسع الاطلاع ... الذهن ترتاح النفس الى حديثه ، يحسن اختيـــار الموضوعات ... يثيرها للنقاش والمناسبات التى تثار فيها ، فضلا عن توفيقه فى اخ... المفكرين ورجال الدين المتفقهين فى هذه الموضوعات •

وقد تمنى كثيرون ـ فى مصر وسورية وليبيا والسودان والمـ... العربية السعودية والجزائر وغيرها من البلدان العربية والاسلامية ان تظهر هذه الحلقات فى كتب ، حفاظا على هـــذا الزاد الرو... والبحوث الرصينة الجادة والدراسات الدينية القيمة ، وحتى يستـ... بها ويفيد منها الذين فاتهم الاستماع اليها ومشاهدتها • وتحقيقا لـ... الرغبات ينشر « كتاب الهلال » مجموعة مختارة من حلقات هـــ... البرنامج ، فى هذا الشهر المبارك الذى يحتفل فيه المسلمون من مشا... الارض الى مغاربها بشهر رمضان المعظم •

١٢ قرشا

